مفاتيح القراءة

بسم الله الرحمن الرحيم

كل الحقوق محفوظة

دار اليقين للنشر والتوزيع

الكتاب : مفاتيح القراءة

المؤلف : منير لطفي

مقاس الكتاب : ١٤×٢٠

عدد الصفحات : ٤٥٢ صفحة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨م

رقم الإيداع: 2018-26077

الترقيم الدولي 978-977-336-764-0

دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر - المنصورة

المنصورة: شارع عبد السلام عارف الكردون الخارجي لسوق الجملة بجوار معارض الشريف س. ب. ٤٥٦ المنصورة ٣٥٥١١

جوال: 002 01001575852 البريد الالكتروني: elyakeen @hotmail.com

القاهرة كورنيش المعادي - ٦ أبراج المهندسين - الدور السادس - شقة ٢

مفاتيح القراءة

د/ منير لطفي

لماذا نقرأ؟

كيف نقرأ؟

ماذا نقرأ؟

نجوم القراءة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

اقرأ وربك الأكرم

صدق الله العظيم

إِهْدَاء

إلى مَن أَسْدُوا إليّ أجمل صنيع قبل خمسين عامًا؛

فأخذوا بيدي الغضّة إلى عالَم الحرف،

وعلّموني كيف أقرأ وكيف أكتب. . .

لكم جميعًا هذه الدعوة الملائكية

«طبتم وطاب ممشاكم وتبوّأتم مِن الجنّة منزلا»

بين يدي الكتاب

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾[١]...لو لم يكن هنالك داعٍ إلى القراءة إلّا ذلك الأمْر الإلهي لكفى؛ إذْ كيف لِعاقل أن يتقاعس عن تنفيذ أوّل بند في دستور الحياة الخالد: «اقرأ»، وكيف لحصيف أن يشيح بوجهه ويصمّ عقله عن البند الثاني في وحي السماء: «ن والقلم وما يسطرون»[٢]، فضلًا عمّا ورد في تضاعيف الهدْي النبوي، وفي آثار السلف وتوجيهات المُربّين وحِكَم المفكّرين، ممّا امتلأت به الأضابير وغصّت به الكُتب، ولسان حالها جميعا يهتف: اقرأ لتَحيا، واقرأ لتفْرح، واقرأ لترقى.

فالقراءةُ نهرُ المعرفة الزاخِر بالكنوز، وسماءُ العِلم المُرصّعة بالنجوم، وروضةُ الثقافة العامِرة بالزهور، وبستانُ المتعة الذي يَلفّه الأيْك ويَتخلّله النسيم؛ تَلدنا كأمّ وتُربّينا كأب وتُرشدنا كمعلّم وتهذّبنا كمربّي، كما تَصحبنا كصديق وتُؤنسنا كحبيب وتَحتوينا كوطن. وهي ميزان (فولتير) الذي وزَن به القادة مِن البشر، وفي عِشقها جرّ (ابنُ عبّاد) وراءَه ثلاثين جملًا مُحمَّلة بكتبه أينما

---

(١) سورة العلق الآية :(٣).

(٢) سورة القلم الآية :(١).

ارتحل وحيثما حلّ، كما جُنّ (ابنُ الملقّن) أسفا على الحرمان منها حين ضاعت كتبُه التي كانت لُبّه ونُهاه، بل هناك-ويا للعجب- مَن اعتنى بكتاب ما، فقرأه واستظْهره، حتى عرفه الناس به وخلعوا عليه لقبَه، أمثال بدر الدين الزركشي الذي لُقِّب بالمنهاجي نسبة إلى كتاب (منهاج الطالبين) لِمُصنِّفه الإمام النووي ، وابن سليمان الرومي الذي لُقِّب بالكافيجي لكثرة اشتغاله بكتاب (الكافية في علم النحو) لمؤلّفه ابن حجاب، وعلي أبو الحسن الذي لُقِّب بالفصيحي لكثرة دراسته كتاب الإمام أبي العباس ثعلب وعنوانه (الفصيح)...وغير هؤلاء كثير ممّن وقَعوا في أسْر القراءة وهاموا بها حدّ الهوس؛ فجُنّوا كمجنون بني عامر، وسقطوا صرعى مرض الببلومانيا أو جنون القراءة...وأَنْعِم به مِن أَسْر وأَكْرِم به مِن جنون.

وهي فِعل تواصُلٍ مع الحروف، نستخرج بها المعاني مِن الكلمات المطبوعة أو المكتوبة؛ تارة بالعيْن دون اللسان فتكون قراءة صامتة، وتارة بالعيْن واللسان فتصبح قراءة جهْرية، وتارة ثالثة تنوب فيها الأذن عن العيْن واللسان فتصير قراءة سمْعية؛ وذلك حين يُسافر الضياء بلا عودة، وتَنبت الأزهارُ بلا ألوان؛

فيُحرَم أحدُهم مِن نعمة البصر التي قال عنها كاتب روما وخطيبها المصقّع (شيشرون): «أكثر حواسّنا حدّة هو نور العين»، ويَلتحق بعدها قسْرا بقافلة بشّار بن برد والمَعرّي وطه حسيْن وبورخيس، وهم قافلة الأكِفّاء المغبونين في عالَم القراءة، إذْ لا يَتوفّر مِن الكُتُب المَسموعة سوى ١٠٪ مِن المواد المطبوعة حسب إحصائيات الجمعيّة الدوليّة للمَكفوفين، وبالتأكيد ستقلّ النسبة عن ذلك، إذا وقفْنا على إحصائيات الكُتب المتاحة للقراءة بطريقة (برايل) التي تَستخدم حاسة اللمس!...والواقع أننا لا نقرأ بأعيننا ولا نقرأ بألسنتنا ولا نقرأ بآذاننا ولا نقرأ بأناملنا؛ بل نقرأ بعقولنا ونفقه بقلوبنا.

أمّا المقروء الذي أَخرَج الكلماتِ مِن بطون القواميس، وألّف بينها حتى غدَت عرائسَ لا عوانس وأحياءَ لا أحجار؛ فتارة يكون نثرا يَطوي تحت أجنحته ضروب المقالة والقصة والرواية، وغيرها مِن الفنون النثرية التي تُشعل فتيل الذهن، وتُوقد جمْر الهمّة، وتَقدح زناد الفكر. وتارة يكون شِعرا حُرًّا يَستغنِي بموسيقاه الداخلية، أو شعرا عموديّا يُبحِر في التفاعيل ويُجدِّف بالقوافي؛ فيَخفق له القلب، وينشرح منه الصدر، وتستَرْوح به النفس. وتارة يكون قرآنا ليس

كمِثله مقروء[١] ولا كهيئته قراءة؛ إذْ التلاوة أخصّ من القراءة، فكلّ تلاوة قراءة وليس كلّ قراءة تلاوة؛ وهو ما يشفِي الكلوم، ويُضمّد الجروح، ويُحرّر الروح.

والحقّ أنّ القراءةَ مَدِينةٌ -من الدَّيْن- للقلَم؛ هذا الكاهن الذي يبتلع مدادا أشدّ سوادا مِن ظلمة الليل، فيلفظه ضياء مِن معرفة ونورا مِن وعْي! والساحر الذي يُفهِم دون أن يَفقه ويَنطق دون أن يتكلّم! والعظيم الذي أقسم اللهُ به ضمن مقسوماته العظيمة كالشمس والضحى والسماء والأرض والنّجم! والأوّل الذي تَصدّر طابور المخلوقات فكان أوّل ما خَلق الله عَزَّوَجَلَّ. وهو أيضًا ما لقَّبْته العربُ بأحد اللّسانيْن، وتَسمّت باسمه ثاني سور القرآن الكريم نزولا، وعرّفه الأصمعي بأنه عُود من العِيدان يَنوب عن اللسان إذا ما تباعدَت الأوطانُ وافترَق الأحبّةُ والخِلّان.

ومَدِينةٌ أيضًا للورق الذي اخترعه الصينيُّون في عام ١٠٥م، وودّع به الإنسانُ عصورًا مِن الكتابة على ألواح الطين، وسعف النخيل، وجلود

(١) في هذا المعنى قال صاحب الأيام (طه حسين): «القرآن ليس نثرا وليس شعرا ولا يمكن أن يُسمَّى بغير هذا الاسم؛ ليس شعرا لأنه لم يتقيد بقيود الشعر، وليس نثرا لأنه مقيد بقيود مخصوصة لا توجد في غيره، وهذه القيود بعضها يتصل بأواخر الآيات، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصّة».

الحيوانات، والقماش، وورق البردي. ومَدِينة كذلك للمطبعة التي حاز قصب سبْقها الألماني (يوحنا جوتنبرج) في عام ١٤٥٥م، وشقّت طريقَها إلى العالَم الإسلامي في عام ١٧٢٧م على يد السلطان العثماني أحمد الثالث، ثمّ إلى لبنان في عام ١٧٣٣م ومصر في عام ١٧٩٨م. وبالتأكيد مَدينة أيضًا لأزرار الآلة الكاتبة التي قَبرتْها لوحةُ المفاتيح إلى الأبد.

وقد لخَّصَت سلام خياط تاريخ الكتابة، في حروف أقرب إلى الشِّعر منها إلى النثر؛ فوصفتْها بأنها بدأت بإصبع ماس بين ذرّات الرمل، وريشة طيْر مَسَّدت على جلد غزال، وإزميل عانق صخرة صمّاء، وقصبة جاست على لوح طين، قبل أن تنضج ويستوي عودُها فتكون قلَما حطّ على ورقة بردي، وأنامل ضغطَت على آلة.

والحقّ أيضًا أننا جميعًا مَدِينون للكِتاب؛ ذلك الميراث الثمين الذي أهداه السلفُ للخلف، والشريان الذي وصفه الشاعر الإنجليزي جون ميلتون بأنه الشريان الرئيسي لحياة الروح، والخالِد الذي قال عنه الجاحظ أنّه أكثر خلودًا مِن القصور والحصون، والطعام الذي وصفه العقّاد بأنه طعام الفكر، أضِف إلى ذلك

أنه يُعدّ -وبحقّ- العنوان الأبرز والسمْت الأصيل لحضارتنا الإسلاميّة. وما ذلك إلّا لأنّه عالجَ ضعْف الذاكرة البشريّة حين تَخطّى حدود الزمَن؛ فحفظ لنا التاريخَ بما فيه مِن دروس وعِبر. وجاوز حدودَ الجغرافيا؛ فسافر بنا مِن أقصى العالَم إلى أقصاه، دون أقدام أو سفن أو طائرات، بل عبْر حروف في كلمات في صفحات. وكان كما سَمّاه علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالمُحدِّث؛ وذلك حين قرّظه قائلًا: «نِعم المُحدِّث الكتاب». كما صار خزانة أسرار العالَم الذي صانه من التِّيه وحماه من الضياع؛ وذلك على حدّ قول الكاتب جودت سعيد: «لو فقد الناس كلَّ شيء وبقيت الكُتُب لأمكن إعادة كلّ شيء، ولكن لو فقدوا كلّ شيء مع الكتب، لاحتاجوا مرّة أخرى إلى الزمن الذي احتاجه تقدّم العِلم». ولذلك لا عجب أن تقرأ أنّ إسحاق بن راهويه تزوَّج بامرأة مات عنها زوجها، لأنّ الزوج كان يملك كتب الشافعي التي آلت إليها بعد وفاته، وما بنَى بها وعقد عليها إلّا ليظفر بهذه الكُتب! أو أن تقرأ قول الفيروز آبادي: «اشتريتُ بخمسين ألف مثقال ذهبا كُتبا»! أو أن تقرأ أنّ هناك مَن بلغ به حُبّ الكتب حدَّ الوصيّة بدفنها معه! أو تعلَم أنَّ أحدَهم(١) بلغ به حُبّ كتاب (معالم في الطريق) مبلغ أنْ سمّى ابنته باسم الكتاب

(١) (نجم الدين فرج) الشهير بالمُلّا كريكار؛ وهو داعية إسلامي كردي، وزعيم سابق لجماعة أنصار الإسلام.

(معالم)، وسمّى ابنه على اسم المؤلِّف (سيّد قطب).

أمّا هذا الكتاب الذي بين أيدينا؛ فما هو إلّا تعبير عن حبّ القراءة ووفاء لدَيْنها وردّ لبعض جميلها، وهو كذلك مِن قَبِيل الدلالة على الخيْر وأداء الأمانات والإعذار إلى ربّ الناس، ولعلّه بذلك يشيع روح المطالعة ويشدّ مِن أزْر الكِتاب؛ فيكون لبنة في الإحياء بعد الموات والنهضة بعد العثار والإقدام بعد الإحجام؛ خاصة بعد أن غدا العِلمُ مفتاح النهوض وبوابة التقدّم، وأضحَت المعرفةُ ثروةَ السِّلْم وقُوّة الحرب.. وبعد أن طوّح بنا التخلّف بعيدا خلْف الركْب، وصارت القراءة بيننا فعلًا استثنائيًا يُساق لها أغلب الناس سَوْق العبيد؛ طلَبا لشهادة أو وظيفة ليس إلّا، وكأنّ لسان حالهم يقول: القراءة شرٌّ لا بدّ منه!.. وكذلك بعد أن أَثبت التاريخُ بما لا يدَع مجالا للشكّ؛ أنَّ القراءةَ ممحاة الجهل وبذرة الوعي، وأنَّ الأمم الواعية التي يَسري فعلُ القراءة فيها سيْرا طبيعيا تلقائيا؛ تَستعصِي على الاستبداد، وتتأبّى على الاحتلال؛ اللذان-أي الاستبداد والاحتلال- يَجرّان في أذيالهما كلّ النقائص والمعايب والنكبات.

وقد قُدِّر لهذا الكِتاب أن يُولَد من رحِم مطالعةٍ الكترونية مكثّفة دامت خمسة أعوام[١]، وذلك عبر جهازي اللوحي الذي رافقني في غُربتي مرافقة الظلّ للشجر والجِلد للبدن، فاختزنْتُ فيه مئات الكتب التي جاد بها الكرامُ مِن أصحابها وكانت كلأً مباحا على الشبكة العنكبوتية، وكوَّنْتُ بذلك مكتبة افتراضية؛ استعضْتُ بها عن مكتبتي الماديّة التي بقيَت حبيسة الجدران في وطن جريح. بل زادني هذا الساحِرُ المضيء جُودا؛ فأَسعفني بقلم رقمي رشيق يرقد في جرابه كوليد الكانجارو، ومكَّنني مِن السطْو المشروع على ما أعجبني من اقتباسات، ثمّ الاحتفاظ بها في سجلّ القصاصات، وتدوين ما يحلو لي مِن ملاحظات عليها، قبل تنظيمها إلى فئات بطريقة أشبه ما تكون بطريقة البطاقات التقليدية التي يتّبعها بعض الكُتّاب. وذلك حتى تَجمَّع لديّ كنزٌ يُناهز العشرة آلاف قصاصة في شتّى مجالات المعرفة، انضمّ فيها النظيرُ إلى نظيره والشبيهُ إلى شبيهه، وكان منها ما اختصّ بموضوع القراءة وما يتعلّق بها ويتشعّب عنها،

(١) هذا لا يعني أنّ السنوات السابقة على تلك الخمسة أعوام لم تُلق بظلالها على سطور الكتاب؛ فالحقّ أنّ كلّ كتاب ثمرةُ تجربة الكاتب منذ مولده وحتى تاريخ تأليف كتابه، نعم قد تطغى فترة على أخرى فتبرز، وقد تمثِّل بعض التجارب شرارة البدء ومهماز الانطلاق، لكن يبقى لكلّ يوم مضى أثره، ويظل لكلّ تجربة مرّت بصمتها.

ومثّل الشرارة الأولى لفكرة هذا الكتاب...فما السيْل إلّا اجتماع النُّقَط، وما الغيث إلّا قطْرة تعانق أختَها القطْرة.

ولعلّ في هذا دليلا دامغا على أنّ كلّ كاتب هو بالضرورة قارئ، بل وقارئ كبير، إلى القدْر الذي يُحتِّم عليه أن يقرأ كتابا لكي يكتب بضعة أسطر، وإلى الحدّ الذي لا يُرى فيه -غالبا- إلّا مُمتشِقا القلمَ بيُمناه ومتأبِّطا الكتابَ في يُسْراه، وإلى الحدّ الذي ينطبق عليه وصف (دُودة الكتُب). كما يؤكِّد ذلك على أنّ القراءةَ هي أشرعة الكُتّاب التي يخوضون بها غمار البوْح الفني، وبراقهم الذي يعرجون عليه إلى سماء السرد الإبداعي، ويُؤشِّر على أنّ الاطلاع والثقافة -كما قال يحيى حقي- هما الطّلاء الخارجي للكتابة الناجحة. مع العِلم أنّ القراءة المثالية تمتدّ أفقيا لتَعبر البحار وتتجاوز اللغات، ثمّ تمتدّ عموديا فلا تكتفي بقراءة السطور، بل ترمِي إلى ما بين السطور وما وراء السطور وما خارج السطور، حتى إنّها لتحفر عميقا في باطن اللفظ وتسامق عاليا إلى ما فوق المعنى.

وقد أَلزمْتُ نفسي وجهدْتُ جهدي لأُشبعَ الغليلَ وأَروِي الظمأ، فأوفِّي أسئلة القراءة حقّها مِن الإجابة، وألمّ بأطراف الموضوع إلماما يَستشفِي به كلّ

قارئ؛ فيبرأ مِن حكّة السؤال وهرْش الاستفسار وألم الحيرة؛ فانتظم الكتابُ في سلسلة قوامها أربع مفاتيح، بعد مقدّمة طالَت وناهزت الألفَي كلمة؛ وشرع المفتاح الأول مغاليق سؤال الفلسفة (لماذا)، وعدّد دواعِي القراءة التي هي في الواقع أوْضح مِن أن تُعدَّد وأوْسع مِن أن تُبسَط وتُفصّل؛ لأنّ القراءة ضرورة حياتية كالطعام والشراب والهواء والدواء، والسؤال البديهي إزاءها هو: لماذا لا نقرأ؟

أمّا المفتاح الثاني فتكفّل بسؤال العِلم (كيف)، وقصّ طرائقَ وأساليب شتى لممارسة فنّ القراءة، إذْ إنّ معرفة الطريق نصف الوصول، ومعرفة كيفيّة القراءة نصف القراءة. وذلك بغرض الانتقاء منها والاختيار مِن بينها، وليس بغرض الإكراه والإجبار، فلِكلّ شيخ طريقته، والأمور بمَراميها لا بعواهنها، وبغاياتها لا بوسائلها، وفي الميدان فُسحة للإبداع والابتكار.

ثمّ جاء المفتاح الثالث ليفكّك السؤال الشائع (ماذا) نقرأ، ويُجيب عليه من خلال أقوال أهل الخبرة الأمناء؛ الذين انكبّوا على القراءة لعقود، فخبروا دروبَها وشِعابها، وقدّموا خلاصة تجاربهم وعصارة جهدهم في نصائح تُسقَى

بماء الورد لا بماء المطر، وتُستنبَت في حنايا العقول لا في جنَبات الحقول، وتُكتَب بماء الذهب لا مداد القلم.

وفي نهاية المطاف، كان المفتاح الرابع مِسكا للختام، إذْ فتح الباب واسعا لنطلّ من خلاله على واحد وعشرين نموذجاَ فريدا للأكابر مِن عشّاقِ الكُتب وللأعلام من مُدمني القراءة، فيهم السياسي والأديب والفقيه والمفكِّر والمصلِح؛ فساق نُبذة مختصرة عن حالهم مع محبوبتهم، وقطَف لَمحة عابرة مِن مآثرهم وجميل فضلهم، بعد أن رُتِّبوا زمنيّا من الأقدم إلى الأحدث، وذلك على أمل الاقتداء بهم في هذا النهم القِرائي والشّغف المعرفي...ومع أنّ الكتاب بمفاتيحه الأربعة يمكن اعتباره كُتبا في كتاب، إذْ يَصلح كلّ مفتاح بذاته ليكون كتابا مستقلا كامل الدسم وتام السيادة؛ إلّا أنّ هذه الإطلالة على عالَم القراءة الفسيح وواديها الخصيب، والذي خاض غمارَه قبلي العشراتُ مِن الكتّاب المُجيدين؛ ليست إلّا جهدا مُقِلاّ وبضاعة مُزجَاة؛ إذْ كيف لفنجان أن يَستوعب ماء النهر، وكيف لمنديل أن يلفّ السماء، وكيف لقدَم أن تجوب الأرض؟! ويَبقى النقصُ حاضرا ما دامت بشريّتُنا تسكننا، ولله وحده الكمال الذي لا نقْص به، والجمال

الذي لا شِية فيه، والجلال الذي ليس كمثله شيء.

وختامًا...

ألَا سَقَى اللهُ أيامًا للعِزّ، كانت قرطبةُ شمسَ الثقافة الساطعة في أوروبا، فحوَت بين جنَباتها سبعين دارا للكُتب، وكانت المكتبة المَلَكيّة مِن الضخامة بما لا تُباريها مكتبةٌ أخرى في الشرق أو الغرب؛ إذْ بلغ عددُ كتبها قرابة النصف مليون مجلد، وشَغلَت فهارسُها التي لا تحوي سوى عناوين الكتب فقط ٤٤ كراسة، وأُسِّس لها خصّيصًا مصنعٌ ملحَق لتجليد الكتُب، وقد بلغ مِن اعتناء أهلها بالكتُب أنهم كانوا يَتسابقون إلى اقتنائها ويتباهون بها تَباهِيهم بالآثار الثمينة والتحف النادرة، حتى إنَّ أحد الأباطرة الأوربيين لم يجد هديّة يهديها إلى الأمير (عبد الرحمن الناصر) خيرا مِن كتابٍ يوناني أَحْسن تجليدَه وتجميلَه، لعِلمه بغرام القُرطبيين بالكُتب وشغفهم بها. هذا في الوقت الذي دفع فيه ملك فرنسا (لويس الحادي عشر)، مبلغ اثني عشر ماركا من الفضة وعشرة تالر من الذهب الخالص، نظير استعارة كتاب (الحاوي في الطب) لأبي بكر الرازي، رغبة منه في نسْخه واستعانة أطبائه به، حتى لَتؤكِّد المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه أنّ هذا الكتاب وحده كان مكتبة الطبّ في باريس آنئذ...ونحن إذْ نتمثّل هذا

المجد التليد بعيون دامعة وقلوب موجوعة، ونُصدِّق على ما قاله مؤرِّخ الطبّ المصري (بول غليونجي) بأنّ كُلّا منّا لو تَقدّم بمجتمعِه خطوة كخطوة النملة لكانت بلادُنا في ذروة التقدّم، فإنّي أهيب بالجميع رجالا ونساء بنين وبنات شبابا وفتيات، لأن تكون القراءة إثمدَنا الذي نكتحل به وربيعَنا الذي نبتهج فيه ومَعينَنا الذي نغترف منه، بل وخبزنا الذي نقتاته صباح مساء وقهوتنا التي نحتسيها في العَشيّات، حتى لَتصبح جزءا أصيلا مِن حياتنا، لا هوايةً تخضع للمزاج الذي يشبه الزمان في تحوُّله وتقلُّبه، ولا عادةً يُمكن بترها تحت قهْر الظروف؛ وساعتها سيفرش المجدُ دربَه لاستقبالنا، وسيعود العِزُّ يُظلّل أرضَنا ويُنير سماءَنا.. هذا وبالله وحده التوفيق، ومنه -سبحانه- المدَد والرجاء.

المؤلِّف

د/منير لطفي

سلطنة عُمـــان

٢٠١٨ م

اِقْرَأْ

المفتاح الأول:

لماذا نقرأ؟

القراءة
حياة

١- لماذا لا نقرأ ؟

وسط أنباء متواترة عن تفاقم الأميّة الأبجديّة في محيطنا العربي حتى بلغت نسبتها ٤٠٪ بين البالغين، وإزاء عزوفنا الشديد عن القراءة حتى لَيقرأ المواطن العربي ربع صفحة في السنة بينما يقرأ الأوروبي سبعة كتب ويقرأ الأمريكي أحد عشر كتابا، وفي ظلّ إحصاءات مؤسفة تدلّل على ضعف دورة النشر والطبع والتسويق للكتاب في محيطنا العربي؛ يتصدّر سؤال: لماذا لا نقرأ؟ حتى لَيحتلّ الأولوية قبل أسئلة القراءة الرئيسة: لماذا نقرأ؟ وكيف نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ فحين نعلم الأسباب التي تُعيقنا عن سلوك درب القراءة، نكون قد قطعنا نصف الشوط نحو الانخراط في القراءة.

ويؤسفني أن أروِي هنا، أنّ أحد الإخوة الكرام، رأى مكتبتَه المنزلية تعاني الوحدة بعد أن طلّقها أهلُ البيت طلقة بائنة وهجروها هجْرًا قبيحًا، ففكّر في الأمر وقدّر، ثمّ ارتأى جعْلها وقفًا خيريًا بضمِّها إلى مكتبة المسجد، ولمّا غصّت

المكتبة بما فيها وفاضت، وُضِعت بعض الكتب التي تندرج تحت باب المعارف العامّة على باب المسجد، ليأخذها مَن شاء بالمجّان، وإذْ بالشهر تلو الشهر يمرّ والكتب على حالها كالعوانس بلا خاطب ولا عاقد!

وبعيدا عن تحميل المسؤولية لهذا الطرف أو ذاك؛ فإنّ مِن الأسباب التي تدير عجلة العزوف عن القراءة، ما هو داخلي نابع من النفس التي تفترش أبداننا وتتحكّم في مصائرنا، دون أن يكون للجينات والوراثة دور يُذكر. وما هو خارجي تتآمر فيه البيئة المحيطة مِن أسرة وعمل ومدرسة وأصدقاء وإعلام وسلطة، ثمّ تَشرع في نسْج خيوطها وفتْل حبالها وإحكام قبضتها.

وبرغم تفاوت الأسباب مِن شخص إلى آخَر ومِن مجتمع إلى مجتمع، إلّا أنّ الأسباب الخارجية كثيرًا ما تُقدَّم قربانا عند معظم الأشخاص والمجتمعات العازفة عن القراءة، مع إجماع شبه تام في التعلّل بالانشغال وضيق الوقت، أو الشِّكاية مِن غلاء المعيشة وادّعاء أنَّ ما يحتاجه البيت يَحرم على الكتاب!

والحقّ أنّ إدراك قيمة الوقت، والضنّ به عن الضياع في الجلوس أمام التلفاز ومشاهدة المباريات والأفلام والمسلسلات، والوعي في التعامل مع

وسائل الاتصال الحديثة بمسؤولية عالية؛ يبارك الأوقات ويضاعفها، ويَهدم أسباب الانشغال. واقرأ في ذلك ما ذكره الكاتب الأمريكي هنري ميللر عن استغلاله للوقت بقوله: «على مدى أربع سنوات، في طريقي جيئة وذَهابًا من مكاتب شركة بورتلاند للإسمنت وإليها، قرأت أثقل الكتب. قرأت وأنا واقف، محشورًا من الجوانب كلّها بين ركّاب حافلات متشبِّثِين مثلي، ولم أكن فقط أقرأ خلال تلك الرحلات على متن الحافلات المرفوعة، بل كنت أحفظ غيبًا فقرات طويلة من تلك المجلّدات الصلبة جدا جدا. وإذا لم يكن لهذا إلّا فائدة واحدة فقد كانت تدريبا قيّما على فنّ التركيز».

وأظن أنه مهما بلغ انشغال أحدنا، فلن يبلغ نصف انشغال السير وليم أوسلر الملقَّب بأبي الطب الحديث، والذي استحوذ الطبُّ على ساعاته الأربع والعشرين، حتى لَيجد بالكاد وقتا لنومه وتناول طعامه، ولكنه وسط هذه الدوامة اعتاد أن يقرأ في غير تخصّصه لمدة ربع ساعة يوميا قبل نومه، فجعلت منه تلك الدقائق مثقّفا واسع الاطلاع بين أقرانه، وحقَّقت له شخصية متوازنة متميزة. وأظنّ أيضًا أنّ أعمالنا مهما بلغ حجمها لن تكون بحجم أعمال المليادرير

الأمريكي وران بافت، الذي دأب على قراءة خمسمائة صفحة يوميا! وفي هذا دقّ حكيم الصين (كونفوشيوس) جرس الإنذار، وأطلق صيحة التحذير بقوله: «إذا لم تجد الوقت للقراءة ستكون قد سلَّمتَ نفسك للجهل»، وهو ما استجاب له الصحفي تشارلز تشو فقرأ ٤٠٠ كتاب في سنتيْن عن طريق تقليص الأوقات التي كان يبعثرها في مشاهداته للتليفزيون وإبحاره في مواقع التواصل الاجتماعي.

أمّا الحجّة المتعلِّقة بأثمان الكُتب وغلاء المعيشة؛ فتوَفُّر الكتاب الإلكتروني المجاني، ووجود المكتبات العامّة في المدارس والجامعات والنوادي والمساجد، وإمكانية استعارة الكُتب من أصحابها الكرام، ووجود محلات لبيع الكتب المستعمَلة؛ لا يدع مجالا لهكذا علّة أو حجّة. بل إنّ تلك العلّة تكذِّبها دراسة حديثة أُجريت على روّاد معرض القاهرة الدولي للكتاب، وتَبيّن أنّ ثلثا رواده (٦٤,٢٪) هم مِن ذوي الدخل المحدود والمتوسّط.

والواقع أنَّ الدوافعَ إذا كَثُرت هزمت الصوارفَ حتى لو كَبُرت وتعدَّدت، والحُبّ إذا صدَق جرف العقبات أمامه كما يجرف السيلُ الرمال. واقرأ في ذلك

وتمعَّن؛ عن أبي زرعة الرازي الذي باع ثيابه ليقتني الكتب، وعن ابن الخشّاب الذي باع في سبيل ذلك داره، وعن سند ابن علي الذي باع من أجلها دابّة أبيه بسرجها ولجامها، وعن الدكاترة زكي مبارك الذي كان يبيع جزءا من طعامه في السجن ليشتري بثمنه كتبا، وعن روبين شارما الذي التزم بوصية ساقها له والده في صباه بقوله: «قلِّل ممّا تدفعه إيجارا لمسكنك، أو ممّا تنفقه على طعامك، ولكن إيّاك أن تقلق من استثمار مالك في شراء كتاب مفيد»، وأخيرا عن محمود أبو ريّه الذي أوصاه الرافعي بقراءة (كتاب الفلسفة النظرية) فقال: «كنا يومئذ في حرب ضروس والمواصلات منقطعة والضيق يمسك بعنقي، ومع ذلك بعثتُ إلى بيروت وأحضرتُ منها ما صدر من أجزاء هذا الكتاب وهي ستة بحوالي جنيهين ذهبا». ثمّ بعد ذلك كله، خذ نفسا عميقا، وتأسَّف لإحصائية أحد الباحثين؛ جاء فيها أنّ ٧٢٪ من خريجي إحدى الجامعات العربية، لم يستعيروا كتابا واحدًا من مكتبة الجامعة، طوال حياتهم الجامعية!

وهنا تقتضي الأمانة والشجاعة أنْ نقرّ ونعترف بأنّ العوائق الداخلية هي حجر الزاوية الذي مِن عنده نبدأ، ومَنبت الداء الذي إليه ننتهي؛ فمَن أراد كان؛

لأنّ للإرادة قوّة ثلاثيّة قوامها: الحاجة، والشهوة، والأمل. ومَن رغب وصل؛ لأنّ الرغبةَ أصل القدرة، والقدرة سفين العبور ومرفأ الوصول. والنفس إذا حُرِمت الإرادة والرغبة؛ رقدَت في فراش الكسل، واستغرقَت في بحر الحرمان.

وبدلا مِن أن نلوم هؤلاء العازفين عن القراءة؛ فنبكِّتهم ونوليهم ظهورَنا ونرشقهم بسهام تَجرح ولا تُداوي؛ علينا أن ندلف إلى جوارهم ونمدّ أيدينا تجاههم ونفكِّك دوافعهم، حتى لَيصبح حالنا لسان صاحبَي[١] كتاب (تسريع القراءة) حين قالا: «إننا نأمل من هؤلاء العازفين عن القراءة أن يعودوا إلى حظيرتها، وأن يعاودوا الانخراط فيها، بوصفها الوسيلة الأساسية لتقدّمهم. بل إنّ علينا أن نبذل ما بوسعنا لكي نعيدهم إلى هذا العالم الرحب الفسيح، ولدينا كلّ الوسائل والأساليب التي يمكن أن نستخدمها لتعويدهم على القراءة، سواء بإعارتهم الكتب التي فرغنا من قراءتها، أو بإهدائهم الكتب في المناسبات، ومِن ثمّ تعهّدهم بالمناقشة لِما قرؤوا، أو باصطحابهم إلى مكتبة أو معرض للكتاب.

(١) أنس الرفاعي، محمد عدنان.

وسيكون ذلك علامة تحضُّر وارتقاء، لبناء مجتمع زاخر بالحيويّة والإبداع».

ولا نغفل هنا تفعيل الدور الحيوي للأسرة والمدرسة والإعلام والحكومات، في تهيئة أجواء إيجابية للقراءة، وتقديم الحوافز الملائمة للقائمين على دورة القراءة مِن كُتّاب وناشرين وقارئين، لِما في ذلك مِن فائدة مؤكَّدة يعود نفعها على المجتمع ككلّ، فلا نرى أحوالا كحال المنفلوطي الذي كان يطبع الألفَي نسخة من كُتبه، فلا تنفد إلّا بعد أربعة أعوام، مع ما يتكلّفه من حُسن الطباعة والدعاية والإعلان، فضلًا عن شهرته!

٢- القراءة قنطرة الحضارة

يَلحظ الباحث في تاريخ الإنسانية؛ أنّ اختراع الكتابة شكَّل نقلة نوعية نحو حيازة قلادة الحضارة والتّرقِّي في مدارجها، حتى اعتُبر ميلاد الكتابة هو الميلاد الرسمي للتاريخ، وقِيل إنّه لا حضارة بلا كتابة؛ وذلك على اعتبار أنّ الحضارة مُنتَج ثخين يتطلّب استقرارًا على الأرض وقرارًا بين دفاف الكتب، وعلى اعتبار أنّ الكتب عضلات معرفيّة تُدير تروسَ الحضارة وتضغط زرّ تشغيلها، وكأنّها كيمياء العصر التي أخذت على عاتقها تحويل الكلمات إلى ثقافات والأفكار إلى حضارات.

وبما أنّ القراءة هي الوجه الثاني لعملة الكتابة؛ فلا غضاضة في القول بأنّه لا حضارة بدون قراءة، ولا مناص من تبنِّي الشعار الهادف الذي رفعه المعرض الدولي للكتاب بالعاصمة السعودية الرياض قائلًا: «الكتاب قنطرة الحضارة»، وذلك في عام ٢٠١٤م، ثمّ أكّد عليه معرض جدّة الدولي للكتاب في نسخته الثالثة عام ٢٠١٧م تحت يافطة: «الكتاب حضارة».

وكما أنّ الإنسان جسم وروح، فإنّ الحضارة روح وبدن؛ وبدنها هو المنجَزات الماديّة من جسور ومصانع وحواسيب؛ نتجَت مِن تفاعل الإنسان مع الأشياء حوله. بينما روحها هي المسحة الإنسانية التي تضبط حركة الشقّ الماديّ وتمنعه من التغوّل والشّطط؛ وهي ما نسمِّيها الثقافة، وترتكز على رقيّ الفكر عبر العلوم والتجارب وسموّ الوجدان عبر الدّين والأخلاق. ولو أَمعنّا النظر في القراءة لوجدناها تصبّ في كلا الاتجاهيْن؛ فتُنمِّي الشقّ الماديّ وتمدّه بأسباب الحياة، وتُغذّي الجانب المعنوي فتعرج به إلى المعالي، بمعنى أنّ القراءة عصب الحضارة وتوأمها السيامي الذي لا ينفصل عنها...وربّما لهذا قِيل: «أمّة تقرأ أمّة ترقى».

ولعلّنا بذلك نفسّر سرّ ازدهار المكتبات ونشاط حركة الترجمة في عصر القوّة العباسية، وفي حِقبة الأندلس الزاهرة. كما نفسّر سرّ الفزع الذي انتاب الحسّ الثقافي الفرنسي، حينما دلّت قرونُ الاستشعار على تراجع مخيف لمستويات القراءة في المجتمع، وما تلا ذلك من استنفار عام في أوساط قادة الرأي والفكر، وذلك في مطلع تسعينيات القرن الماضي.

ولهذا نجد العنوان الأبرز للدول المتقدّمة هو ارتفاع معدّلات القراءة؛ حيث ذكَرت بعض الإحصاءات أنّ فردًا أمريكيًا واحدًا يقرأ ما يقرأه مئتيْن

وعشرين عربيًا! وذلك لكثرة المكتبات العامة، والجهود الحثيثة المبذولة في رعاية معارض الكُتب، وتحفيز الكُتّاب، وإزالة المعوّقات أمام حركة التأليف وتداول المعلومات. بينما تنعكس الصورة في الدول المتخلِّفة التي يسمّونها تأدُّبا أو تخديرًا بالنامية، ولو أنصفوا لَسمّوها بالميّتة، وموتها هنا هو موت معنوي لا مادي، لأنها فقدت الكفاية الفكرية وأصبحت عالة على هذا العالَم المتقدِّم.

وفي هذا المعنى أكّد أرنولد توينبي أنّ ارتفاع نسبة الكلمة المطبوعة هو الأساس الحضاري لتصنيف البلدان في العالم إلى دول متخلِّفة أو نامية أو متقدِّمة، وحذّر مالك بن نبي مِن أنّ الأمم التي لا تقرأ تموت قبل أوانها، ونادى مارتن لوثر في خضمّ دعوته الإصلاحية بإحداث ثورة في طباعة الكتب والتوسّع في إنشاء المكتبات. بل وذهب عبد المجيد تمراز إلى اعتبار العزوف عن القراءة إثما حضاريًا يستحقّ ما أَسماه بالتوبة المعرفية، وذلك حين قال: «الآثام مقسَّمة إلى قسميْن: آثام شعائرية (التي بين العبد وربه) وآثام حضارية (وهي الحق العام من معاملات وحقوق)، والبطالة القِرائية والهجْر القِرائي، تُعتبَر آثامًا حضارية لأنها تؤثّر على كياننا وهويّتنا كأفراد وكأمّة».

٣- القراءة بسبع أمثالها

رغم التنوّع في سبل اكتساب العِلم، والتعدّد في آليات الوصول إلى المعارف والمهارات؛ تبقى القراءة على رأس تلك الوسائل والآليات، حتى قِيل إنها تمثّل ٨٠-٩٠٪ من وسائل اكتساب الثقافة، وما ذلك إلّا لأنها قريبة المنال، وسهلة الوصول، وذاتيّة الدافع. علاوة على طابع البحث والتنقيب الذي تتطلّبه؛ فيُعظِّم ثمرتها ويُضاعف منتوجَها... فالذي يتعلّم بالبحث -كما قال آرثر غترمان- مهارته سبعة أضعاف مَن يتعلّم بالأوامر، وطريق المفكِّرين يبدأ مِن حبّ البحث وينتهي بالتفاني فيه.

ولِندرك ذلك؛ لنا أن نتبيّن البون الشاسع بين مَن قرأ ليبني عقله عبر كِتاب يستقي معلوماته مِن حقائق دامغة وثَّقتْها بطونُ المراجع ودواوينُ الدراسات والأبحاث، وبين مَن عزف عن القراءة وتقمَّم معلوماته من وسائل أخرى لُحمتها التهييج والإثارة، وسُداها بعض صورة لامعة ولون فاقع، كما هو الحال في بعض الفضائيات وأجهزة الدعاية والإعلام التي تفتقر إلى المصداقية والموضوعية.

وحتى لو وصلتْنا المعلومة على جناح غير جناح القراءة، فإنها أشبه ما تكون بسمكة ألقاها إلينا أحدُهم على عجل. بينما المعلومة التي نكتسبها بالقراءة والبحث؛ أشبه ما تكون بسنّارة أهدانا إياها أحدُهم، فنصيد بها على الدوام ونقتات، وفي ذلك كلّ الفائدة؛ فالمثل الصيني يقول: «بدل أن تعطيني سمكة كلّ يوم؛ أعطني سنارة وعلِّمني الصيد». وهذا ما انتهجه الشيخ علي الطنطاوي مع بناته وأحفاده حين كانوا يدهمون مكتبته ويسألوه عن شيء عنَّ لهم أو اعترض طريقهم، إذْ كان لا يجيبهم رغم معرفته، بل يدلّهم على الكتاب وربّما الفصل الذي يعلم أنه يشفي غليلهم ويلبي مطلبهم، ثمّ يطلب منهم الرجوع إليه بعد القراءة إن استشكل عليهم الأمر أو غمض عليهم الفهم، وهي طريقة تربوية تنمّي ملكة البحث وتؤصِّل الفكرة وتثبِّت المعلومة.. وجميلٌ هنا هذا الوصف الذي شبّه مَن يتعلّم بالقراءة بمَن يشعل نارا في الشتاء، ومَن يُداوِم عليها كمن يضيف إليها جذوة جديدة، ومع كلّ جذوة يَشعر بتألّق في العقل ودفء في القلب.

ولأنّ خيْر العمل أدومه ولو قلّ، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطِع؛ فإنّ القراءة يجب أن تكون منهجا للحياة؛ فتصبح واجبا يوميا كفنجانِ القهوة في

الصباح وطبقِ الفاكهة في الغداء وكوب الحليب في المساء، لا مناسبة أسبوعية أو شهرية أو سنوية، وبهذا تصير واجبا لا يقبل التنصّل منه أو التعلّل فيه بمشاغل الحياة أو ما شابه؛ فباب الأعذار إذا فُتح لا يُغلَق، بينما باب الإرادة والعزيمة لا يُغلقه إلّا الموت.

ولأنّ التدرّج سُنّة الحياة كلّها، فعلينا أن نتَّبع ذات السُنّة عند الولوج إلى عالم القراءة الرحب؛ فنتحسّس طريقنا على مهل ونُوغل فيه برفق، حتى لا نكون كالمُنبتّ الذي لا قطع أرضا ولا أبقى ظهرا؛ فنبدأ بمجال تميل نفوسنا إلى قراءته وتهواه، ونبدأ بالأسهل الذي يناسب طاقتنا الذهنية ويلائم قدراتنا الفكرية، وما علينا إن اكتفينا بظاهر النصوص أوّلا، إذْ لا نلبث أن نرتقي فنقطف المعاني ونعرج إلى ما وراء المعاني، على أن لا يغيب عن أذهاننا؛ أننا لا نقرأ لاكتساب معلومات فقط، بل نقرأ لنريِّض عقولَنا ونحسِّن فهمَنا ونجوِّد منطقَنا.

ولكي يصبح المرء متعلِّقا بأحبال القراءة ومربوطا بأوتادها، يجب عليه -كما قال ساجد العبدلي- أن «يبحث عن الوسائل والطرق التي تربط القراءة بواحدة أو أكثر من الحاجات الأساسية التي لا يستطيع العيش بدونها. فمَن صار

شعوره بالأمان مرتبطا بمقدار ما لديه من علم وثقافة؛ فسوف يحرص حتما على القراءة. ومَن أصبح حصوله على الأصدقاء والأحبة مرتبطا بمقدار ما يملكه من علم وثقافة؛ فستكون القراءة جزءا لا يتجزأ من حياته. ومَن أضحى تقدير الآخرين له في عمله ومجتمعه وسائر حياته مرتبطا بعلمه وثقافته؛ فسيكون من القراء الدائمين. ومَن غدا رضاه عن نفسه وشعوره بتحقيق ذاته ونجاحه في حياته مرتبطا بمقدار ما عنده من العلم والثقافة؛ فإنه سيحرص على القراءة ولا شك».

وكما نضع خططا للسفر وخططا للتسوّق وخططا للاستثمار، على اعتبار أنّ كلّ دقيقة تُنفَق في التخطيط توفِّر ثلاث أو أربع دقائق في التنفيذ؛ فعلينا أن نضع خطتنا للقراءة، ربّما تكون خطة أسبوعية أو شهرية أو سنوية، المهمّ أن توائم احتياجاتنا، وتتناسب مع ظروفنا، وتلبي طموحاتنا، ثمّ نلتزم بتطبيقها، ولا مانع من المكافأة عند الإنجاز، والعقاب عند التقصير؛ فالأمر جدّ لا هزل فيه.

٤-مِداد الكاتِب

إذا جاز لنا أن نختلف حول لزوميّة القراءة لكلّ فرد صغُر أم كَبُر -وفي ذلك تجويز ما لا يجوز أصلا-، فإننا يقينا لن نختلف حول لزومية القراءة لكل من يمتهن الكتابة أو ينتوِي الدخول إلى عالمها الناريّ المنير. فهي بمثابة الأبجديّة الأولى في مدرسة تعلُّم الكتابة الفنيّة، وهي للكتابة كالمداد للقلم والحطب للنّار والوقود لصاروخ الفضاء؛ إذْ إنّ فاقد الشيء لا يُعطيه، والمُفلس يمدّ يدَه لا قلمَه، ومَن لا يملك غير الحنطة لا يحقّ له أن يبيع الشعير. وأيّما وضعْتَ إصبعك على كاتب قدير، فلن تجده إلّا قارئا نِهما ومُطالِعا فقِها، ولن تراه إلّا مُتحنِّثا في صومعته، ومتربّعا على عرش مكتبة تتنوّع فيها الكتُب تنوُّع الألوان في النبات والأسماك في البحار، ولا استثناء في ذلك إلّا لمُنتحِلٍ أو مُدَّعٍ والعياذ بالله... والحقّ أنّ شرف التأليف والكتابة يستحقّ هذه الضريبة التي قد يعتبرها بعضُهم باهظة الثمن؛ فالكتابة -كما قالت جين تايلور- فرصة ثانية للعيش، وحيث لا

نستطيع أن نعيد الوقت لنعيش الحياة مرّة أخرى، فمن الممكن العيش في الحدَث مرّة أخرى وتفسيره من خلال الكتابة عنه. ناهيك أنها -وهو الأصل- ثالث ثلاثة ممّا ينفع المرء بعد رحيله من دار الفناء إلى دار البقاء.. فكما قال الشاعر:

الخطُّ يبقى زمانًا بعد كاتبه وكاتبُ الخطّ تحت الأرض مدفونًا

ولهذا سنّ الرافعي قانون النجاح الأوّل في التأليف والكتابة قائلًا: «ما أرى أحدا يفلح في الكتابة والتأليف إلّا إذا حَكم على نفسه حُكما نافذا بالأشغال الشاقّة الأدبية، كما تَحكم المحاكمُ بالأشغال الشاقة البدنية، فاحكم على نفسك بهذه الأشغال سنتيْن أو ثلاثا في سجن الجاحظ أو ابن المقفع أو غيرهما، وهبْها كانت في أبي زعبل أو طُرة». أمّا المفكّر عبد الكريم بكّار فقد تشدّد في الحُكم وزاده إلى خمس سنوات، قائلًا: «إنّ أيّ شاب متوسط الذكاء يمكنه خلال خمس سنوات من القراءة الجيدة والجادّة في (فقه الزكاة) أو (فقه الصلاة) أو (التأمين) أو (القياس) أو (اجتهاد الصحابة)...أن يُصبح حجّة ومرجعا على مستوى قطر أو منطقة في موضوع من هذه الموضوعات وأشباهها، وسيتمكّن من المحاورة والتأليف، بل والاجتهاد فيه، وسيتمكّن مِن إضافة أفكار كثيرة، وبلْورة مسائل عديدة من مسائله»...

وربّما يقول قائل بأنّ الكتابة لا يلزمها كل هذا الجهد لأنها بالأساس موهبة وإلهام، وهي كذلك، ولكن القوس المَرخيّ لا يصلح للرمي والأسد الرابض في عرينه لا يُهاب، والقراءة وحدها هي التي تفجِّر بركان الموهبة وتشحذ سيف الإلهام، وهي التي تشدّ قوس الرّمي وتحمل زئير الأسد إلى أرجاء الغابة؛ وفي هذا يقول الروائي الكولومبي جابريل ماركيز بأنه لا يفهم كيف يتجرّأ فرد على كتابة رواية، دون أن تكون لديه فكرة عامة حول الأعمال الأدبية التي تمّ إنتاجها خلال العشرة آلاف سنة الماضية! وهو ما طبّقه توفيق الحكيم الذي وصف قراءتَه قائلًا: «لقد غرقتُ في آداب الأمم كلّها وفلسفاتها وفنونها، لم أكن أسمح لنفسي بأن أجهل فرعا من فروع المعرفة، لأني كنت أعتقد أنّ الأديب في عصرنا الحاضر يجب أن يكون موسوعيا؛ لذلك بذلتُ جهدي في أن أحيط بأبرز ما أنتجَت العبقرية الإنسانية». وكذلك كارل ماركس الذي كان يقضي في مكتبة المتحف البريطاني جلّ بياض يومه؛ ليُنضج على نار هادئة استغرقت ثماني عشرة سنة، كتابه الشهير (رأس المال) بأجزائه الثلاثة. وكذا أمل دنقل الذي امتنع عن قرض الشِّعر أربعة أعوام (١٩٦٢-١٩٦٦م)، مكرّسا إيّاها للقراءة

لا غير، بعدما اكتشف في نفسه حاجة لدراسة التيارات الفكرية والثقافية التي تجتاح عصره.

أَضِف إلى ذلك أن حَبْسة الكتابة التي تنتاب بعض الكُتّاب بين الفينة والأخرى؛ فيتبلّد فيها القلم ويعْلق في الصمت ويَغرق في السُّبات؛ تُعالَج بالقراءة التي تنشِّط جهاز الاستقبال الإبداعي، وتُصبح بمثابة الماء الذي يعيد للزرع الحياة، والدواء الذي يهَب البدنَ الشفاء، والإكسير الذي يُحوِّل الشيخوخة إلى شباب والعُقم إلى خِصب والجفاف إلى رِيّ.

وفي ذلك روَى ابنُ الشيخ عبد الرحمن السعدي؛ أنَّ أباه مرض ذات يوم، وأُدخل المستشفى ببلد الكتب والتفّاح والجبال والأَرز (لبنان)، وعندها نصحه الأطباء بعدم القراءة والكتابة لِما في ذلك من إشغال الفكر وبذل الجهد، وفي أثناء ذلك طالع الابنُ في إحدى المكتبات كتاب (دع القلق وابدأ الحياة) لمؤلّفه الشهير ديل كارنيجي، فأُعجب به واشتراه هدية لوالده الراقد في مشفاه، فلمّا قرأه الوالد واستحْسنَه وأَثنى على مؤلِّفه واصفا إيّاه بالمنصِف؛ طلب أوراقا وقلما، وكتب رسالته في وسائل تحقيق السعادة ولكن على ضوء ما قرّرته الشريعة، وأسماها

(الوسائل المفيدة للحياة السعيدة). وهو ما فعله الشيخ محمد الغزالي أيضًا بعدما قرأ ذات الكتاب، ثمّ ردّ عليه لاحقا بكتابه (جدِّد حياتك). وكذلك فعل الشيخ عائض القرني بكتابه الشهير (لا تحزن). وكان من عادة الرافعي في الكتابة، أنّه إذا توقَّف سيلُ مداده واستعصى عليه القلم وتَعثّر؛ مدَّ يدَه إلى كتاب، ففتحه ونظر فيه هنيهة، وإذا بالمداد يسيل كالشلّال، والقلم يركض كالخيل في الميدان.

هذا وقد نصح شيخ التأليف والتصنيف (ابن الجوزي)، بأن يكون أوّل العمر وحتى الأربعين سنّ القراءة والتحصيل، وأن يكون التصنيف والتأليف في أوسط العمر، أي بين الأربعين والستين، أمّا آخر العُمر فتكلّ الحواس وتخون الذاكرة ويضعف فيه الطلب والتصنيف.

٥- كلّ السُّلُوات في جوْف الكتاب

لا شكّ أنّ دوام الحال من المحال؛ وكما يتململ البدن تحت وطأة العمل وينشد الراحة مِن متاعب الحياة، فالقلوب أيضًا قد تسأم والنفوس قد تملّ، ولا ضير آنئذ في متعة تُسرِّي عن النفس المتعَبة، وتسليةٍ تمَسح على القلب المَهموم، ولذّة تضيء فضاء الروح.

وهنا يطلّ الكتاب برأسه فيقول: لبّيْك وسعديْك، والتسلية واللذّة بين يديك؛ فتجد ضالّتك في كُتب الطرائف والحِكمة، أو في رواية وقصّة، أو في ديوان شعر وصفحات مجلّة؛ لتُحلّق بعيدا عن الواقع، وتسبح في ربوع الخيال، وتجوب عوالمِ أخرى جديدة؛ فتغتسل بماء المتعة وتتطيّب بعطر السعادة، ثمّ تعود فتيَّ النفْس مبتهِج الفؤاد. فالكتب أغنيات العقول وأناشيد النفوس؛ يؤلِّفها الكاتب ويغنِّيها، ويُخرجها الناشر ويُذيعها، بينما يلحِّنها المنسِّق والمدقِّق، ويَطرَب لها القارئ ويَنفعل.

وبما أنّ التجربة خير برهان؛ فقد جرَّب الشيخ علي الطنطاوي ونقل تجربته قائلًا: «لقد جرّبتُ اللذائذ كلّها، فما وجدتُ أمتع من الخلوة بكتاب، وإذا كان للناس ميول وكانت لهم رغبات، فإنّ الميل إلى المطالعة والرغبة فيها، هي أفضلها». وكذلك الشاعر العباسي عليّ ابن الجهْم الذي رَوى عن نفسِه قائلًا: «إذا غشِيني النّعاس في غير وقتِ نوم -وبئس الشيءُ النومُ الفاضلُ عن الحاجة- تناولتُ كتابا من كُتب الحِكَم، فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحيّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يَغشَى قلبي مِن سرور الاستبانة وعزِّ التبيين، أشدّ إيقاظا مِن نَهيق الحمير وهَدّةِ الهدْم». أمّا الماوردي فقد جزم بذلك في كتابه (أدب الدنيا والدين) وقال: «ومَن تَسلَّى بالكتُب لم تَفته سَلوة»...والسَّلوة والسُّلوة؛ هي كلّ ما يُسلِّي النفسَ ويُروِّح عنها، وتُجمَع على سُلُوات وسُلْوات، والسّلوى والمَسلاة تُؤدِّي المعنى نفسه. أمّا اللذائذ فهي كلّ ما يثير في الإنسان إحساسا جميلا أو شعورا مريحا، وهي إمّا وهميّة كالخُيلاء والعُجب، وإمّا حقيقية تندرج تحتها اللذائذ الجسمانيّة كالطعام والشراب والنكاح، والعقليّة كلذّة العلم والمعرفة، والرّوحيّة كهدوء البال وراحة الضمير والرضا.

والواقع أنّ النسبة الغالبة بين القرّاء هُم من هذا النوع الباحث عن التسلية ليس إلّا، ولهذا تجد الكتب الأكثر رواجا هي التي تؤدّي هذا الغرض، وتجد دور النشر أكثر حماسا لطباعة ونشر هذا النوع من الكتب. وبرغم أنّ التسلية ليست هي الغرض الأمثل مِن القراءة، إلّا أنّ التجربة أثبتت أنَّ القراءة قد يبدأ اللقاء الأوّل معها مِن هذا الباب، ثمّ لا تلبث أن تتحوّل إلى عادة يألفها الشخص، ولتصبح لا حقا -مع الاستمرارية- ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها.

ولهذا، من تمام الرأي أن يطعِّم كلُّ كاتب كتابه -أيّا كانت مادته- بنتف ولو يسيرة مِن النوادر والحِكم، لترطِّب الجاف وتنعِّم الخشن وتلبّي غرض هذه الفئة المعتبَرة قِرائيا. كما وجب الحذر مِن تسفيه أو انتقاص مسلك هؤلاء الذين تقتصر قراءتهم على هذا التوجُّه، لأننا بذلك نُخطئ مِن وجهيْن، الوجه الأول أننا قد نصرفهم بذلك عن القراءة كليّا، ونقطع المسار الثلاثي المأمول للفعل القِرائي (تسلية-عادة-ضرورة) ، والوجه الثاني أننا قد ندفع بهم إلى وسائل أخرى للتسلية أشدّ خطرا وأفتك ضررا، وسائل قد تصل إلى التدخين أو المخدرات أو الجريمة، أو ما شابه، إذْ النفس تأبى أن تعيش في الفراغ، ومَن

لم يشغل نفسه بالحقّ شغلتْه بالباطل. ولا يَظنَّن أحدٌ أنّ هذا القارئ القابع بين دفاف الكتب؛ كسولٌ يشرب للكسل نخْبا، ووحيدٌ يتجرّع للوحدة كأسا؛ فهو في سفر دائم لا ينقصه سوى القصْر في الصلاة والجمْع، وفي لقاء هام ودائب مع شخصيات وأعلام لا ينقصها سوى اللحم والدم.

٦- حياة ثانية

عُمِّر سيدنا نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أكثر مِن ألف عام، ثمّ تناقصت الأعمار كالشموع رويدا رويدا، حتى بِتنا ندور حول الستِّين والسبعين، وأَزعم أنّ هنالك نفوسا كثيرة بيننا تحنّ إلى طيّ المئة والمئتيْن، ولسان حالهم يقول هل مِن مزيد. ولأنّ الأعمار مقدَّرة في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألفا مِن السنين، ولا سبيل لزيادتها ولو جزءا مِن الفمتو ثانية التي أتحفَنا بها عالِم نوبل في الفيزياء (أحمد زويل)؛ فقد دلّنا العقّاد على خطّته لمضاعفة العُمر -لِمَن أراد- مثنى وثلاث ورباع، فقال: «لستُ أهوَى القراءة لأكتب، ولا أهوَى القراءة لأزداد عمرا في تقدير الحساب، وإنما أهوَى القراءةَ لأنّ عندي حياة واحدة في هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفيني ولا تحرّك كلّ ما في ضميري من بواعث الحركة، والقراءة دون غيرها هي التي تُعطيني أكثر مِن حياة واحدة في مدى عُمر الإنسان الواحد، لأنها تُزيد هذه الحياة مِن ناحية العمق وإن كانت لا تُطيلها بمقادير الحساب».

ولكن أيّ عُمر إضافي هذا الذي يتصدّق به علينا الكتاب؟ وأيّة حياة ثانية هذه التي تمنحنا إيّاها القراءة؟ هل هي حياة الأكل والشرب والبعال التي تعارَف عليها النّاس، حتى ملَّها بعضهم وطلب منها الخلاص! كلّا، إنها حياة الفكر والشعور والخيال، وحياة الروح والعقل والقلب، وأَنعِم بها مِن حياة، فليس بالخبز ولا للخبز وحده يحيا الإنسان، وعام واحد يحياه الإنسان كما ينبغي أن تكون الحياة، خيْر من عشرة أعوام يعيشها كما تعيش الدواب، وفارق بين العيْش والحياة.

ليس هذا فقط، بل إنها حياة ناضجة، تتّسم بالتوازن الذي نرفرف فيه بجناحَي العقل والعاطفة في تناسق وتناغُم، فنسير سيْر الواثق المطمئنّ، وتطلّ علينا شمس الحكمة والسعادة؛ إذْ إنّ غلبة العقل وإهمال العاطفة تُحيل الحياة إلى صحراء قاحلة ومعادلةٍ رياضيّة قاتمة، أمّا جنوح العاطفة وتَوارِي العقل فيجعلها-أي الحياة- كالريح الهوجاء والسيْل المدمِّر. وذلك لعَمري هو النمط العقلاني المُتّزن الذي تبنّاه المفكّر عبد الكريم بكار في أطروحته لبناء المفكِّر حين قال: «العواطف عمياء وميّالة إلى التطرّف، والعقل المثقَّف هو الذي يُبقيها في الحيّز الإيجابي ويَحول بينها وبين أن تكون طريقا للغلوّ والانتقام».

وما أشْبه القراءة هنا بأرض خصبة؛ تمدّ كلَّ نبات على حدة، بما يَصلح له مِن ماء، وما يناسبه مِن عناصر غذائية بنسب متوازنة، وذلك لِينمو صحيح البنيان سالما من الآفات. بمعنى أنّ لكلّ كتاب قارؤه ولكلّ قارئ كتابه، ولكي تطرد المعلومةُ الصحيحة معلومةً خاطئة، وتطرد العملةُ الجيّدة عملةً رديئة، يجب أن تُوافق زمانها ومكانها ومحلّها المناسب؛ لِيناسب الحالُ المقام، ولِتجد النصيحةُ آذانا تُصغِي وعقلا يَعي وجوارحَ تعمل. وعندها ستفعل القراءة فعلها في تهذيب الشعور وضبط العاطفة وعقْلنة التفكير، وهو ما يُنتِج سلوكا قويما يعود على صاحبه ومجتمَعه بالنفْع والفائدة.

٧- سفرٌ لا عذاب فيه

التوْق إلى السفر في دهاليز الأزمان مطلب ذوي الهمم وبغية أرباب الفضول، والشوْق إلى التجوال عبر المكان أمل المُحبِّين للحياة؛ والقراءة وحدها هي آلة الزمن القادرة على أن تَروي هذا التوْق وتعانق ذاك الشوْق، والساعة العجيبة التي تتحرّك عقاربها بحرية تامة إلى الوراء أو الأمام كيف تشاء، والهدهد الذي يأتيك في طرفة عين بأخبار بلقيس، وبساط الريح الذي يحملك إلى حيث تريد...

إذْ بمقدورك أن تلتقي بين صفحات الكتاب بحضارات بادَت وزالَت، وبإمكانك أن تقترب مِن عظماء ظعنوا إلى غير رجعة. كما تستطيع أن ترحل على جناح الحرْف إلى بلاد بينك وبينها سفَر وطائرات وأموال، وإلى عمالقة يُشار إليهم بالبنان ودون موعد أو استئذان...كلّ هذا وأنت جالس بين جدران بيتك أو متكئ على أريكتك أو ممدَّد في فراشك! وعن هذا المعنى كتبت إليف شفاق

قائلة: «يمثّل كلّ كتاب رحلة وخارطة للدخول إلى تعقيدات ذهن الإنسان وروحه، وكلّ قارئ هو رحّالة بشكل ما؛ فبعض الرحلات تقوده إلى مواقع أثرية حضارية، بينما تركِّز الأخرى على المغامرات المفتوحة وحياة الغابات».

وإذا اعتبرْنا البحث عن الحقيقة سَفر، واقتضَت الحكمة أن نختار الرفيق قبل الطريق؛ فإنّ الكتاب على أهبة الاستعداد لكي يكون نِعم الرفيق. وإذا كان السفر عبر البر والبحر والجو يمنحنا صكّا بخمس فوائد حصرها الإمام الشافعي بقوله: «وسافِر ففي الأسفار خمس فوائد؛ تفريج همّ، واكتساب معيشة، وعلم، وآداب، وصحبة ماجد»، فإنَّ القراءة الصحيحة السليمة قد تُضاعف هذه الخمسة إلى خمسين، وفوق ذلك تكفينا شرّ عذابات غربة الأوطان ووعثاء الطرُق ومخاطر السفر.

ولأنّ الكِتاب قطعة من عقل كاتبه ونفحة من روح مؤلِّفه؛ فباستطاعتك أن تَشمّ في الكتاب رائحة قلمه، وتتعرّف على بيئته، وتقترب من شخصيته، وتَطّلع على قِيمه وأفكاره ومبادئه، حتى لَيبدو وكأنك تجالسه وتُسامره. ويستوي في ذلك الكاتب الذي مازال يقضم الخبز ويتجرّع الماء ولكن يفصل بينك وبينه

آلاف الكيلومترات، أو الكاتب الذي ودّع الدنيا فانتقل إلى البرزخ وصار أثرا بعد عين. وبإمكاني وإمكانك في غمضة عين أن نطير إلى هذا أو ذاك بالقراءة؛ فالقراءة محادثة مع ألمع نجوم الماضي، والكِتاب تُرجمان عقول الأحياء ولسان حال الأموات، أو كما وصفه الجاحظ بقوله: «الكتاب وعاء مُلِيء عِلما، وظَرْف حُشِي ظرْفا، وبستان يُحمل في رُدْن، وروضة تُقلَب في حِجْر، يَنطق عن الموتى ويُترجِم كلام الأحياء»... والرُّدن كما تقول المعاجم، هو طرف الكُمّ الواسع وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير، ويُجمع على أَردان وأَردِنة.

ليس هذا فقط بل إنك -كما قال خالد محمد خالد- حين تجلس مع كِتاب لأفلاطون أو شكسبير أو ابن خلدون؛ فأنت في الحقيقة إنّما تجلس مع هؤلاء في أصفى ساعات حياتهم، وتفوز منهم بمغانم قد تفوق مغانمك لو كنت تجالسهم أحياء. ذلك أنهم في مجالسهم العامّة، يُعطون ما عندهم مرتجَلا ومختلَطا، أمّا حين كانوا يجلسون للكتابة، فقد كانت عقولهم آنئذ في مستوى رفيع من الاستعداد والتألّق والتفوّق، وكانوا يغيِّرون ويغيِّرون حتى تخرج الفكرة التي يعالجونها، ناضجة وافية باهرة الأسلوب. وهكذا كلّ كاتب تقرأ له، إنك إذْ تقرأ له؛ تجالسه

وتزامله في أصْفى وأمْلأ ساعات حياته وإنتاجه. وقد زار الكاتب الفرنسي الشهير (أندريه جيد)، والحاصل على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٤٧م، القاهرة ذات مرّة، ورآه العقاد يتجوّل في إحدى المكتبات، ولكنه لم يقترب منه أو يحدِّثه، ولَمَّا سُأل العقّاد عن ذلك؟ أجاب بأنه يعرف كلّ شيء عن أندريه جيد مِن خلال قراءته لجميع كُتبه، فلماذا يزعجه بالحديث والكلام والمناقشة!.. وكأن القراءة لقاء يغني عن اللقاء، وحديث يغني عن الحديث.

وقد رُوِي أنّ الإمام عبد الله ابن المبارك كان قليلا ما يغشَى مجالس أصحابه، فقِيل له: مالك لا تُجالسْنا؟ فقال: أنا أجالس الصحابة والتابعين، وأشار بذلك إلى أنه ينظر في كتبه. وفي هذا يقول صاحب كتاب الأبطال (توماس كارليل): «في الكتب تكمن روح الزمن بأسْره.. كلّ ما صنعتْه البشرية وفكّرت فيه وكسبتْه أو كانتْه، موجود في صفحات الكتب، كما لو كان محفوظا حفظا سريّا.. فالكتب هي ممتلكات البشَر المختارة».

٨- دواء وعلاج

المُتتبِّع لتاريخ التداوي في الإنسان؛ يجده ولِردح طويل من الزمن ظلّ أسيرا للسحر والكهانة، ثمّ يراه في نسخة زمنيّة لاحقة قد عرّج على الأعشاب، هذا قبل أن يبلغ العِلمُ مداه وتمطرنا التقنيات الحديثة بآلاف الأصناف الدوائية، على هيئة أقراص وكبسولات وأشْربة وحقن ومراهم وغيرها. وبرغم هذا الكمّ الهائل من المستحضرات الطبية؛ مازالت هنالك أمراض عديدة تقف في طابور طويل عنوانه: نأسف للإزعاج؛ فلا علاج حتى الآن.

وهو ما فتح الباب واسعا أمام ما يُعرَف بالطبّ التكميلي الذي يخلو مِن الكيمياء والدواء، ومنه العلاج بالقراءة أو البيبلوثيرابيا التي خبرتْها (هالة الأبلم) ووصفتْها بأنها طريقة علاجية لها جذور ممتدّة وبعيدة، وتتفق أهدافها مع ظروف المرضى وحاجاتهم، وتتعدّد أنماطها وتتنوّع مناهجها وأساليبها لتُناسب مختلف الحالات المرضية. وأضافت أنّ مصطلح العلاج بالقراءة لا يدل على معان أكثر مِن اسمه المُستقَى من كلمتيْن إغريقيتيْن، وهما: (بيبليون) وتعني

الكتب و (ثيرابيا) وتعني العلاج أو الشفاء. هذا في الوقت الذي يرى فيه حسين فوزي[١] القراءةَ داءٌ ودواؤه نفسه، ويراها نوعا من الإدمان الخطير الذي يتحمّل الضحية في سبيلها كلّ حرمان.

والواقع أنّ القراءة العلاجية، صيحة دوائية لها جذور قديمة قدم الفراعنة في مصر القديمة؛ حيث عثر الأثريّون على حفريّات مكتوبة تقول (هنا بيت علاج النفس.. هنا علاج الروح)، وذلك على جدران المكتبات المُلحَقة بالمعابد؛ مثل معبد رمسيس، ومعبد إدفو، ومعبد دندرة. ويهدف العلاج بالقراءة أساسًا إلى الدخول إلى أعماق الباطن، ثمّ إعادة برمجة التفكير؛ عبر تجديد البنية المعرفية، وتغيير النمط التلقائي للتعامل مع المستجدّات الطارئة. وهو جزء من العلاج المعرفي الذي يرتكز عليه العلاج النفسي في التعامل مع حالات التوتر والاكتئاب وما شابه، ويتمّ تعاطيه على هيئة كتب معيَّنة تُقرأ كواجب منزلي، مستهدِفة بذلك تحويل التفكير السلبي إلى تفكير إيجابي، وتبديل اليأس إلى تفاؤل والإحباط إلى أمل. وقد جرّبتُ هذا مع مريض غلبه الإحباط وأدبر عن الحياة، فأرشدْته-

(١) طبيب وبحار وعالم وأديب مصري، سطّر العديد من الكتب في أدب الرحلات، حتى لُقِّب بالسندباد المصري، تولى إدارة جامعة الإسكندرية، وترأس المجمع العلمي، ومُنح جائزة الدولة التقديرية ، وعُمّر قرابة التسعة عقود (١٩٠٠-١٩٨٨م).

بجانب الدواء– إلى قراءة كتاب (الرقص مع الحياة)، ليطّلع على ما به من ٥٥ قاعدة تفاؤلية؛ تحضّ على التصالح مع النفس والتسامح مع الناس وحبّ الحياة، وتعين على النظر بعين الرضا والامتنان، وقد عاد بعد أيام ولمستُ ما حلَّ به مِن تحسّن كبير، حتى بدا منشرحا ومنطلقا.

وفي أعقاب الحرب العظمى الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)، والتي نزفت البشريةُ من جرّائها سبعة عشر مليون جندي وما يقرب من ثلاثين مليون مدني، عدا عن الكارثة النووية التي حاقت باليابان؛ اجتاحت أوروبا آنذاك أزمات نفسية وروحية طاحنة، لجأ خلالها الأطباء إلى الاستعانة بالببلوثيرابيا، فراجت كُتب الفكاهة والأدب الساخر، وصارت الأكثر مبيعا والأشدّ إقبالا بين الناجين من وعثاء الحرب. كما تمّ الاستعانة بكُتّاب الأدب الساخر والفكاهة أمثال (جورج برنارد شو)، لإلقاء محاضرات في المستشفيات؛ وذلك في محاولة لحمل جرحى الحرب على التسامي فوق آلامهم سواء بالنسيان أو التغافل، وبالتالي كبح جماح هرمونات التوتر التي تستنفر الخلايا وتستنفد القوى فيما لا طائل من ورائه.

هذا وقد دلّت الأبحاث على أنّ القراءة –باعتبارها رياضة ذهنية– تقوِّي

عضلة الذاكرة، وتُسهِم في الوقاية مِن مرض ألزهايمر الذي ينتاب كبار السنّ؛ فيقتل الذاكرة، ويقهر الوظائف الدماغية العليا. فضلًا عن أنّ القراءة هدنة وسط معارك الحياة، وأفقٌ جديد نرى من خلاله الأشياء والأحداث، ومصدرٌ ثري لتجارب وخبرات الآخَرين؛ وهو ما يصبّ إيجابيا في صحة الإنسان وسعادته، ويضيف بُعدا وقائيا للقراءة، إضافة للبُعد العلاجي.

ولعلّنا قرأنا عن الكاتب الألماني هرمان هيسة الذي فاز بجائزة نوبل للآداب في عام ١٩٤٦م، وكيف أنه كان يستمتع بمرضه، لأنه رفض السكون له والاستسلام، واحتاط له بفعل إيجابي؛ فاستثمره في القراءة والكتابة، وخلَّق منه طاقة دافعة وتجربة فاعلة مثمرة.

٩- نِعْمَ الأنيس وأوفى الصِّحاب

الوحدة سمّ قاتل، والوحشة تبدّد نور الحياة، وكثيرًا ما ينتاب أحدُنا هذا الإحساس المُمِضّ بالوحدة والوحْشة، وعندها يكفيك أن تلتفت إلى مكتبتك وتلتقط كتابا فيؤنسك ويملأ عليك دنياك ويكفيك شرّ القيل والقال، ومِن هؤلاء الذين ذاقوا فعرفوا ولزموا؛ (ابن قتيبة)، وذلك حين قال:

نِعْمَ الأنيسُ إذا خلوْتَ كتابُ تَلهو بـه إنْ خـانـك الأحـبـابُ
لا مُفْشيا سِرًّا إذا استودَعْتَه وتُـفـاد مـنـهُ حِـكـمـةٌ وصـوابُ

وقد جرَّب فيلسوف الوجودية (سارتر) إحساس الوحدة بعد رحيل أحبّ أحبابه في عائلته، فاتّخذ مِن الكُتب عائلة بديلة، وسجّل ذلك ضمن سيرته الذاتية قائلًا: «أحسستُ بعد رحيل جدّي وأمّي، أنّ لي عائلة كبيرة أفرادها بالمئات: الكتب. صارت الكتب أهلي ورفاقي، وأنا في معيّتها يتنضّد الكونُ أمامي بنسق واتساق عجيبيْن، عُلب صغيرة تنشق كالمحار عن كل ما هو

مدهش وغريب. لقد بدأتُ حياتي كما سأُنهيها، بين الكتب». أمّا الروائية التركية إليف شافاق فتدين بالفضل للكتب في تغلُّبها على الانطوائية الشديدة بقولها: «أنقذتْني الكتب؛ فقد كنت طفلة انطوائية إلى درجة أنني كنت أتحدث مع أقلام التلوين وأعتذر من الأشياء عندما أصطدم بها، فوهبتْني القصص حسّا باتصال الأشياء بعضها ببعض، بالمركزية، بالفهم».

ولعلّ أحوج الفئات إلى القراءة المؤنِسة والكتاب الجليس؛ هم فئة المُسنّين الذين تقاعدوا عن العمل، وانشغل عنهم أولادُهم، ورحل بعضُ رفقائهم، وأعطتْهم الحياة ظهرَها، حتى صار لسانُ حالهم كحال (لبيد بن ربيعة) الذي عُمِّر طويلا وقاسى الوحدة فنظم قائلًا:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم   وبقيتُ وحدي كالبعيرِ الأجربِ.

وقد ذُكر أنَّ جماعة من الناس أشفقوا على أحد الحُكماء الذي كان لا يُرى إلّا وحيدا، فسألوه: مَن يؤنسك؟ فضرب بيده إلى كُتبه وقال: هذه. فقِيل: مِن الناس؟ فقال: الذين فيها...وكأنّه بذلك يُؤمِّن على قول الشاعر:

ما تَطعَّمتُ لذةَ العيش حتى   صرتُ للبيتِ والكتابِ جليسًا

ليس شيءٌ أعزَّ عندي مِن العلمِ،   فلا تبتغي سواه أنيسًا

وقد قِيل: إذا أردتَ أن تكسب صديقا جديدا فاقرأ كتابا جديدا، وإذا أردتَ أن تقابل صديقا قديما فاقرأ كتابا قرأته مِن قبل. والواقع أنّ صداقة الكِتاب لها طابع مميّز غير صداقات البشر؛ لأنها تخلو من المناكفات التي تتولّد عن أوزار النفوس وعلل القلوب وشهوات الأبدان، كما لا يعتريها الضعف أو الانهزام أمام ماديّات الحياة ورحى المصالح والأهواء...ولهذا قدَّم أميرُ الشعراء الكتابَ على الصِّحاب، وعدّد لذلك أسبابا نظَمها شِعرًا فقال:

أنا مَن بدّل بالكتب الصِّحاب ... لـم أجـد لي وافـيًـا إلّا الكتابا

صاحبٌ إنْ عبتَه أو لم تَعِب ... ليس بالواجد للصاحِب عابا

كلّـمـا أَخْلقتَه جدَّدَنـي ... وكسـاني مِن حُلى الفضْل ثيابا

صُحـبةٌ لم أشْـكُ منها ريـبةً ... ووِدادٌ لـم يكلّفني عتـابا

بل إنّ الكتاب قد يجلب لك أصدقاء لم تكتحل بهم عينُك يومًا، وما مِن رابط بينك وبينهم إلّا حبّ القراءة والتحلّق الفكري حول الكتاب، وكأنّ للثقافة رحِم وللقراءة قربى وللكتب أنساب!

١٠- ترياق الحُزن وإكسير الفرَح

بين الحزن والفرح تتأرجح بنا الحياة، فمَن ساءه يومٌ سرَّته أيام ومن سرَّه زمَن ساءتْه أزمان؛ ولهذا جَدّ الجميعُ في البحث عن ترياقٍ للحزن، وكدّوا في العثور على سرٍّ للفرح، باعتبار أنّ الحزن مقبرة الروح بينما الفرح قوتها وحياتها. وقد بحث الكاتب التركي أورهان باموق كما بحث غيرُه، فاكتشف بين صفحات الكتب ترياق الحزن، وقال: «أن تحمل كتابا في جيبك أو في حقيبتك، خاصة في أوقات الحزن، معناه أنك تمتلك عالمًا آخر، عالمًا يُمكن أن يجلب لك السعادة».

أمّا سرّ الفرح وإكسيره فتكفّلَت بالعثور عليه (راندا الشيخ) قائلة: «أتعلم أين تجد الفرح وما هو سرّه؟ سأخبرك. الفرح هو كتاب يحمل حروفا معقودة بالسكر. فلتلك الحروف التي تقرؤها طعم الحلوى التي قد تحتفظ بها في جيبك لتأكلها خفية. بل هي ألذّ من الحلوى. ذلك لأنّ مذاق الحلوى مؤقّت، ينتهي

فور انتهائك من التهامها، لكن مذاق الأحرف يبقى معك ليكبر ويصبح أكثر لذّة يومًا بعد يومًا. أمّا سرّ ذلك الفرح، فيكمن في أنّ كلّ كتاب سيأخذك في رحلة عجيبة حول العالم لزيارة أماكن ساحرة وزاخرة بالجمال والحب، وستلتقي فيها بمَن يشبهونك في إنسانيتهم ويختلفون عنك في ألوانهم ولغاتهم وظروفهم، ولن تكون بحاجة لاستقلال سيارة أو طائرة او حتى فيل هندي! كلّ ما عليك فعله هو أن تغمض عينيك وتسافر إليهم. ولن يكلّف الأمر سوى وقت، وضوء شمس أو شمعة».

أمّا السندباد حسين فوزي فعبَّر عن مشاعر الفرح التي جمعَت بينه وبين الكتب عبر عمره المديد قائلًا: «لا أعرف فرحة تعادل فرحي باقتناء الكتب، فرحة لم تَضعف من سنوات الحداثة حتى أوائل الشيخوخة، وما أظنّها إلّا في ازدياد على كرّ السنين. أعود إلى البيت بربطة كتب، فلا أنقلب إلى فراشي حتى أكون قد محضتها واحدًا واحدًا، كالبخيل بين دنانيره. فأطالع بعض أوّلها وبعض أوسطها وبعض آخِرها؛ لإشباع فضولي، ولتطمئنّ نفسي على حسْن اختياري، وتَواعُدا على لقاء ممتع طويل».

ولأنَّ كلّ نعمةٍ لا بدّ لها من حاسد وكلّ حقٍّ لا مفرّ له مِن جاحد وكلّ خيرٍ لا مناص له مِن كاره، ولأنّ القراءة نعمة وحقٌّ وخير؛ فلا عجب أن تجد مَن يكتم أنفاسها ويضع العراقيل في طريقها، تارة بمقص الرقيب الذي يمنع النشر، وتارة بقصف القلم وتغييب صاحبه، وتارة بمصادرة المطبوع وحرق المكتوب. ولأنّ أوّل سطر في كتاب التغلُّب على عدوّك هو معرفته، فعلينا أن نستمسك بعرى القراءة باعتبارها المفتاح الذي يفتح لنا باب هذه المعرفة.

وقد عدّد خبير القراءة ألبرتو ما نغويل ما يمكن تسميتهم بأعداء القراءة وخصوم القرّاء، فقال: «الحكومات الشعبويّة(١) تطالبنا بأن ننسى؛ لذا فإنها تدمغ الكتب بأنها بهرجة لا حاجة إليها. أمّا الحكومات الشمولية (الديكتاتورية) فتطالبنا بالتوقف عن التفكير؛ لذا فإنها تمنع العقل وتلاحقه وتخضعه لمقصّ الرقيب، وكِلا النظامين يريدان إخضاعنا وجعلنا أغبياء، ممّا يجعلهما يشجّعان استهلاك القمامات التليفزيونية. والنظم الشموليّة ليست الوحيدة التي تخشى

(١) الحكومات الشّعبوية هي حكومات ضعيفة فاشلة؛ تَعبد الجهل وتُعادي الفكر، وتقوم على دغدغة العواطف وإثارة الحماس وإلهاب المشاعر، دون اعتماد الأفكار والرؤى كأساس لحلّ مشاكل الواقع، ومن أمثلتها حكومة بيرون في أمريكا اللاتينية إبّان ثلاثينيات القرن الماضي، وحكومة عبد الناصر في مصر إبّان ستينيات القرن نفسِه.

القراءة، بل وحتى في ساحات المدارس، وفي دوائر الدولة، والسجون، تَجري مراقبة جمهرة القرّاء بعين الارتياب؛ نظرا لما يَشعر المرء به من سلطان القراءة وقوّتها الكامنة».

ولعلّنا نذكر دماء الكتب التي سالت في نهر العراق الأكبر على يد التتار، وما ردَّده النازيُّون مِن أنّ الحذاء أولى من الكتاب، وهرطقة عدوّ الثقافة اللدود (جوزيف جوبلز) حين قال: «كلّما سمِعتُ كلمة مثقَّف تحسَّسْتُ مسدّسي».. وفي تلك التذكرة والإطلالة -ولا ريب- ما يؤشِّر على قوّة القراءة، وفاعليّة ما يتولّد عنها مِن ثقافة، في مجابهة الطغاة ودكّ حصون الاستبداد.

١١- طفولة مميَّزة

لا يَكفي أن تغمر الأمُّ وجهَ طفلها بالقُبُلات وتُدفّئ صدرَه بالأحضان وتغدق عليه بالدُّمَى والألعاب؛ بل عليها أن تقرأ له وتَغرس في روْعه حبَّ الكتاب، فالكتاب قُبلة العقل وحضن الرّوح وحلوى الطفولة.

وإذا ذاق الطفل حلاوة القراءة، وامتزجَت بلحمه ودمه؛ تضاءلت أمامه أيّة حلوى أخرى؛ وقد قرأتُ في هذا الصدد أن الكاتب عبد التواب يوسف فاجأ أحفاده ذات ليلة بهدية ملفوفة، فاستقبلوها جميعا بالتصفيق والترحاب، وحين أخذ ينضو عنها لفافاتها الواحدة تلو الأخرى مثيرا حبّ الاستطلاع لديهم، وكشَف النقاب عنها، فإذا بها كعكة كبيرة من الحلوى المزيّنة، وإذْ بهم يستقبلونها بصخب وتصفيق، كلٌّ منهم يطالب بنصيبه منها، إلا واحدًا منهم، كان قد نشأ في كندا، وجاء مع أمّه ليقضي إجازة صيفية مع جدّه في القاهرة، لم يشارك أقرانه صخبهم، وانزوى كمن يداري خيبة أمل، وحين ناوله جده نصيبه من الحلوى، رفض قائلًا: جدي! لا أريد الحلوى، أريد كتابا!

أَضِف إلى ذلك فضل القراءة في القضاء على ظاهرة التشتّت وقلّة التركيز التي تميّز مرحلة الطفولة، إذْ نجد الطفل يتنقّل كالفراشة مِن لعبة إلى لعبة ويتقفّز كالأرانب من فكرة إلى فكرة ومِن حديث إلى حديث، دون أين يُتمّ هذا أو ذاك أو ذلك، وفي هذا ذكر المفكِّر عبد الكريم بكار أن حُسْن التركيز هو من سلامة الشخصيّة، وإنّ مِن أفضل ما يُحسِّن قدرة الطفل العادي عليه: العبادة، والقراءة، واللعب، والرسم، والتلوين.

وعن الفوائد الجمّة والثمار اليانعة التي يجنيها الأطفال مِن وراء القراءة، كتبَت ماري ليونهاردت قائلة: «القراءة بشغف تنمّي لدى الطفل ملَكة التفكير السليم، وتعطيهم القدرة على التخيل وبُعد النظر، والقرّاء الشغوفون يطّلعون على عالَم مليء بالفرص والاحتمالات، ويكتسبون حسّا لغويا أفضل؛ فيتحدثون بشكل أفضل ويكتبون بشكل أفضل ويغدو سلوكهم أفضل. فضلًا عن أنّ القراءة تُوسّع الحصيلة المعرفية لدى الأطفال، ممّا يجعل تعلّمهم أيسر، وتُمكّنهم من تحمّل الصدمات والمشكلات الشخصية دون تأثر إمكانياتهم الدراسية، كما تُعوِّد الطفل العطف والمحبة، وتكشف له ألوف الشخصيات المختلفة فيفهم

منها أنماط الحياة وتعقيداتها، إضافة إلى أنها -أي القراءة- من المتع الرئيسة في الحياة، وبدون هذه المتع تكون الحياة أكثر رتابة دون شك».

ولهذا أَجمع التربويُّون مِن كلّ صنف ولون على أنّ الطلّاب الذي يعرفون طريق القراءة؛ فيتردّدون على المكتبات المدرسية والجامعية، ويُطالعون كتبا جانبية، بغرض توسيع مداركهم واكتساب معارف إضافية، هم نواة التفوّق ومُلّاك التميّز، وذلك مقارنة بسواهم ممّن يكتفون بالكتاب المدرسي والمنهاج الرسمي...

ولا عجب في ذلك، فمَن أرد أن يبني غرفة يكفيه المِتر والمِترَيْن هنا أو هناك، وهو ما يفعله الطالب الذي لا يخرج عن مقرَّره الدراسي؛ فيحوم حوله ويعيش في أسْره. أمّا مَن يطمح لتشييد قصر، فعليه أن يجتهد لتحصيل آلاف الأمتار في أجود الأمكنة، وهو ما يقوم به الطالب الذي يفكّر خارج الصندوق ويغرِّد بعيدا عن القفص؛ فيطالع ويقرأ فوق مقرّره الدراسي.

١٢- سبيل الحرية وطريق الاستقامة

في تجربة إنسانية فريدة، تبنّى أحد السجون البرازيلية شعار (القراءة مقابل الحريّة)، وفيها تَقرَّر أنّ كلّ مسجون يقرأ كتابا ويلخّصه، يُخصَم من مدّة سجنه عدد معيّن من الأيام. ثمَّ نسجَت على هذا المنوال مقاطعة كالابريا في جنوب إيطاليا، فسنَّت قانونا يخفِّض ثلاثة أيام من مدّة السجين مع كل كتاب يقرؤه؛ آملة بذلك تشجيع القراءة بين المساجين، وهادفة إلى خفْض الاكتظاظ التي تعانيه السجون الإيطالية بحسبانها ثاني أكثر السجون الأوروبية اكتظاظا. ولا شكَّ أنّ تلك تجربة تستحقّ الإشادة، وجديرة بالتعميم؛ لِتعيد للسجون فلسفة الإصلاح والتهذيب، وتنبذ على أثرها سياسة الإفساد والتعذيب التي ما زالت تتبنّاها منظومات رسمية متخلِّفة.

والواقع أنّ ارتباط القراءة بالحرية ارتباط وثيق، فالكتاب صديق الحرية، والقراءة بحدّ ذاتها تُحرّر العقول مِن الخرافات التي تكبّلها ومِن الضلالات التي

تَحول بينها وبين التفكير الحُرّ المبدع، وفي هذا ورد في الإنجيل: «تَعلَّموا الحقَّ والحقُّ يحرِّركم». فضلًا عن أنَّ القراءة تعبِّد طريق الاستقامة، وتحصِّن صاحبها ضد الانحراف والجريمة؛ وهو ما يتبيَّن من الإحصاءات التي تؤكّد أنّ القرّاء بعيدون عن الانحراف، بعيدون عن الجريمة، بعيدون مِن السجون. ولعلّ هذا يؤكِّد على ضرورة توفُّر المكتبات داخل السجون كافة، وأحقيّة السجين في الوصول إلى تلك المكتبات، وحرية دخول الكتب إلى المعتقلات، واعتبار القراءة حقّا آدميّا كحقّ الطعام والشراب والعلاج، خاصة مع خلوّ يد السجين من المسؤوليات تجاه العمل والأسرة والمجتمع، ومع توفُّر وقته الذي تمدّد فيه النهار وتمطّى الليل، حتى تجمَّدَت عقارب الساعة و شُلَّت، وبدَت الساعة يومًا واليوم شهرا والشهر دهرا، وصار الوقت أثقل من الرصاص في مروره وأرخص من التراب في وفرته. والواقع أنّ هذا ما تفعله الدول التي ترعى الحقوق وتكفلها، بينما تتعسّف في ذلك كلُّ سلطة مستبدة تتكسّب من وراء الجهل؛ فتستمدّ منه بقاءها، وتَبني عليه قصورَها الرملية.

بالطبع لم يكن الروائي الإنجليزي أوسكار وايلد حالة استثنائية بين

السجناء، في حرمانه مِن هذا الحقّ القِرائي، ولا في معاناته التي قال عنها: «يُحِبّ المسؤول معاقبتي بأخذ كتبي منّي! يا له من أمر مريع أن تدع عقلك يطحن نفسه بلا هوادة بين مطرقة الندم وسندان تأنيب الضمير! إنّ الكتب هي الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة -أي حياة- قابلة لأن تُعاش». بل سبقه وتلاه الكثيرون؛ أمثال (مصطفى أمين) الذي رُفعت في وجهه اللاءات الثلاثة: لا للأقلام، لا للأوراق، لا للكتب. فاحتال على طريقة العصابات، وقام بتهريب الأوراق والأقلام، ثمّ سجّل مذكراته يومًا بيوم وسنة بسنة، ثمّ طُبعت وراجت حتى اليوم.

وإذا ذُكرَت السجون والكتب؛ تناهى إلى الذّهن العديد من المؤلَّفات المشهورة التي صاغها أصحابها خلف القضبان وكُتب لها التوفيق والقبول؛ فكتاب (المبسوط في شرح الكافي) بمجلَّداته الخمس عشرة، أملاه مؤلِّفه الإمام السرخسي على طلّابه وهو بالجبّ محبوس. وكثير من تصانيف الإمام ابن تيمية خرجَت من سجن القلعة بدمشق، وجُلّ (تفسير الظلال) للشيخ سيد قطب كان صنيعة سجون عبد الناصر، وكذلك كان اختصار وتهذيب صحيح الإمام مسلم على يد مؤلِّفه الشيخ الألباني. أضِف إلى ذلك كتاب (لا تحزن) الذي

-تناقلتْه أيدي الملايين وطربت له القلوب والأسماع- لِمؤلِّفه الشيخ عائض القرني، والذي وُلد بين جدران سجن دخله الشيخ إثر إلقائه لقصيدة شعرية! هذا عدا عن رواية (دون كيشوت) للأسباني ثيربانتس، ورواية (موت الملك آرثر) لتوماس مالوري، وغيرها من الإبداعات الفكريّة.

١٣-إحياء الوقت الميت

كثيرة هي الأوقات التي تتفلّت من بين أيدينا قسْرا دونما اختيار منّا؛ وذلك أثناء انتظارنا في عيادة طبيب، أو بين جدران مصلحة حكومية، أو أمام إشارة مرور، أو داخل وسيلة نقل، أو على الموائد في المطاعم، أو في غيرها من الأوقات البيْنيّة التي تفصل بين نشاط ونشاط، وتأخذ حكم الميْتة لأنّها تذهب سدى بلا نفع ولا فائدة.

والحقّ أنّ كتابا في جيب أو حقيبة أو سيارة؛ كفيل بنفْخ الروح في تلك الأوقات الميتة الهامدة، ومِن ثَمّ استدعاءها للحياة من جديد. ولا شكّ أنّ في ذلك خدمة جليلة لأنفسنا، لأننا ننقذ الروحَ من الانتظار الذي يصلبها، ومن الفراغ الذي يجلدها. ولا يَحقرنّ أحدٌ تلك الدقائق التي تضيع في هذا الانتظار وذاك؛ فالدقائق إلى الدقائق ساعات. كما لا يقلِّل أحدُنا من بضعة سطور نقرأها أثناء تلك الدقائق المعدودات، فالسطر مع السطر كتاب. واقرأ في ذلك ما رواه

(أبو العباس المبرِّد)، من أنّ الوزير العباسي (الفتح بن خاقان)، كان يحمل الكِتاب في خفّه، فإذا قام مِن بين يدي الخليفة (المتوكّل) ليبول أو يصلّي، أَخرج الكتابَ فنظر فيه وهو يمشي حتى يبلغ الموضع الذي يريد، ثمّ يصنع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه! وهو ما كان يفعله أيضًا صاحب القاموس المحيط (الفيروز آبادي)؛ الذي كان لا يسافر إلّا وبصحبته عدّة أحمال مِن الكتب، فإذا نزل منزلة أخرجها ونظر فيها، ثمّ يعيدها إذا رحل.

ولا جدال في أنّ استغلال تلك الأوقات هو ما يصنع الفارق ويضعنا على طريق التميّز، فاليوم بساعاته الأربع والعشرين ملك للجميع دونما زيادة هنا أو نقصان هناك، وبينما ينفخها بعضهم في الهواء ويبدّدها ذات اليمين وذات الشمال؛ فهناك مَن يصونها صون الكنوز ويحميها حماية الثغور؛ فينفقها في مطالعة وبحث ودراسة وتأمّل. فها هو ابن عقيل الحنبلي يقول: لا يحلّ لي أن أضيِّع ساعة من عمري، حتى إذا تعطّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا مستطرِح، فلا أنهض إلّا وقد خطر لي ما أسطِّره! وها هو ابن رشد الحفيد، يَذكر أنه لم يدَع النظر والقراءة مذْ عقَل؛ إلّا ليلة وفاة أبيه، وليلة عرسه!

وهنا أذكر بإعزاز، حارسا ليليا عملت معه في إحدى المؤسّسات الصحيّة ببلد الحرميْن الشريفيْن، وكان بجوار تلك المؤسّسة مكتبة لبيع الكتب والأدوات المكتبيّة، ولمّا كان الحارس صديقًا لموظف المكتبة؛ فقد اتفق معه على أن يعيره كل ليلة كتابًا، يطالعه أثناء مناوبته التي تمتدّ من العاشرة مساء حتى الثامنة صباحًا، متكفِّلًا بإعادة الكتاب إلى المكتبة في الصباح بحالته، دون أن يثني ورقة أو يضع خطا أو ما شابه، وكم كان كريمًا هذا الحارس، حين قبل مشاركتي له في قراءة هذه الكتب المستعَارة على مدار بضعة أشهُر قضيتها معه، وتلك لعَمري طريقة جاحظية عصرية، تسوق على متْنها سيرة الروائي التركي إيشار كمال، الذي قادته ظروف المعيشة ليعمل حارسًا على مكتبة، فقرأ ما بها من كتب بلغ تعدادها من الألوف ثلاثين!

وغنيٌّ عن القول أنَّ الوقتَ أحدُ الأعمدة الأساسيّة في البناء الحضاري، وذلك استنادًا إلى المعادلة الحضارية التي قعّد لها المفكِّر مالك بن نبي وشيّدها على أركان أربعة؛ وهي الإنسان، والتراب، والوقت، ثمّ أضاف إليها الفكرة المحفِّزة أو الدِّين. وما أشبه حياة أحدنا بالكِتاب؛ الميلاد غلافه الأمامي، والموت غلافه

الخلفي، والأيام صفحاته، والدقائق والساعات كلماته وسطوره. والحصيف مَن يتشبَّه بعامر بن عبد القيس؛ الذي التقاه رجل، وقال له: قِف أُكلّمكَ يا عامر. فأجابه: أَمسِك الشمسَ أُكلِّمك! وهو أيضًا مَن يثمِّن أوقاته كالذهب، ويحرص عليه حرص هذا الرجل؛ الذي امتلك معملا لتصنيع الذهب، وكان يفرش على الأرض قماشا أبيض ليهبط عليه غبار الذهب المتطاير، ثمّ يبلّل قدميه بالماء مع نهاية كل أسبوع، ويمشي بخفة على القماش ذهابا وإيابا حتى تلتصق حبيبات الذهب بقدميه، ومنها يحصل على بضع جرامات من الذهب!

١٤- نقطة الانطلاق

دائمًا ما تمثّل نقطة البداية الصحيحة منطلَقًا نحو تحقيق الهدف المنشود، ومَركَبا للوصول إلى الغاية المطلوبة؛ وإذا كنّا متّفقين بدرجة تصل إلى الإجماع، على أنّ أحوالنا السياسية والاقتصادية والعلمية وصلت إلى مستوى العار، واستقرّت عند منسوب الفضيحة؛ فعلينا أن نتّفق وبالإجماع نفسه، على أنَّ القراءة الواعية هي نقطة البدء لوضع عربة التغيير على مسارها السليم. وعندها ستنطلق العربة ويبزغ فجر النهضة؛ فتشخيص الداء أوّل العلاج، ورسْم الخطّة ثلاثة أرباع الفوز.

وعندما نتمعّن فيما صرّح به أحد المسؤولين العسكريِّين الصهاينة يومًا، حين لامه بعضُهم على نشر خطّته الحربيّة في حال مهاجمتهم مِن قِبل العرب، فقال بأنه لا مبرّر لعتاب أو لوم؛ لأنّ أمّة العرب أمّة لا تقرأ...ستتيقّن عندها أنّ القراءة وسيلة لا غنى عنها في معرفة العدوّ ودراسة مؤامراته ودسائسه، وهو

ما ألمحت إليه بل وبسَطت فيه كُتب عديدة مثل (بروتوكولات حكماء صهيون) و(لعبة الأمم) و(أحجار على رقعة الشطرنج) و(حكومة العالم الخفية)، وغيرها.

أضِف إلى ذلك أنّ قوّة العِلم التي تتولّد مِن القراءة؛ تُكسِب الأُمم مهابة وقُدرة، وتزرع في نفوس أعدائها الرهبة والخشية. خاصة مع تقدُّم الزمن وتطوُّر العِلم، الذي غيّر كثيرًا في أدوات الصراع الأزلي بين الخير والشرّ؛ فبعد أن كانت جحافل الجند وأرتال الدبابات وهدير المدافع هي التي تُطلق صافرة الفوز، أصبح العقل ومنجزاته الفكرية هو ما يحكم الصراع ويتلاعب بالخصوم. وهذا ما أكّده الدكاترة زكي مبارك بقوله: «أوروبا المحارِبة لا تُخيفني، فقد هزمْناها في الحروب الصليبية، وإنما تُخيفني أوروبا المفكّرة، أوروبا التي تؤلّف وتقرأ وتستفيد في كلّ وقت، بلا استثناء وقت الحرب».

ولعلّنا نذكر أنَّ مَن كتب السطر الأخير ورجَّح كفّة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، لم تكن إلّا تقنية علمية انفردَت بها أمريكا فركعت أمامها دولُ المحور وعلى رأسها اليابان، وتنحّت بريطانيا بموجبها عن قيادة العالَم إلى المارد

القادم أمريكا، وبالتأكيد قامت هذه التقنية النووية على أكتاف علماء قرأوا وبحثوا واكتشفوا. وهو ما وعتْه اليابان جيّدا فردّت الصاع صاعيْن، وأصبحت اليوم قوّة مرهوبة الجانب؛ بالعِلم لا بالسلاح، وبالعقل لا بالبطش.

وقد حفظ لنا التاريخ نماذج حيّة لأناس قرؤوا كتابا، فكان نقطة انطلاقهم إلى مخترعات وابتكارات سطّرت لهم الأمجاد وخدمت البشرية كلّها إلى يومنا هذا؛ وهو ما عدَّده الشيخ محمد موسى الشريف في كتابه (الطرق الجامعة للقراءة النافعة) بقوله: «اشترى (لورد كلفن) كتابا عن الحرارة تأليف عالِمٍ طبيعي اسمه (فوربيه)،وانغمس في قراءته واستيعابه، فكان لهذا الكتاب أكبر الأثر في حياة الرجل بما أوحى إليه من الاختراعات. وقرأ (بت) كتاب ثروة الأمم تأليف (آدم سميث)، فاستطاع أن يرسم للأمة الإنجليزية سياستها الاقتصادية الرشيدة في وقته. وقرأ (سسل رودس) كتاب الامبراطورية الرومانية تأليف (جبون)؛ فذهب إلى إفريقية يوسِّع نطاق الامبراطورية البريطانية. وقرأ (فورد) مقالا في مجلة عن العربات التي لا تجرّها الخيل؛ فأوحى إليه هذا المقال بالتفكير في صنع السيارة، ودأب على تحقيق هذا الحلم الجميل حتى كان له ما أراد».

وزِد على هؤلاء، الألماني الفرنسي ألبرت شفايتزر؛ الذي عثر في ثلاثينيات عمره على جريدة منْسية بإحدى المكتبات التي اعتاد ارتيادها، وقرأ فيها مقالا يصف البؤس الذي يعانيه سكان وسط أفريقيا، وكيف أنّ الأمراض تفتك بهم في ظلّ غياب تام لأطباء يخفّفون آلامهم ويكْلمون جراحهم، ويومها قرّر دراسة الطبّ ثمّ الذَّهاب لتلطيف عذابات هؤلاء البؤساء. وهو ما تَحقّق بالفعل؛ فدرس الطبّ في فرنسا، ورحل إلى دولة الجابون، وأنشأ بها مستشفى مكث يعالِج فيه المرضى على مدار خمسة عقود، حتى قضى نحبه هناك، بعد أن مُنح جائزة نوبل للسلام في عام ١٩٥٢م.

١٥-بناء الذات

لا شكّ أنّ خيرَ ما يبنيه الإنسانُ نفسَه، وأثمنَ ما يربِّيه المرءُ ذاتَه، إذْ عليها مدار سعادته إنْ صلحت واستقامت، وبها يصل إلى الفلاح إنْ رشدَت واهتدَت؛ والقراءة –ولا ريب– إحدى اللبنات الرئيسة في هذا البناء والخطوة الأبرز في سبيل تلك التربية، وهو ما أكّد عليه الشيخ سلمان العودة بقوله: «أوّل سورة نزلت في القرآن الكريم (اقرأ باسم ربك الذي خلق)، تدعو إلى القراءة كنوع مِن التربية على معرفة الأنا واكتشافها، وتحقيق الذات مِن خلال العلم والمعرفة وليس من خلال الادّعاء، ثمّ إنّ القراءة باسم الله تعني الارتباط به سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كخيْر ما يُعالج الأنا، لأنّ الإنسان إذا ابتعد عن الله عَزَّوَجَلَّ قد يكبر في نفسه ويتضخّم، فبدلا من أن يَعبد الله يَعبد نفسه، بينما إذا عرف الله استراح وآمن به».

وبالإضافة إلى اكتشاف الذات ووضعها في إطارها الصحيح؛ فإنَّ القراءة تمدّنا بقوّة المعرفة التي يتولّد عنها الثقة بالنفس، ومعلوم أنّ النجاح قرين الثقة

بينما الفشل قرين التردّد، ومعلوم كذلك أنّ الثقة -كما قال هارولد بلوم- ليست منحة، وإنّما هي الميلاد الثاني للعقل الذي لا يمكن أن يتحقّق بغير سنوات طويلة من القراءة العميقة. فضلًا عن أنّ الانفتاح الثقافي الذي تتيحه لنا القراءة، حين تُشرِع نوافذَنا على أجناس ولغات ومعتقدات وحضارات أخرى؛ تُورثنا رحابة الصدر وسعة الأفق، وتَصبغنا بقيم التسامح وقبول الآخَر، وتَخرج بنا من ركن المحلّية الضيّق إلى أفق العالمية الرحب، وترقى بنا خطوات في مراقي الكمالات التي يأملها كلُّ شريف يدبّ على وجه البسيطة.

وقد عبّر الأديب الأمريكي راي برادبيري عن تجربته في البناء الذاتي الذي سلكه عبر القراءة قائلًا: «لقد كنتُ أقضي ثلاثة أيام في الأسبوع لمدة عشر سنوات في المكتبة، أعلّم نفسي بنفسي، وكان هذا أفضل من الذَّهاب إلى الجامعة». أمّا الإمام ابن الجوزي فقد قارن بين العابث المُعرِض عن طلب العلم وبناء الذات، وبين والجادّ في طلب العِلم السّاعي إلى تهذيبها وتقويمها، فقال: «لقد تأمّلتُ نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا، وأنفقتُ زمن الصبوة والشباب في طلب العلم، فرأيتني لم يفتْني ممّا نالوه إلّا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثمّ تأمّلتُ حالي فإذا عيشتي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي

بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يُقوّم. فقال لي إبليس: ونسيتَ تعبَك وسهرك؟ فقلتُ له: أيها الجاهل، تقطيع الأيدي لا وقْع له -أي لا يُذكر وليس بشيء- عند رؤية يوسف، وما طالَت طريقٌ أدّى إلى صديق».

ويحزّ في نفسي أن تعجّ مجتمعاتنا بأمثال زميلي الحاصل على شهادة عليا في الطبّ، والذي لا مَني يومًا على الانغماس في القراءة قائلًا: كلّ ما تريد معرفته تستطيع الحصول عليه عند الحاجة، بكبسة زرّ أو لمسة شاشة.. بما يعني أنه لا يعرف للقراءة معنى إلّا اجترار المعلومات، وغاب عنه أنّ القراءة تهذِّبنا وجدانيا وتنمِّينا روحيا وتطوِّرنا ذهنيا وتعمِّقنا إنسانيا! وبالتأكيد لم يقرأ أنَّ أرسطو سُأل يومًا: كيف تحكم على إنسان؟ فأجاب: أسأله كم كتابا تقرأ؟ وماذا يقرأ؟ ولم يقع على مقولة الجاحظ: «كلما اتسعت مساحة الوعي تقلّصت مساحة العدوانية».

ولا زلت أذكر كيف كان لكتابَي (دع القلق وابدأ الحياة) و (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثّر في الناس)، لمؤلِّفهما المفكِّر الأمريكي ديل كارنيجي، من تأثير عميق في بنائي الذاتي، إذْ علَّماني كيفيّة مواجهة الأزمات بثبات، وأكْسباني فنون التعامل مع الآخَر، ونبَّهاني إلى ضرورة اقتسام السعادة مع الأحباب؛ وذلك حين طالعْتهما أوّل مرّة في مقتبل العمر وبداية القراءة؛ فالدور البِنائي للقراءة يكون

أقوى تأثيرا إذا صادف المراحل الحياتية الأولى، وذلك قبل أن يكتمل النضج ونبلغ الأَشدّ وتلتئم ثقوب الوعْي، ويصبح تغيير القناعات أصعب قليلا، فعُود الصبا غضّ وغصن الشباب رطيب، والغصون-كما قال الشاعر:

إذا لايـنْـتَـهـا اعـتـدَلَـت ولا يلين إذا لا ينْتهُ الخشبُ

مع الأخْذ في الحسبان أنّ الكتاب صديق أَلوف لا يملّ الانتظار، وأنّ قطار القراءة لا يفوت، بل يمكن تَداركه والحصول على موقع متقدِّم به في أيّ سنّ.. واقرأ في ذلك ما حدّث به الإمام ابن عقيل الحنبلي عن نفسه فقال: «وإنِّي لَأجد من حرصي على العلم وأنا ابن الثمانين، أشدّ ممّا كنت وأنا ابن عشرين سنة»!!

ومِن منظور آخَر؛ فإنّ فائدة القراءة تتخطّى جانب البناء المعنوي إلى البناء المادي، وذلك عبر الحفاظ على الصحة واستثمار العافية خير استثمار، فمَن يقرأ يعرف كيف يعمل جسدُه ويتعلّم كيف يحميه من غائلة المرض، كما يتعرّف على فوائد الرياضة، وماهية العادات الغذائية السليمة، ومخاطر التدخين والمخدّرات، وأوليّات العلاج والإسعاف الطارئ، ومبادئ الصحة النفسيّة، وهو ما يصبّ في النهاية تجاه بناء جسم سليم وعقل سليم يجلبان السعادة وراحة البال.

١٦- علامة الإنسانيّة

لسنا في حاجة إلى فيلسوف كديكارت لنقول: «أنا أقرأ إذنْ أنا إنسان»، ولا حاجة بنا إلى عالِمِ اجتماع كابن خلدون لنقول: «الإنسان حيوان قارئ لا ناطق»، فالقراءة مزية بشرية اختصّ بها الله الإنسان، ونعمة جليّة أنعم بها سبحانه على العباد. وبهذا فإنَّ مَن لا يقرأ؛ جاحدٌ للنعمة، وحائدٌ عن درْب الإنسانية، ومتنصِّل من أداء أوْجب واجباته، وهو بهذا مستحِقٌّ للعزاء والرثاء؛ إذْ لا أبْأسَ مِن شخص يضع نفسه في مرتبة أقلّ من إنسان، ولا أخْسر من امرئ يرضى لنفسه أن تكون صدَفة لا دُرّ فيها وصندوق مجوهرات تصفر فيه الرياح!

فلا يكون إنسانا مَن لا يعلم مِن أين مُبتداه وإلى أين مُنتهاه، ولا يكون إنسانا مَن لا يحتفظ بذاكرة الماضي ويُغذّي أحلام المستقبل، ولا يكون إنسانا مَن لا يتعلَّم فيَعْلم ويُعلِّم، ولا يكون إنسانا مَن لا يتواصل مع السابقين والمعاصرين ويفهم ما يدور حوله في جنبات الكون الفسيح... ووحدها القراءة هي التي

تُهدينا كلّ ذلك، وعلى طبق مِن متعة وفرحة وسعادة؛ بما يعني أنّ القراءة ضرورة لا حاجة، وهويّة لا مظْهرية. وفي هذا يقول دانيال بناك: «الضرورة المطلَقة للقراءة هي ما تميّزنا عن الحيوانات، عن البربر، عن الشخص الغشيم الجاهل، عن المتعصِّب الهستيري، عن الديكتاتور المتحكِّم، عن المادّي النهم».

ولعلّ هذه إحدى المحن التي يكابدها قارئ يعيش وسط مجتمع لا يقرأ، ويقاسيها مثقَّف أجبرتْه الحياة على المعيشة بين ظهراني مَحفل جاهل؛ إذْ تمنحه القراءة مُثلا وقِيما ومعرفة لا يجد لها أثرا في واقعه، وتملأه القراءة بزخم إنساني ولكنه يرتدّ خاسئًا حسيرًا حين يَصطدم ببقايا أخلاق الغاب وسلوك الوحوش التي تصبغ الحياة حوله. وربّما في ذلك سرّ الغربة الروحية ومبرّر العزلة الاختيارية التي تلمسها في سلوك وكتابات بعض المفكِّرين؛ أمثال أبي حيان التوحيدي في الزمن القديم، والمازني في العصر الحديث. وهو ما عبّر عنه الكاتب عبد الله الهدْلق قائلًا: «ستضيف القراءةُ للشخص اغترابًا روحيًا ولا سيما في المجتمعات الجاهلة، وستضيف للمرء حسدًا كثيرًا من أقرانه لازدياد كمية الإنسان فيه، وتَجاوزهم بنموّه العقلي، وستُفقده القدرة على

إقامة العلائق الاجتماعية والتكّيف مع الناس».. وبالطبع ليس في ذلك دعوة لهجر القراءة، بقدر ما فيها مِن أسى لواقع مرير، وحفْز لخلْق مجتمع قارئ يمحو هذه التداعيات السلبية وينسفها نسف الجبال يوم التنادّ. وهنا يطوف بمخيّلتي، ذلك الفيْض الإنساني الذي لمسْته في الكتابات النثرية لناسك لبنان وأديبها المصقّع (ميخائيل نعيمة)، وكذلك زميله في المهْجر والرابطة القلميّة (جبران خليل جبران).

ولو تجاوزْنا واعتبرْنا القراءة هواية كما هو شائع بين الكثيرين؛ فإنّ هذا لَجِدّ كافٍ للإقبال عليها والتعلّق بأهدابها والإمساك بتلابيبها، فالهواية بوجه عام -كما يقول عبد المحسن المطلق- تمنع جفاف الحياة، وتجعل الينابيع تتفجَّر في صحرائها، وتأخذنا من التحديق في دوائر الضجَر إلى الاستغراق في خمائل السعادة.

وإذا كان هذا هو الحال مع كلّ الهوايات، كلعب كرة القدم أو جمع طوابع البريد أو تربية العصافير، أو الرسم والتصوير؛ فإنّ القراءة؛ باعتبارها الغيث الذي يروي عطش المعرفة ويقي الحياة مِن التصحّر، وبحسبانها شجرة السعادة التي تظلّلنا حين يَلفحنا الضجرُ بلهيبه أو يُلهبنا الفراغُ بسوطه؛ لَهي مِلكة

الهوايات وأفضلها على الإطلاق.. هذا وتُعرَف الهواية بأنها التولُّع بنشاط ما ومزاولته في وقت الفراغ؛ بقصد المتعة والتسلية والاستجمام والفائدة، دون أن نأخذ هذا النشاط إلى حيّز الاحتراف.

١٧- شاطئ الذكريات

كعادة الأجواد الكرماء؛ يمنحنا الكتاب -بخلاف الفائدة القرائية- فائدة أخرى وهِبة إضافيّة، ألا وهي الاحتفاظ بسجلٍّ حافل للذكريات التي تحكي ظروف الشراء، وتسرد مكان وزمان وأجواء قراءتنا للكتاب المرّة تلو المرة، وهو ما يُهدينا متعة إضافية ويجعل فائدة القراءة مركَّبة، ولعلّ هذا سببًا وجيهًا لضنّ بعضهم بكُتبه واتخاذه موقف الرافض مِن إعارتها، لأنها -والحال كذلك- أصبحَت جزءًا من خزينة أسراره، وشاطئا تغفو عليه ذكرياتُه. ومعلوم أنّ سلطان النسيان يقهر الذكريات، ولا يُنجيها من بأسه وسلطانه إلّا صرير الأقلام والقيْد والرقْم في الصفحات.

وفي رحلته الطويلة بين جدران المكتبات وعوالم القراءة؛ كتب ألبرتو مانغويل عن تلك المتعة الإضافية قائلًا: «كم أتمتّع عندما أعثر داخل كتب مَنسية تقريبا على آثار قراءات تعود إلى سنوات عديدة مضت: خرْبشات على حافة

الكتاب، بطاقات سيارات نقل الركاب، قصاصات عليها أسماء وأعداد غريبة. وفي بعض الأحيان كتابة المكان والتاريخ على غلاف كتاب ما يُعيدني إلى مقهى معيّن، أو إلى غرفة في أحد الفنادق، أو إلى فصل صيف ولَّى منذ مدة طويلة. أنا أعرف أنّ شيئا ما يموت في داخلي عندما أستغني عن كتبي، وأنّ ذكرياتي تعود إليّ دوما وأبدا وتصيبني بحنين مؤلِم للغاية، ولقد أصبحَت حيازة هذه الكتب نفيسة على قلبي لأنني أريد حماية الماضي بكلِّ جوارحي».

وهنا تتداعى الذكريات من مسافة أربعة عقود تقريبًا، لِيتراءى لي أوّل كتاب اشتريتُه، وذلك في مرحلة الصبا، من حصيلة ثلاثين درهما غنمْتها على أثر فوزي في إحدى مسابقات مجلة ماجد الإماراتية، والتي عثرتُ عليها قدرا في يد أحد الزملاء المتابعين لها والشغوفين بها، وكَم كان الرجل كريما إذْ أعطاني الكوبون المرفَق واقترح عليّ المشاركة. وقد عادَت الثلاثين درهما ثلاثمائة وأكثر إلى مجلة ماجد، حيث تعلَّق بها أولادي ردْحا من الزمن، فواظبوا على شرائها وقراءتها. ومع أنّي لا أذكر عنوان -بضم العين أو كسرها فكلاهما يصحّ- الكتاب، ولا أعلم مصيره بعد أن انتقلْنا من بيت إلى بيت، فإنني لا

أنسى الفرحة الغامرة بالفوز والجائزة والكتاب، ولكنّي -للأمانة- لم أُولم على طريقة الكاتب علي أحمد باكثير الذي أقام وليمة في حضرموت، ابتهاجا بوصول ديوان للشاعر حافظ إبراهيم، كان قد أرسل في طلبه مِن القاهرة! أمّا قبل ذلك الحدَث؛ ولِضيق ذات اليد، وندرة الكُتب، وغياب النماذج الثقافية في البيئة الريفية التي كنت أقطنها؛ فقد كانت الاستعارة هي طريقي الوحيد للقراءة، ويشهد على ذلك جارُنا الكريم الذي اعتاد أن أصدِّع رأسه باستعارتي لقصة الإسراء والمعراج في السابع والعشرين مِن رجب كلّ عام.

أمّا بخصوص المجلّات والجرائد؛ فأتذكّر في مرحلة لاحقة من العمر، ترقّبي لمجلة اللواء الإسلامي ذات الورق الملوّن المميّز، والتي حازت اهتمامي لاحتوائها على ملحق خواطر العلّامة محمد متولي الشعراوي حول القرآن الكريم. كما أتذكّر مواظبتي على مجلّة الشباب وعلوم المستقبل، ومجلّات التوحيد والمختار الإسلامي والوعي الإسلامي والعربي والأمّة، بينما اقتصرَت متابعتي للجرائد على العدد الأسبوعي لجريدة الأهرام في كلّ جمعة، وذلك عبر بائع الجرائد الرشيق (العمّ محمّد)، بدراجته العتيقة ذات الصندوق الخلفي المليء

بعشرات الجرائد والمجلّات، والتي مثّلت آنذاك فتحا واسعا لقرّاء الجرائد في قريتي (كفر الروك) والقرى المجاورة.

وعلى قاعدة مَن لا يشكر الناسَ لا يشكر الله، أذكر هنا، وأشكر، مشروع مكتبة الأسرة الذي تبنّتْه السّلطة ممثَّلة في الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.. ذلك المشروع الثقافي الحضاري؛ الذي وُلد مع مطلع تسعينات القرن الماضي واستمرّ نحو عشرين عاما، وقدَّم فيه الكتابَ على أنّه خدمة لا سلعة، فطَبع ملايين الكتب لمئات العناوين، منها موسوعات كموسوعة قصة الحضارة وأعمال كاملة لبعض الأدباء والمبدعين، وذلك بأسعار زهيدة مكَّنت البسطاء أمثالي من اقتناء عشرات الكتب، بعد أن كان يسيل لعابُنا ويحترق فؤادُنا لَمرأى كتب تَعجز جيوبُنا عن اقتنائها أو مجرد التفكير في شرائها. ولهذا أشادت به منظمة اليونسكو في حينه، ودعَت إلى تعميمه كمشروع ثقافي رائد جدير بالاستنساخ والاحتذاء.

١٨- زاد الدُّعاة

الدُّعاة إلى الله ملح الأمّة ودواؤها، فهم القادة الميامين وحماة العرين وربّان السفين، ويكفيهم قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(١)]، ومَن أراد أن يلحق بهذا الركب المبارَك فعليه أن يتوكّل على الله ويُدمن القراءة؛ فيترصّد معارض الكتب ويرقب جديدها ويتهيّأ لها كأنها يوم عيد. ويَعرف طريق المكتبات فيغبّر قدميه بتراب دروبها، ويألَف مقاعدَها، ويلتهم رفوفَها، ويأنَس بها كأنها جزء من بيته. ثمّ يُهيّأ لنفسه مكتبة منزليّة، يزوّدها بأُمّات الكتب التي لا غنى عنها في تشكيل الوعي وفهم الكون. وهو ما نبَّه عليه شيخ دعاة القرن العشرين (الشيخ محمد الغزالي)؛ فدعا إلى العِلم قبل العمل والتأهُّل قبل التصدُّر، بقوله: «للقراءة أهمية خاصة لكلِّ مَن يدعو إلى الله، بل هي الخلفيّة القويّة التي يجب أن تكون وراء

---

(١) سورة فصّلت الآية :(٣٣).

الفقيه والداعية، وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة تهمة خطيرة للمتحدِّثين في شئون الدِّين، وكثيرًا ما يكون قصور الدعاة راجع إلى فقرهم الثقافي؛ فالفقر الثقافي للعالِمِ الدِّيني أشدّ خطورة من فقر الدم عند المريض وضعاف الأجسام».

وكذلك اشترطه الداعية محمد أحمد الراشد في كلِّ مَن يتصدّى للدعوة وينشد المعالي بقوله: «إنّي لأعجب مِن دعاة الإسلام الذين أراهم اليوم؛ كيف يجرؤ أحدُهم على إطالة العنق في المجالس، والنشْر في الصحف، قبل أن يجمع شيئا من البيان الذي جمعه الطبري في (تأويل آي القرآن)، وقبل أن يرفع له راية مع ابن حجر في (فتْحه)، ولم ينل بعد مِن رفق (أمّ) الشافعي وحنانها، ولا كان له انبساط مع السرخسي في (مبسوطه)، أو موافقة للشاطبي في (موافقاته)؟ وكيف يسرع داعيةٌ إلى ذلك، وهو لم يُكثر مِن مطالعة الأدب العربي القديم، ولم يَعكف مع الجاحظ وأبي حيان، أو ابن قتيبة وأديبَي[١] أصبهان؟».

والحقّ أنَّ القراءة تَمنّ بعطاياها الوفيرة على كلّ داعية يسلك دربها ؛ إذْ تبسط لسانَه وتُجوّد بيانَه وتُغذِّي قريحتَه وتنمِّي معارفَه وتُوسّع مداركَه، كما تمدّه بحصيلة من القصص والحِكم التي تطرب لها الأسماع وتميل إليها النفوس

(١) يَقصد الراغب صاحب المفردات، وأبا الفرج صاحب الأغاني.

وتخشع بها القلوب، وتضع يده على مفاتيح الثقافات الستّ اللازمة لكلّ داعية؛ وهي الثقافة الدّينية، واللغوية، والتاريخية، والعِلمية، والإنسانية، والواقعية، فضلًا عن أنها تحمي الدعوة من الآفات التي تفتك ببعض الدّعاة؛ مثل المبالغة، واحتكار الصواب، والعاطفيّة المتطرّفة، وضعف التخطيط والإدارة، والصحراوية الروحيّة، والتعميم الظالم، والتعالي، وغيرها ممّا عدّدها وفصّلها الشيخ ناصر الغامدي في كتابه (زغل الدعاة).

ولعلّنا نتذكّر ما قاله الداعية المناظِر أحمد ديدات عن كتاب (إظهار الحق) للعلّامة الهندي رحمت الله، مِن أنَّه بفضل هذا الكتاب تغيَّرت حياتُه تماما، وأنَّ كلَّ ما قام به في مجال الدعوة يعود إلى هذا الكتاب. كما نذكر ما نقله عبد الكريم بكّار عن أحد الدّعاة الماليزيين، وكيف أنه قرأ نحوا مِن مئتَي كتاب حول الثقافة الصينية؛ حتى يكوِّن خلفية وافية تُمكِّنه مِن دعوة الصينيّين إلى الإسلام بنجاح. وما صاحب الظلال (سيد قطب) عنّا ببعيد، حيث ذكر أنه كان يقتِّر على نفسه في المعيشة كي يستطيع شراء ما يحتاج إليه من كتب، ولو خُيِّر بين شراء جورب عوضا عن جوربه المثقوب وبين شراء كتاب، لفضّل شراء الكتاب!

ومعلوم أنَّ الداعية يعمل على صرف أنظار الناس وعقولهم إلى عقيدة تفيدهم أو مصلحة تنفعهم، وهو دون المفكِّر الذي ينتج الأفكار والنظريات المعرفية، ودون المصلح الذي يتفوّق في سعة الأفق وميدان الحركة، ودون العالِم الذي يَطول باعُه في معرفة الأحكام الشرعيّة.. وهذا ما يُحتِّم عليه الاقتراب مِن هؤلاء السابقين المبرَّزين، والاطلاع على ما أنتجوه مِن فكر وعِلم.

ثمّ إنَّ الداعية يحمل بين يديه رسالة دين شامل، ويخاطب كلَّ شرائح المجتمع بمستوياتها الثقافية المتفاوتة وميولها النفسية المتعدِّدة، ويستعين على ذلك بوسائل دعوية شتّى، ويرفع شعار: قل هاتوا برهانكم؛ بما يعني أنَّ عليه الإلمام بعلوم النقْل والعقْل، والاطلاع على كُتب علم النفس والاجتماع والفلسفة والتربية والأخلاق، والتضلّع من كتب الأدب وفنون البيان؛ ليكون بذلك أهلا وكفؤا للمهمّة الجليلة التي نِيط بها، وإلّا ضَرَّ مِن حيث يريد النفْع، وأَفسد مِن حيث يريد الإصلاح، وجرح مِن حيث يريد الدواء. وكان بذلك في عداد الأدعياء لا الدّعاة؛ إذْ أقدم على السباحة في غير ماء، والتحليق بغير جناح، والنِّزال بغير عدّة ولا عتاد.

١٩- اقْرأ تُؤجَر

يقول ربُّ العزّة والجلال: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾[(١)]، ولأنّ القراءة سعْي؛ فإنَّ المشارب فيها تتعدّد، والسّعي فيها يتفاوت؛ فهنا مَن أَضجرتْه نفسُه ويقرأ لكي يفتَكَّ منها ولو لبعض الوقت، ومَن يُواجه محنة أو أزمة ويبحث عن مخرج، ومَن ينتابه إحساس بالنقص فيتخّذ من القراءة أداة للتعويض ووسيلة لإثارة انتباه مَن أهملوه ووضعوه على رفّ التجاهل. وهناك مَن ينتمي بصدق إلى العالَم حوله، ويقرأ ليتشمّم أخباره. وهنالك مَن يعي رسالته في الحياة، ويقرأ ليمسك بزمامها ويؤدّيها على الوجْه الأتمّ والأكْمل.

وعلى الرغم مِن وجاهة هذه الأسباب جميعها، إلّا أنّ خير القراءة ما ابتغَت رضا الله ورامَت النفْع الذاتي والمجتمَعي. وبقدر تعدُّد الدوافع القرائية تزيد الحماسة، وبمقدار سموّ الغاية يزداد الأجر وتتضاعف المثوبة، ولنتذكَّر

(١) سورة الليل الآية: (٤).

هنا مقولة عالِم الحرميْن (ابن باز) رحمه الله، والذي ارتفع فيها بالقراءة إلى مرتبة النعيم قائلًا: «حُبّ القراءة مِن النّعيم المُعجَّل للمؤمن في الدنيا».

ومعروفٌ أنّ القراءة ليست مسْحًا بصريًا للأوراق؛ ولكنها عمل نغلق بها على أنفسنا الأبواب وننفق فيها الساعات الطوال ونُطلِّق مِن أجلها صنوف المَلذّات، ومِن الخسران المبين أن لا نجد لهذه الساعات التي تُقتطَع من أعمارنا، رصيدا في ميزان الحسنات ونورا لنا على الصراط. بينما الفوز كلّ الفوز في احتساب هذه الساعات؛ فنحرص أشدّ الحرص على أن تثقّل موازيننا، وأن تكون يوم القيامة في يُمننا لا يُسرانا والعياذ بالله. وهو ما عناه علي أبو الحسن حين تحدّث عن القارئ الروحاني، وخطّ خطّة نورانية للقراءة بقوله: «تَوضّأْ قبل أن تقوم بفعل القراءة؛ فالوضوء نور.. وقبل القراءة في الكتاب؛ اقرأ خمس آيات مِن سورة العلَق بنيّة الاستفتاح بها، وضع نيّة محدَّدة مِن قراءة الكتاب واكْتبها في أوّل صفحة الكتاب، واخْتر شيئا واحدًا تريد التركيز عليه مِن الكتاب والخروج به مَعرفيّا، وعندما تقرأ أَطلِق الحريّة لخيالك أن يخلق لك مَشهديّات ومناظر تتعلّق بالمادّة المقروءة، وعند الانتهاء من قراءة كميّة معيّنة أنت تحدّدها لنفسك أو مِن الكتاب كاملا، كافئ نفسك».

وفي هذا المعنى أيضًا يقول فهد الحمود: «إذا نظرْنا في القراءة وجدْنا منها ما يكون بدافع العلم الشرعي، وهذا الاحتساب فيه ظاهر. لكن ما كان منها في غيره وهو ممّا يُنتفع به، ففي الاحتساب فيه ثمرات كثيرة؛ أحدها -وهي أهمّها- نيل الأجر والمثوبات في قراءته تلك. وثانيها؛ ما ينتج عن استصحاب الاحتساب من الدافعية نحو القراءة والمداومة عليها، والاستفادة البالغة منها. وهذه الخلّة الكريمة هي التي تدفع القارئ نحو القراءة، وتجرّه إليها جرّا، وينتج عنها ومنها الفاعلية لما يَقرأ والقابلية له».

جميلٌ إذنْ أن نتحدّى المغريات حولنا، ونسمو فوق الملهيات التي تتخطّفنا، فنعتاد فعل القراءة. ولكن الأجمل أن نكمل شوطَ التحدّي، فننحو بالقراءة من ركن التسْلية إلى التحْلية ومِن خانة العادة إلى العبادة؛ وذلك بنيّة تسبقها، وإخلاص يصحبها، ودعاء يُسدِّدها ويباركها، وصدق العزيز الحكيم إذْ يقول:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

(١) سورة الأنعام الآية :(١٦٢).

٢٠- صنْعة العظماء

القراءة تفكيكٌ لرموز شفَّرها الكاتبُ في صورة كلمات وعبارات، وتنقيبٌ عن أفكار خبّأها المؤلِّفُ تحت أجنحة الحروف وبين طيّات السطور، ونبْشٌ عن معانٍ احترم فيها الكاتبُ ذكاء القارئ فتركها ترفرف برقّة حول النصّ. وفي طريقنا إلى هذا التفكيك والتنقيب والنبْش؛ لا بدّ للقارئ أن يُعمل عقله ويُجهد فكره ويُحكِّم ضميره، وفي هذا رياضة ذهنية تنمِّي ملَكة الفكر وتنشِّط الضمير وتحرِّك ماكينة العقل. والحقّ أنَّ العلاقة بين العقل والقراءة علاقة لصيقة إلى أبعد مدى، حتى لَيمكننا القول أنّ القراءة هي العقل؛ فالعقلُ -كما قال الشيخ مصطفى السباعي- لا ينمو إلّا بثلاث: إدامة التفكير، ومطالعة كُتب المفكِّرين، واليقظة لتجارب الحياة. والقراءة في أبسط تعريفاتها، ليست إلّا عقْل الأمور الواردة إلينا، منظورةً كانت أو مسموعةً أو غيرها.

أضِف إلى هذا؛ أنّنا أثناء القراءة وبعدها، مطالَبون بمحاكمة النصّ المقروء ونقْده، ولن تكون محاكمتنا عادلة ونقْدُنا نزيها وبنّاء؛ إلّا إذا مارسْنا فعل التأمّل،

فتناولْنا الإيجابيات بعين الرضا ويد التحفيز ولسان التقدير، قبل أن نعرج على المثالب فنفنّدها وندلّل عليها، ونحن بهذا التأمّل الثاقب نُحسن إلى أنفسنا قبل أن نُحسن إلى غيرنا؛ لأننا نبذر في أعماقنا بذور الأناة، ونغرس في طبيعتنا غرْس الحكمة، ونروي في أذهاننا شجرة الوعي؛ بما يعني أنّ أشعة الوعْي وأنوار الحكمة تنفذ إلى عقولنا عبر نوافذ القراءة، والعزوف عنها هو غلق لتلك النوافذ وتفضيل للظلام على النور!.. ومعلوم أنّ الحُكم على الشيء فرع عن تصوّره، ومَن أحسن التأمّل أحسن النقد وأنصف المحاكمة، والعكس صحيح.

والحق أنّ رياضة الأذهان بالقراءة، خطوةٌ جادّة ندلف بها إلى عقر معامل العظماء، وعضلة مفتولة نُدير بها تروس مصانع الرجال. وفي هذا رُوي أنّ أعرابيًّا وقف على مكتبةٍ في دار شيخ تزاحمَت الكتبُ على جدرانه، فتعجَّب وهاله ما رأى، وهو الذي لم يشهد للمنظر مثيلا، فقال: يا شيخ، هل تحبّ أن أخبرك بما في كلّ هذه الكتب؟ فقال الشيخ: تفضّل، فقال الأعرابي: إنّها كلّها تقول: كُن رجلا جيّدا.. وبهذا؛ مَن أراد أن يكون رجلا فليقرأ، ومَن أراد أن يكون رجلا جيّدا فليصحب كتابا جيدا...ومعلوم ما في معنى الرجولة مِن عقلٍ سلم مِن الزيغ والضلال، وقلبٍ تَحرّر من ربقة الشهوات والشبهات، وروحٍ سمَت

عن الطين ولامسَت السماء، علاوة على ما بها من معاني الشجاعة والبطولة والمروءة. وهؤلاء هم فئام مِن الذين مدحهم ربُّ العزّة والجلال بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[1].

وإذا شاع على ألسنة الناس أنّ وراء كلّ عظيم امرأة، فإنَّ الشائع في سِير العظماء وتراجم الرجال؛ أنّ وراء كلّ واحد منهم جيشًا جرّارًا مِن الكتب التي أَنفق فيها أيامَه وأَعمل فيها فكرَه، ثمّ استخلص منها زيت العظمة ورحيق الرجولة، مؤكّدا بذلك على أنَّ القراءة صنعة العظماء، ومُبرهنا على أنَّ الكِتاب مصنع الرجال. وهو ما حكاه الفيلسوف والطبيب ابن سينا عن نفسه قائلًا: «كنتُ أرجع بالليل إلى داري؛ فأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة، ومهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود لي قوّتي، ثمّ أرجع إلى القراءة، ومتى أخذني أدنى نوم، أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى إنّ كثيرًا منها انفتح لي وجوهها في المنام».

(١) سورة الأحزاب الآية: (٢٣).

٢١-هزيمة الجهل

الجهل نقيض العِلم، وهو موقف عقلي سقيم ومخدِّر أفتك من الهيروين؛ وهو -كما شبّهه الصادق النيهوم- مِثل ساعة مليئة بالأوساخ تشير عقاربها عادة إلى منتصف الليل، فيما يتناول الناس إفطارهم في الصباح. ومنه البسيط الذي يعني عدم الإدراك بالكلِّيّة، والمركَّب الذي يعني إدراك الشيء على غير وجهه الحقيقي. وبرغم أنّ علماءَ الاجتماع قد تعارفوا منذ قديم الزمان، على أنّ ثلاثية الجهل والفقر والمرض هي أعدى أعداء المجتمعات؛ فإنّ الجهلَ يبقى رأس الأفعى التي لا تني تنفث سمومَ الفقر والمرض، وأُمّ الرذائل التي تلد الفقر ويتناسل من رحِمها المرض، بما يعني أنّ هزيمة الجهل وحده كاف لتقليم أظافر هذه الثلاثية بل ودحْرها ونسْفها مِن جذورها، وفي ذلك تركيز للجهود واختصار للوقت وضمان لكسب المعركة، إذْ إنَّ قفلا واحدًا يَسهل كسره وعدوّا واحدًا يسلس هزيمته.

وهنا يأتي دور القراءة الجادّة؛ باعتبارها قادرة على هزيمة الجهل بالضربة القاضية، وبحسبانها الأداة الأولى التي تجرِّدنا مِن الأميّة الثقافية وتشفينا مِن الأميّة التكنولوجيّة وتنجينا من الوقوع في وحل الشبهات ومستنقع الشهوات؛ إذْ تنقلنا مِن الشكّ إلى اليقين ومِن التيه إلى الإيمان، وترشدنا إلى الكيفية الصحيحة لأداء العبادات، وتضع أيدينا على الأنماط الصحِّية السليمة التي نصون بها أبداننا، وتفتح أمامَنا الطرق المُثلى لاستيعاب التكنولوجيا واستثمار الأموال وصناعة النجاح.

كما تنزل بنا إلى معترك الحياة؛ فتعاوننا في استغلال الفرص وحلّ المشكلات، وتدفعنا إلى ارتياد المجاهيل واكتشاف الآفاق، وتغْرينا بقطف أزهار الماضي وحيازة جنّة المستقبل؛ ولذا يُعدّ مثقّف العائلة هو مرجعها وقاضيها ومُفتيها، ويُعَدّ أقرأ الناس بالقرآن أحقّهم بالإمامة في الصلاة، كما يظلّ كرسي القيادة محجوزا لَمن حاز بالقراءة عِلما وحصَّل من ورائها حكمة، فكان الألْيق بالرياسة والأجْدر بالريادة...ولهذا يعدّ الكِتاب؛ أثمن ما يمتلكه الإنسان، وخير ما أنجبتْه دنيا الحضارة، وأفضل ما يورِّثه أبٌ لأبنائه، وأجْمل هديّة يتناقلها الأحباب.

وفي ذلك قال العقّاد: «الناس تقرأ لتتعلّم، أمّا أنا فأقرأ لكي أكتشف جهلي، فمتى اكتشف الإنسانُ جهلَه، تجاوزَه إلى العِلم». وكان من وصايا الوزير (المهلّب) لبنيه، وحرصا منه على تجنيبهم الجهل وتربيتهم على البطولة؛ قوله: «إذا وقفْتم في الأسواق، فلا تقفوا إلّا على مَن يبيع السلاح أو يبيع الكتب». وكذلك كانت دعوة رفاعة الطهطاوي حين سافر على رأس بعثة إلى فرنسا، ومكث هناك خمس سنوات لالتماس سبل النهضة أيام رأس الدولة العلوية (محمد علي)، إذْ أدرك أنّ الثقافة والعلم رأس مال النهضة وزورقها، فقال: «لكلّ إنسان من العلماء أو الطلبة أو الأغنياء خزانة من الكتب، ويندر وجود إنسان بباريس من غير أن يكون تحت ملكه شيء من الكتب». وفي هذا إشارة إلى أنَّ الجهلَ للعقل عورة لا يسترها إلّا قميص الكتاب، وعتمة لا يُنيرها إلّا مصباح القراءة، ووثاق لا يكسره إلّا إزميل الثقافة.

وقد طعن المغرِضون في نورانيّة الفتح الإسلامي لمصر، وأشاعوا أنهم أحرقوا مكتبة الاسكندرية، في إشارة ضمنية إلى وصمهم بالبربرية والجهالة، وهو محْض كذب وافتراء، ردّ عليه المنصفون مِن غير ملّة الإسلام، ومنهم

الزعيم الهندي جواهر لال نهرو الذي كتب قائلًا: « أُشيع أنَّ العرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية، ولكن المعتقَد أنّ هذا محض اختلاق، إذْ إنّ للكتب عند العرب احتراما كبيرا يمنعهم أن يسلكوا هذا المسلك البربري. ويُحتمَل أن يكون الروماني ثيودوسيوس، امبراطور القسطنطينية آنذاك، هو المسؤول عن هذا الخراب أو جزء منه، لأنه لم يكن راضيا عن الكتب الوثنية الإغريقية القديمة التي كانت تتضمّن الأساطير والفلسفة اليونانية. خاصة أنّ جزءا من المكتبة قد أُحرق أيضًا قبل ذلك بزمن طويل، إبّان حصار يوليوس قيصر للإسكندرية».

٢٢-أمْر إلهيّ

حين نطالع أوّل تباشير الوحي الإلهي (اقرأ) نجده أمرا صريحا بالقراءة، وحين نقرأ مطلع أطول سور القرآن (البقرة) نجد أنّ الربّ جلّ وعلا سمَّى القرآن كتابا (ذلك الكتاب)؛ وفي هذا تشريف للكتاب وتكليف بالقراءة، وإذا جاز تنزيل لفظَي القراءة والكتاب الوارديْن في كتاب الله، على الكُتب كافّة وعلى القراءة بوجه عام، عمَلا بالقاعدة التي تقول بأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإنّ قراءة كتاب الله العزيز تبقى مقدَّمة على ما سواها، ومِن الظلم البيِّن أن نتحدّث عن القراءة والكتاب ونُدبِّج في حبِّهما الكُتب والرسائل والمطويّات؛ ولا نُشير إلى وجوب قراءة القرآن والاعتناء به تلاوة وحفظا وتفسيرًا وتطبيقًا، أو لا نحضّ على الانضمام إلى القافلة المبارَكة التي تضم اللفيف الطيِّب مِن أهل القرآن وخاصته.

وأهلَ القرآن -كما قال سلمان السنيدي- هم الذين وجدوا في القرآن شفاء قلوبهم ودواء نفوسهم ومنهل عقولهم، فلا إلى غيره يَرِدون، ولا مِن سواه يَأخذون، ولا بدونه يَنعمون، ولا بقراءته يَسأمون؛ بل بلذيذ خطابه يفرحون، وبنفحاته ينعمون. فهو قرّة قلوبهم، وريّ ظمئهم، فلا يذكرون حين التلذّذ به تعبا، ولا يستثقلون بعده عبادة، ولا يجدون في قلوبهم بعده حرج من تكليف ولا تسخُّط مِن بلاء.

وإن شئت على هؤلاء مثَلا، فخُذ سيدنا أبيّ ابن كعب الذي وصفه النبي ﷺ بأنّه أقرأُ أمَّة الإسلام لكتاب الله. وإليك شريح الحضرمي الذي مدحه النبي ﷺ بقوله «**ذاك رجل لا يتوسَّد القرآن**»؛ أي لا يضع رأسه على الوسادة إلّا بعد أن يفرغ مِن قراءة حزبه اليومي من القرآن.

ولأنّ صلاحَ القلب سبيل صلاح الجسد، وعلى سعادته تتوقّف سعادة الإنسان؛ فإنّ نصيبَه مِن فيوضات القرآن نصيبٌ وافر، وحظّه من أنوار تلاوته حظٌّ عظيم؛ فهو الأُنس لوحشتِه، والأمْن لخوفه، والسكينة لقلقه، والهُدى لحيرته، والغنى لفاقته، والشفاء لمرضه.

ولا يظنَّنّ ظانٌّ أنّ القرآن كتاب عقائد وعبادات فحسب، أو أنه طريق لكسب الحسنات ونيل البركات والفوز بنعيم الآخرة فقط، بل هو دستور الحياة الخالد، الذي يُشرِّع الأحكام ويَقود الحياة ويُسيِّر الأكوان، بمعنى أنّه عقيدة وشريعة، وعبادات ومعاملات، ودنيا وآخرة؛ وفي ذلك سرّ خلوده وقوّة عظمته...وإذا كان رونالد ريجان قد احتفى بكتابه المُحرَّف قائلًا :»إنَّ في الكِتاب المقدَّس حلّ لكلّ مشاكل أمريكا»، فما بالك بكتاب تكفّل الله بحفظه «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، وجعله خاتم الرسالات، وامتاز بكونه كلام الله الميسَّر المعجِز الشامل الخالِد!

ولكي ندرك مدى حاجتنا إلى الاستمساك بالقرآن؛ علينا أن نعود إلى عام ١٨٩٥م، حين وقف وزير المستعمرات البريطانية (غلادستون) بين زملائه في مجلس الوزراء، وقد أمسك بيده قرآنا يلوِّح إليهم به قائلًا: «لن تُحقِّق بريطانيا شيئا من غاياتها في العرب والمسلمين إلّا بسلبهم سلطان هذا الكتاب أوّلا، أخرِجوا سرّ هذا الكتاب ممّا بينهم، تتحطّم أمامكم جميع السدود»...وفي هذا صدَق وهو حَقود كَذوب، فكم مِن حقٍّ يُجريه الله على لسان عدوّك لتنتبه مِن غفلتك وتتيقّظ من رقدتك.

ومِن لطيف البيان أن ننتبه إلى أنّ القراءة في أمرها الإلهي تكليف عام ومطلَق ولكنّها مخصَّصة ومقيَّدة بأن تكون باسم الله، واسم الله دلالة على تحرِّي الخير فيما نقرأ وابتغاء النفْع مِن وراء ما نقرأ.

المفتاح الثاني:

كيف نقرأ ؟

ن والقلم وما يسطرون

١ – من المَهد نبدأ

لا يَخفى على كلّ لبيب ما للأبناء من حقوق على الوالديْن، باعتبارهما -الوالد والوالدة- راعِييْن مسؤوليْن عن رعيّتهما. وأحد هذه الحقوق الفريدة في النوع والعظيمة في الفائدة، أن يزرعا في روْع أولادهما حبّ القراءة،

بحسبانها صفة لا تُورَّث على متن الجينات والكروموسومات، وباعتبارها فِعلا لا يتسلّل عبر الدماء والأرحام. وهو ما ينبغي غرسه مع نعومة الأظفار، ووسط الحالة السائلة التي يكون عليها الطفل في مراحله الأوليّة، خاصة السنوات الستّ الأولى الفاصلة في تكوين الشخصية واكتساب العادات، والتي قيل إنّ ٨٠٪ من الخطوط العميقة في شخصية الطفل تُرسم في تلك السنوات. وذلك عن طريق القراءة للطفل، واصطحابه إلى المكتبات، وإهدائه الكتب والتحدّث

عنها وإشراكه في النقاش حولها، مع توفير مكتبة منزلية نَخرج بها من التصنيف المُوجع الذي قال فيه الشاعر مظفّر النوّاب: «بيت بلا مكتبة، صحراء قاحلة يسكنها بدو جُهّل».

وهنا يأتي دور المدرسة باعتبار دورها التربوي الرائد بعد الأسرة، فتعمل على امتلاك مكتبة شاملة مزوَّدة بالوسائل السمعية والبصرية وتقنيات الإنترنت، وتبذل قصارى جهدها في تشجيع الطلّاب على ارتياد تلك المكتبات التي تهدم الحاجز بينهم وبين الكتاب، وتوفِّر فرصة ثمينة لاكتشاف المواهب وتنميتها وصقلها، وتوطّد العلاقة الثقافية بين الطلّاب بعضهم بعضا. مع الحرص على إقامة مسابقات تحثّهم على قراءة الكتب وتلخيصها، وتُدرّبهم على إعداد الأبحاث والدراسات. ولن تؤتي تلك الجهود أكُلها إلّا إذا صاحبها منهج دراسي يخلو من الحشو والتلقين، ويشجِّع على التعلُّم الذاتي والقراءة الحرّة، وذلك على يد معلّم قارئ، لا معلِّم موظَّف صدئت معارفُه وانبتّت صلتُه بالكتاب فور تخرّجه!

ولعلّ بعضنا قد تناهى إلى علمه مبادرة التحدّي العربي للقراءة التي انطلقت شرارتها في عام ٢٠١٥م برعاية إماراتية، بغرض إشاعة روح القراءة بين طلّاب المدارس في مستوياتها الثلاث الابتدائية والإعدادية والثانوية، خصوصا بعدما

تصدّرتْها هذا العام (٢٠١٨ م) ابنة التسع سنوات وطالبة الصف الرابع الابتدائي، المغربية مريم أمجون، والتي قرأت مئتي كتاب في عامها المنصرم، وتقدّمت إلى المسابقة بستين كتابًا، مع أنّ المسابقة تشترط قراءة خمسين كتابا لا غير. ولهذا فازت بالتحدّي، واستحقّت لقب البطولة، ومُنحت جائزة مالية قدرها ٣١٦ ألف دولار، وحظيت بتقدير بالغ على المستويين الرسمي والشعبي.

ولو تجوّلنا بين نشأة الكبار في عالم الثقافة والفكر والأدب؛ لَما وجدنا إلّا بيئة أسرية قارئة دفعَت بأولادها إلى القراءة في عمر الزهور، ولَعثرْنا على مكتبة منزلية عامرة كانت المَعين الأول الذي غرفوا منه ودرجوا على يديه، وهو ما سرده الروائي الطبيب أمير تاج السرّ بقوله: «كان جزءا من التربية لدى والدي، أن نقرأ كتابا كلّ أسبوع، أي حوالي خمسين كتابا في العام، وكان هذا قانونا صارما نشأنا عليه، وشارك في فرضه صاحب مكتبة في سوق المدينة بها كلّ ما يَصدر من كُتب داخل البلاد وخارجها». وكذلك الكاتب التركي أورهان باموق الذي تحدَّث عن مكتبة أبيه قائلًا: «كان أبي لديه مكتبة جيّدة –ألفا وخمسمائة كتاب– أكثر ممّا يكفي لكاتب، وكان ينظر إليها بتقدير بالغ، وكنت أنظر إليها عن بُعد وأتخيّل أنه في يوم ما في بيت آخر سوف أبني مكتبتي الخاصة». أمّا الكاتب الأمريكي هنري ميللر فحكى عن بداياته

الأولى مع القراءة قائلًا: «عرفتُ القراءة مبكّرا، وقبل أن ألتحق بالمدرسة؛ فبدأتُ بتهجية عناوين الصحف، ثم انتقلتُ إلى قراءة الحروف الدقيقة، وفي أعياد الميلاد من كلّ سنة؛ كنت أعطي أبي وأمّي قائمة بالكتب التي أريدها، وعندما أنزل من غرفتي في صباح عيد الميلاد؛ أجد رزمة الكتب تنتظرني تحت شجرة عيد الميلاد، فأتقرفص وأشرع في قراءتها دون انتظار، وأنا بَعد في قميص نومي أرتعد من البرد».

والواقع أنّ ما تفعله الأسرة والمدرسة في الطفل، لا يعدو إشعال الفتيل وإثارة الرغبة، لأنَّ القراءة فعل ذاتي يخلو مِن أية شبهة تحمل في طياتها معنى الإجبار أو الإكراه، وهو ما أكّد عليه دانيال بناك بقوله: «نهتمّ كثيرًا بالبحث عن أفضل الطرق لتعليم الطفل القراءة؛ ونخترع مكاتب وخرائط، ونحوّل غرفة الطفل إلى ورشة طباعة...كم هذا مثير للشفقة! إذْ إنّ هناك وسيلة أنجع من كلّ هذا، وغالبا ما ننساها، وهي الرغبة في التعلُّم. امنحوا الطفل هذه الرغبة وتخلّوا آنذاك عن مكاتبكم...ومهما كان منهج التعليم المتَّبع عندها، فسوف يناسبه».

٢-الآلة والآليّة

لا يُعقَل أن نقرأ ولا نعرف كيف نقرأ! ولا يُعقل أيضًا أن نتحدّث عن كيفية القراءة ولا نعرف كيف تعمل آلة القراءة الأولى وهي العين! تلك الكرة الزجاجية التي تتصدّر الوجه في أعلى البدن، وتُحرِّكها ستُّ عضلات تدور بها في كلّ اتجاه، وتعمل بشكل مشابه للكاميرا الفوتوغرافية ولكن بسرعة خيالية تفوق أحدث الكاميرات. وفيها يدخل الضوء إلى العين عن طريق البؤبؤ، ليصل إلى العدسة، وبعدها تقوم العدسة بتجميع أشعة الضوء وتركيزها على شبكية العين.

هذه الشبكية التي تضم مئات الملايين من خلايا صغيرة حسّاسة للإضاءة تنقسم إلى نوعيْن: النوع الأول هو (المَخاريط) المسئولة عن تمييز الألوان، وتُستعمل في الرؤية النهارية أو في حال توفّر الإضاءة الكافية. والنوع الثاني هو (العصيّ) المسئولة عن تمييز شدّة الإضاءة، وتُستخدم في الرؤية الليلية أو عند عدم توفّر الإضاءة الكافية. ويرتبط هذان النوعان من الخلايا مع شبكة من الأعصاب تنتشر على سطح شبكية العين، حيث تتجمّع بعدها في العصب

البصري، والذي ينقل المعلومات إلى المنطقة البصرية المسؤولة عن الرؤية في الدماغ.

ولتلك الأهمية البالغة للعين في القراءة، والتي وصف نجيب محفوظ فقْدها بالنكبة الكبيرة، حين قال بأنّ أكبر هزيمة تلقّاها في حياته كانت حين حُرم من متعة القراءة بسبب ضعف بصره؛ فإنّ الحفاظ على العين وسلامتها يجب أن يحتلّ أولوية قصوى مِن كلّ قارئ، وذلك عبر ارتداء نظارات متخصِّصة فيمَن يقرؤون لفترات طويلة في الشاشات، والجلوس على مسافة مناسبة لا تقلّ عن ثلاثة أضعاف قطر الشاشة المستخدَمة في القراءة. مع مراعاة توفّر إضاءة مناسبة غير مباشرة، وتقديم الإضاءة النهارية على الليليّة، وتَجنُّب القراءة من الشاشات وسط الظلام، ووضع الكتاب في مواجهة الوجه وعلى بعد نحو أربعين سنتيمترا، وبحيث تكون الحافة العليا للكتاب في مستوى العينيْن. ويُراعَى إراحة العينيْن مِن آن لآخر، بتحويل البصر عن الكتاب المقروء، وإلقاء نظرة على صفحة السماء أو عرض الطريق أو أي شيء عن بعد، لِما في ذلك من حماية لعضلات العين من الإجهاد وإعطائها فرصة لاستعادة نشاطها من جديد. مع العلم أنَّ المرء

-كما ذكر أحد الباحثين- يمكنه أن يقرأ ست ساعات متواصلة قبل أن يُصاب بالإرهاق البصري والجسماني، وأظنّه هنا يَقصد القراءة الورقية لا الإلكترونية.

وكما أنّ الإنسان لكي يستفيد من طعامه؛ يُجري عليه خطوات مرحليّة متسلسلة يُسلم بعضها إلى بعض، بغية الوصول إلى منتَج صالح تستخدمه الخلايا في توليد الطاقة وتسيير عجلة النشاط والحركة، تبدأ بالمضغ وتمرّ بالهضم ثمّ الامتصاص وصولا إلى الاستقلاب. فإنّ القراءة التي هي غذاء العقل والروح، لا بدّ لها أيضًا مِن آليّة تقوم على مضغها وهضمها وامتصاصها واستقلابها، لتفعل بعد ذلك فعلها المأمول في النهوض بالأفراد والمجتمعات والأمم. فالقراءة تمدّنا بالقمح، ولكن العقل هو مَن يدير الرحى ليُحيل هذا القمح إلى دقيقٍ يَصلح لصناعة خبز يسدّ رمق الجوع المعرفي، وبالطبع كلّما كان القمح جيّدا كان الدقيق جيّدا وكان الخبز شهيّا وصحيّا.

وقد لخّص بيتر شيفرد المراحل التي ينتظمها فعل القراءة انتظام الحبّات في العقد، وحصَرها في سبع عمليات أساسية تبدأ بالتمييز؛ وهو معرفة القارئ للرموز الأبجدية. ثم الاستيعاب؛ وهو العملية الطبيعية للفهم. ثم التكامل

الداخلي؛ وهو الفهم الأساسي المستخلَص من المادّة المقروءة، معتمِدا بشكل ضئيل على الخبرات السابقة، والتي ليس لها علاقة بالقواعد والمفردات اللغوية. ثم التكامل الخارجي؛ وهو التحليل والنقد والتقدير والاختيار والرفض، وهذه كلها نشاطات تتطلب من القارئ الرجوع إلى التجارب والخبرات السابقة. ثمّ الاحتفاظ؛ وهو القدرة على تخزين المعلومات في الذاكرة. ثمّ الاستدعاء؛ وهو القدرة على استدعاء المعلومات من الذاكرة. وأخيرا الاتصال؛ وهذا يمثّل تطبيق المعلومات في أيٍّ من صورها الأربع: الاتصال المكتوب، أو الاتصال المنطوق، أو الاتصال من خلال الرسم والتلاعب بالأشكال والأجسام، أو التفكير الذي هو نوع من الاتصال مع النفس.

والواقع أنّ العينَ وإن تصدَّقت علينا وأعانتْنا على القراءة، فإنّ القراءة بذاتها تمنحنا عينا ثالثة بخلاف العينيْن اللتان تتصدّران أعلى الوجه، وتلك هي البصيرة التي ترى ما لا تراه العين؛ فتُطلعنا على حقائق الأشياء لا ظواهرها، وتلِج بنا إلى أعماقها لا سطوحها، وتنفذ بنا إلى قابل الأيام لا حاضرها.

٣- الصمْت أم الجهْر؟

في تقنيّة القراءة يفترق الناس إلى فرق ثلاث؛ فمنهم القارئ السَّماعي الذي يقرأ قراءة جهْرية، وهو في ذلك مُنفِّذ أمين لوصية الإمام أبي حامد الغزالي الذي دأب على نصح أصحابه قائلًا: «إذا درسْتم فارْفعوا أصواتكم؛ فإنّه أثْبت للحفظ، وأذْهب للنوم»، ومنهم مَن لا يرفع صوته لكنه يحرِّك لسانه وبالتالي شفتيْه ويُسمَّى القارئ الآلي، ومنهم القارئ البصري الذي لا يتكلَّم ولا يُحرّك شفتيْه لكنه صامت متبتِّل ينظر ويفكّر، وهذا هو الغالب الأعمّ في القراءة الحرّة التي نحن بصددها.

والواقع أنّ لكلِّ ضرب من الضروب الثلاثة مزاياه ومثالبه؛ فالقراءة الصامتة -بتحريك الشفتيْن أو بدون- وإن كانت تختصر وقت القراءة، وتتلاءم مع جوّ الهدوء المطلوب لفعل القراءة، ولا تُزعج مَن في الجوار، وتقينا الإعياء والإرهاق، وتعطي للتركيز مساحة أوسع، وتمنحنا الخصوصية.. فإنها في الوقت نفسه، تُعيق قدرة الشخص على التواصل الاجتماعي، وتُورثه الخجل

عند التحدُّث أمام الآخرين، كما تحرمه من فرصة تدريب اللسان على النطق السليم، علاوة على أنها أكثر عرضة للتشويش. بينما القراءة الجهرية التي يعلو فيها الصوت؛ وإنْ كانت تُكسِب الجرأة، وتُحقِّق الذات، وتُقوِّم اللسان، وتنمِّي روح الجماعة، وتثبِّت المعلومة.. لكنّها بالمقابل تستنزف وقتا أطولا، وتتطلّب جهدا أكبر، وتزعج الغير، وتخصم من رصيد التركيز.

وبرغم شيوع القراءة الصامتة التي صارت عقيدة العصر وإيقاعه المفضَّل، حيث تبلغ سرعة القراءة بها ٣-٧ أضعاف القراءة الجهرية، وتنطلق فيها الكلمات كالسهم مِن بؤبؤ العين إلى قشرة المخ؛ إلَّا أنَّ المهتمِّين بتاريخ القراءة يَذكرون أنّ القراءة بدأت كفعل اجتماعي جهري، وذلك لقلّة القرّاء ونُدرة الكِتاب آنذاك، وأنها ما لبثت أن صمتَت مع اختراع الكتابة، وبزوغ عصر النهضة، وانتشار التعليم، وتمدُّن البشَر، والنزوع نحو الفردية والخصوصية. وإن كان دانيال بناك لا يعترف بهذا كلّه ولا يتوقّف عن بثّ أشواقه للقراءة الجهرية قائلًا: «إنّه لأمر غريب اختفاء القراءة بصوت عال؛ هل انتهت إمكانية تذوّق طعم الكلمات في

الفم قبل حشو الرأس بها؟ هل انتهى دور الأذن؟ هل انتهت الموسيقى؟ ألم يعد هناك لعاب؟ إنّ فهم النص يمرّ عبر صدى الكلمات التي يتحدّر منه معناها».

ومع التأكيد على أنّ قراءة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة لا بدّ فيها من تحريك اللسان؛ فإنّ فعل القراءة بنوعيْها الصامتة و الجهْرية، يبقى مرهونا بتجنُّب آفة الشّرود التي تَنجم عن انشغال النظر وتَشتُّت الذهن، وتَسبّب في نسف التركيز الذي يمثّل نصف الفهم إن لم يكن الفهم كلّه. ومعلوم أنّ قراءة بلا فهم كصلاة بلا وضوء وحجّ بلا إحرام.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هاجس النسيان الذي ينتاب البعض، يجب أن لا يثبّطنا عن المضيّ في التهام المزيد من الكتب؛ فالذاكرة لا تخون، ولكلّ كلمة نقرأها منفذ تعبّر عن نفسها فيه دون أن ندري. وهو ما أكّدت عليه كاتبة تايوان الأولى (سان ماو) بقولها: «أكثرتُ من قراءة الكتب فتغيّرَت ملامحي بشكل طبيعي، في كثير من الأوقات يتراءى لي أنّ الكتب الكثيرة التي قرأتها تحوّلَت إلى غيمة عابرة لا أتذكّرها مرّة أخرى، ولكن في الحقيقة هي مازالت كامنة في طباعي وأسلوب

كلامي واتساع آفاقي، وبالطبع يمكنها أن تظهر أيضًا في حياتي وكلماتي». أمّا الشيخ سلمان العودة فقد أسرَّ إلى شيخه بهذا الهاجس قائلًا: «قلتُ مرّة لشيخي: قرأتُ الكِتاب ولم يَعلق منه شيء بذاكرتي؟ فمدّ لي تمرة، وقال امضغها، ثمّ سألني: هل كبرتَ الآن؟ قلت: لا، فقال: ولكن هذه التمرة تقسّمت في جسدك فصارت لحما وعظما وعصبا وجلدا وشعرا وظفرا وخلايا، وحينها أدركت أنّ كتابا أقرؤه، يتقسّم، فيعزِّز لغتي ويزيد معرفتي ويهذب أخلاقي ويرقّي أسلوبي في الكتابة والحديث، ولو لم أشعر».

٤- الشاشة أم الورق؟

شئنا أَم أبيْنا أصبحت القراءة الإلكترونية عبر شاشات السيليكون واقعا وجب على الجميع التأقلم معه والأنس به؛ وذلك بعد أن بزغ فجرها في ثمانينيات القرن الماضي، أي قبل أقلّ من أربعة عقود. وفي هذا قد تتفاوت الأمزجة، وتتدّخل

الضرورة، إلّا أنّ الحتمية التاريخية التي تصنعها تكنولوجيا العصر ستتغلّب في النهاية؛ خاصة مع الأجيال الجديدة التي ألفت تلك الشاشات في سنّ الرضاعة، وداعبتْها بأناملها وهي بعد في سنّ الفطام. بل إنَّ بعضَهم يتنبّأ بمستقبل ليس ببعيد تصبح فيه الأوراق نسْيا منْسيا، وتنضمّ إلى سابقتها من رقاع الجلود وسعف النخيل ولفائف البردي، فتحتلّ أرفف المتاحف وزوايا التاريخ، وهو ما يعضِّده زيادة الإقبال على شراء الكتاب الإلكتروني عبر دور النشر التي تتيح

بيع النسخ الإلكترونية بأسعار زهيدة، إذْ إنّ تكلفة النشر والتوزيع الإلكتروني تقلّ كثيرًا عن النشر والتوزيع الورقي، بعد أن تمّ الاستغناء بموجبه عن الأحبار والأوراق والعمّال والوسطاء التجاريين.

وهنا يتجلّى صراع القديم والجديد، ويرمي أنصار فريقي الشاشة والورق كلٌّ بمزاياه، وتَسمع مَن يتباهى بأنه لا يقرأ إلّا في الكتب الورقية، بل وتلمس في ثنايا حديثه انتقاصا مِن شأن القراءة الإلكترونية وغمزا في متعاطيها. وعلى الشاطئ الآخر ستسمع مَن يقول بأنه يفضّل القراءة مِن الشاشة على الكتاب؛ لأنّ الكتاب يعني ورقا، والورق يعني قطع الأشجار والعدوان على الطبيعة، عدا عن تلوث البيئة الناتج عن تصنيع وإعادة تدوير الأوراق!

قد نُسلِّم بمزايا القراءة الورقيّة التي بلغت مِن العمر عتيّا، فتَجاوز عمرها الخمسة قرون، بعد انتقالنا من عصر المخطوطات إلى عصر المطبوعات على يد الألماني جوتنبرج؛ وذلك باعتبارها -أي القراءة عبر الكتاب المطبوع- لا تضعنا تحت رحمة انقطاع الكهرباء وضعف الشبكات، وبحسبانها توفّر علاقة أكثر حميمية وروحانيّة مع الكتاب، حتى تَغزَّل فيها ألبرتو مانغويل بقوله: «يشكِّل فعل القراءة علاقة حميمية وجسدية مع الكِتاب بمشاركة جميع الحواس؛ فالعين

تُجمِّع الكلمات على الصفحة، والأذن تُرجِّع صدى الكلمات المقروءة، والأنف يشمّ رائحة الورق والصمغ والحبر والورق المقوَّى أو الجلد، والأنامل تتحسّس الصفحات الناعمة أو الخشنة والتجليد الناعم أو القاسي، وحتى حاسة التذوّق تشارك في العملية عندما يرفع القارئ إلى فمه الإصبع الموجودة على الصفحة»... ولكن الفارق لا يصل إلى ما ذهب إليه حسن آل حمادة بقوله: «الفرق بين القراءة في الكتب، والقراءة في الإنترنت، كالفرق بين شخص يرتوي من الماء وآخر يكتفي بالمضمضة»...هذا إنْ كان يقصد بالقراءة في الإنترنت قراءة الكتب الإلكترونية، لا قراءة ما تموج به صفحات التواصل الاجتماعي مِن غثٍّ لا سمين فيه وهواء لا أوكسجين به.

والواقع أنّ قراءة الكتب المجانية الإلكترونية، والتي لا تنتهك حقّا لمؤلِّف أو ناشر؛ تُشبه إلى حدّ بعيد، ما كان يفعله العلّامة بدر الدين بن بهادر الزركشي المتوفَّى في ٧٩٤هـ؛ والذي كان يرد أسواق الكُتُب ولا يَشتري منها شيئا، وإنّما يُطالِع في حانوت الكُتبي طول نهاره ومعه ظهور أوراق يعلِّق فيها ما يعجبه، ثمّ يرجع فينقله إلى تصانيفه. بل إنّ القراءة عبر الشاشة تُسهّل مهمّة الاقتباس والمشاركة مع الآخَرين، وتعفينا مِن مشقّة حمْل الكتب أثناء السفر والترحال،

وتمنحنا وصولا أسرع إلى الكتاب والصفحة والفقرة المرجوّة، وتتيح إمكانية البحث في الإنترنت أثناء القراءة، بل إنّ تقنية النصّ الارتباطي تسهّل مهمّة البحث في الموسوعات والمَراجع بمجرد الوقوف على النص دون الحاجة للخروج من صفحة الكتاب! هذا علاوة على أنّها -أي القراءة الإلكترونية- تختصر الحيّز المكاني الذي يحتلّه الكتاب الورقي، وتتيح الوسائط السمعية لفاقدي البصر، وتمكِّننا مِن المطالعة في إضاءة خافتة أو حتى في وسط حالك الظلام، وتمنحنا فرصة التواصل مع الكاتب وتَقمّص دور الناقد المصفِّق أو المصفِّع.

وغني عن القول أنّ الكتاب الإلكتروني هو صيغة رقمية لنصّ مكتوب، يمكن قراءته على الأجهزة المحوْسبة بكافّة أشكالها، ويتراوح طوله بين ٢٥ألف كلمة إلى ٤٠٠ألف كلمة، ويُعَدّ الجيل الثالث في علاقتنا مع الكِتاب، بعد جيل المشافهة والسماع الأوّل، وجيل القراءة والفهم الثاني، لِما امتاز به مِن القراءة الانفتاحيّة التفاعليّة، وتَفرّده بقارئ جديد يُسمَّى القارئ المتّصل[(١)].

وعلى الرغم من فائدته الجليلة في تخطِّي تعقيدات النشر وحواجز التسويق

(١) يُعرَف القارئ المتصل بأنه مَن يستعين بوسائل التكنولوجيا الحديثة من حواسيب وهواتف وألواح ذكيّة، للوصول إلى ما بها من طوفان الكتب والمجلات والوثائق، فضلًا عن الوسائط السمعية والبصرية.

وعوائق التوزيع والتداول، إلى حدٍّ بات فيه انتهاك حقوق الملكيّة الفكرية أيسر من شربة ماء وزفير هواء؛ إلّا أنّ الباحثين لا يتّفقون على شخص محدّد يعود إليه فضل هذا الاكتشاف المثير، والذي يُعدّ حلقة ذهبية في تاريخ تطوّر اللغة والكتابة والقراءة.

وهنا أُنوّه إلى أنّه رغم الحضور الطاغي والمجّاني للحروف المضيئة عبر الكتب الإلكترونية، فإنّ الكتاب الورقي سيظلّ يثير شهيتَنا ويستنفر حواسَّنا، وذلك بتواجده الحيّ وحضوره الفيزيائي؛ الذي يُمكّننا مِن نسْج علاقة أعْمق وأصْدق وأدْوم مع المقروء. وكما بقي الرسم بعد اختراع الكاميرا، وظلّ المذياع بعد اختراع التلفاز، فسيبقى الكتاب الورقي رغم حضور الكتاب الإلكتروني. وهو ما ذهب إليه الكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو بقوله: «إنني أنتمي إلى تلك الحفنة من الناس التي مازالت تعتقد أنّ للكتاب المطبوع مستقبلا، وأنّ جميع المخاوف المتعلّقة باختفائه ما هي إلّا مثال آخر لبعض المخاوف المرعبة المتعلّقة بانتهاء شيء ما، بما في ذلك انتهاء العالَم».

٥- متى، وأين؟

كما ننتقي الرفيق قبل الطريق لننعم بالصّحبة ويَهون السفر، ونختار الجار قبل الدار لنسعد بالحياة ونَتجنَّب الشقاق؛ فعلينا أن نصطفي الوقت الأمثل للإقدام على القراءة وصحبة الكتاب، فهذا ممّا يحقّق الفائدة المُثلى ويضمن الاستمراريّة والفاعليّة، خاصة أنّ القراءة فعل مركَّب يتطلّب طاقة بدنية وذهنيّة وشعوريّة. وفي هذا يتفاوت البشر بعدد شَعر الرؤوس، فمِنهم مَن يقرأ ليلا في الهدوء، ومنهم مَن يقرأ في الصباح قبل الشروق، ومنهم من يخطف فيقرأ في الأوقات البينيّة، ومنهم مَن يحدّد وقتا يوميًا للقراءة فيواظِب عليه ولا يتخطّاه.

والفيصل في كلّ ذلك هو المزاج الشخصي الذي يتقلّب تقلُّب الماء في البحر والهواء في الفضاء، ومداره على ساعات ذروة النشاط التي يصفو فيها الذهن ويصل التركيز إلى أعلى مداه؛ فيتيح للمعلومة دخولا أسْرع ومعالَجة أفضل، وبالتالي يُصبح استدعاؤها مِن جبّ الذاكرة -حين الحاجة- هيّنا ليّنا. وفي ذلك قِيل إنّ أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة

وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل. وفيه أيضًا كَتب عبد المجيد تمراز قائلًا: «هناك بعض الأوقات التي تُعتبر ثمينة في قيمتها وفاعليتها، ولو حاولْتَ أن تعتني بها وتجعلها وقت القراءة، فقد جمعْتَ بين الحُسنييْن، بركة الوقت وبركة فعل القراءة. ثمّ أشار إلى الساعة الذهبيّة التي تتفاوت من شخص إلى شخص، ويكون فيها المرء بأعلى مستويات نشاطه الجسدي والذهني. وإلى الأوقات المباركة الثلاث الغدوة والروحة والدلجة.

والحقّ أنّ بين النوم والقراءة خيطا ليس برفيع، فكما للنوم طقوس يجب توفّرها للانخراط فيه والغطّ في أحلامه؛ كسرير مريح ووسادة ناعمة وجوّ هادئ ودرجة حرارة معتدلة وذهن صاف وبدن سليم ومَعدة لا خاوية ولا ممتلِئة؛ فإنّ للقراءة أيضًا طقوسها التي توفِّر للذهن الأريحيّة، وتفرش البساط للكتاب لكي يتمدّد ويبوح بما لديه مِن أسرار.

نعم، ربّما يستطيع بعضُهم النوم والشخير في أيّ مكان، وربّما يستطيع بعضُهم القراءةَ في كلّ الأجواء؛ حتى إنَّ ابن القيّم ذكر أنه عرف مَن أصابه صداع وحمّى، وكان الكتاب لا يفارق رأسه، فإذا وجد إفاقة قرأ فيه، وإذا

غُلب وضعه! ولكن الأغلب الأعمّ مِن القرّاء؛ يتطلّب مقعدا مريحا في زاوية هادئة، أمام طاولة ثابتة وإضاءة جيّدة، ووسط غرفة مرتَّبة معطَّرة، وفي أحضان مكتبة عامرة منسَّقة. هذا ويُراعَى استقامة الظهر وملامسة القدميْن للأرض أثناء الجلوس على المكتب، الذي ينبغي أن يرتفع عن الأرض بحوالي ٨٠سم، وينخفض عنه المقعد بنحو ٢٠ سم. والواقع أنّ هذا الجوّ الأنيق يبعث على التركيز، ويُغذّي القريحة، ويساعد على الاندماج في القراءة والانغماس فيها دونما تشتيت أو تنغيص.

وبرغم أنّ الكتاب أكرم كريم وأجود جواد، إذْ لا يشترط مكانا معيّنا ولا هيئة محدّدة، بل يَقبلك في البحر والبرّ والجوّ، ويلقاك نائما أو قاعدا أو حتى ماشيا، إلّا أنّ هنري ميللر يقول: «إذا نشدتُ السلام والسكينة، آخذ كتابا جيدا وأذهب إلى الغابة. لا أعرف مكانا أفضل من أعماق غابة أقرأ فيه كتابا جيدا. والأفضل أن تحتوي جدولا جاريا». أمّا الكاتبة الأمريكية ماري ليونهاردت فتنصح عند البحث عن بيت جديد، بأن تكون له ساحة أماميّة مظلَّلة، نضع فيها أرجوحة أو كرسيا هزّازا وطاولة للكُتب، وكأنها توابل ومنكِّهات للقراءة.

ولا نغفل هنا المكتبات العامّة، باعتبارها مكتبة مَن لا مكتبة له، وبحسبانها ترفع الغطاء عمّن يتعلّل بضيق ذات اليد وغلاء الكُتب. ولعلّ المستفيد الأوّل مِن تلك المكتبات العامة التي تتربّع -إلى حدٍّ ما- في أنحاء بلادنا العربية والإسلامية، هو خالد بن يزيد بن معاوية؛ الذي ذُكر أنه أوّل مَن أنشأ خزانة عامّة للكُتب...فمَنَّ سَنّ سُنّة حسنة له أجرها وأجْر مَن عمل بها.

أمّا العجيب فيما يخصّ أماكن القراءة، فهي صيحة القراءة في الحمّام! تلك الصيحة التي كُتبت فيها المقالات، ورصدتْها دراسات وإحصاءات في الدول الغربية وأمريكا، حتى إنّ دور النشر الغربيّة تفاعلَت مع هذه الصيحة، وأصدرَت مطبوعات تحوي مواد قرائيّة خفيفة تناسب هذه الأجواء التي وصفتْها إحدى المُهتمّات بهذا الشأن أنها أجواء هادئة ممتِعة! وأنها أشبه ما تكون بأجواء القراءة على متْن الطائرات! كما ذكر الكاتب فهد الأحمدي أنه يملك مكتبة في الحمّام وإن كانت خالية من الكتب العربية. فضلًا عن ملِكة الروايات البوليسية (أجاثا كريستي) التي باحت بأنّ الطبخ يثير خيالها والحمّام يلهمها، فيتنزّل عليها وحيُها بروايتيْن كاملتيْن كلّ عام!

والواقع أنّ تلك الصيحة الغريبة، ربّما تنفع كبار السنّ الذين يعانون عادة من تضخّم البروستاتا وصعوبة التبوّل، ويشتكون من الإمساك الذي يقضون بسببه أوقاتا طويلة في الحمّام انتظارًا لفرج يتأخّر، ولكنها لا تجدي نفعا عند غيرهم، إلّا إذا كانوا -والعياذ بالله- على شاكلة المتفسِّخ هنري ميللر الذي قال:» «عندما كنت صغيرًا، كنت أحيانًا، في بحثي عن مكان آمِن ألتهم فيه الكلاسيكيّات الممنوعة، ألجأ إلى المرحاض».

٦-هكذا نقرأ

مَن قال لك قرأْت، قُل له: ماذا استفدْت؟ ومَن قال لك استفدْت، قل له ماذا عملْت؟ ومَن قال لك قرأت واستفدْت وعملْت، قل له كم علَّمت؟ ومَن قال لك قرأْت واستفدْت وعملْت وعلّمت، قل له كم صنّفتَ وألَّفت؟..

فهكذا تكتمل حلقات القراءة الخمسة: (نقرأ-نستفيد-نعمل-نعلّم-نؤلّف)، ومَن لم يضع ذلك نصب عينيْه؛ فلن يجني الثمرة كاملة، ولن يقطف مِن زهرة القراءة إلّا لونها، وسيدخل في عِداد مَن عناهم ميخائيل نعيمة بقوله: «ويْل لقارئ لا يقرأ من الكلام إلّا حروفه».

ولكي نتحصّل على هذه الخماسيّة الذهبيّة؛ لا بدّ أن ندرك أنّ القراءة ليست تمرينا لحركة العين، ولا مسْحًا بصريًا للأوراق، ولا وثبا فوق السطور والكلمات. بل هي عملية فكريّة بالمقام الأول؛ يُشمّر فيها العقل عن ساعديْه، وينصِب إلى الكِتاب ركبتيْه، ثمّ يَشخَص إلى الكلمات بعد ذلك بناظريْه. وقد توصّلَت الأبحاثُ والدراسات إلى أنّ ٩٥٪ مِن القراءة هي مهارة عقلية فكريّة، بينما ٥٪ فقط براعة بصريّة آلية.

وما ذلك إلّا لأنّ التفكير هو المصنع الذي يحوِّل المادة الخام المقروءة إلى منتَج صالح للاستخدام، ويجعل ما نقرأه يختلط بكياننا ويسري في دمائنا ويصبح جزءًا أصيلًا فينا، حتى ليبدو وكأنّنا وُلدنا به وفُطرنا عليه. أمّا ما نقرأه و لا نُدخله مصنع التفكير؛ فسيصبح يومًا بعد يوم عبئا ثقيلا على الذاكرة حتى لَترميه في أقرب زاوية للنسيان. وبهذا نكون قد زيّفنا فعل القراءة، وقدَّمنا أسوء نموذج على كيفيتها، وصمَمْنا آذانَنا عن النصيحة الثمينة التي ساقها الجرجاني في دلائل الإعجاز يقوله: «واعلم أنك لا تَشفِي العلّة ولا تَنتهي إلى ثلج اليقين، حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مُجمَلا إلى العِلم به مُفصّلا، وحتى لا يقنعك إلّا النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمَن تَتبَّع الماءَ حتى عرف منبعَه، وانتهى في البحث عن جوهر العُود الذي يُصنَع فيه، إلى أن يَعرف مَنبته، ومَجرى عروق الشجر الذي هو منه».

وربّما هذا أحد الموانع التي تُعيق بعضَهم عن القراءة، إذْ إنّ إعمال البدن أسهل مِن إعمال العقل، والنفس بطبيعتها تركن إلى الدِّعة والراحة وتَحيد عن الكُلفة والمشقّة. وفي هذا غفلة عن قانون أصيل في الحياة، مفاده أنّ الحقيقة

والراحة لا يجتمعان والفوز والدّعة خصمان عنيدان، ومَن أراد الدّعة ونشد الراحة فارقه الفوزُ وخاصمتْه الحقيقة...وصدق في هذا مَن قال:

بقدر الكدِّ تُكتَسب المعالي ومَــن طلب العلا سهر الليالي
ومَــن رام العلا مِن غير كدّ أضــاع الـعـمـرَ في طلب المحال
تــروم الـعــزَّ ثــمّ تـنـام ليلًا يغوص البـحـرَ مَـن طلب الـلآلي

وكما لَم يَحصر ربُّ العزّة والجلال العبادةَ في المسجد فقط؛ بل جعلها عامّة في كلّ سكْنة وحركة، حتى لتفترش الحياةَ كالأرض وتظلّها كالسماء. ولم يَقصر -سبحانه- الإحسانَ على التصدّق بالمال؛ بل امتدّ فيؤه، ليشمل الإحسانَ بالجاه، أو العِلم، أو البدن، أو حتى بالكلمة الطيبة والدعاء. فإنّ العِلمَ كذلك، يتجاوز القراءة إلى نوافذ أخرى تُصقله وتُثريه، ومَن حَرم نفسَه من تلك النوافذ حُرم الخيرَ الكثير، بل إنّ الكاتب الأمريكي هنري ميللر يقول: «المثقِّف-بكسر القاف- هو الحياة».

فتجارب الحياة التي نخوضها نافذة، وخبرات الآخَرين التي يهدوننا إياها على طبق مِن نصيحة نافذة، وقراءة وجوه الناس وسلوكهم نافذة، والتأمُّل في

كتاب الله المنظور–الذي هو الكون–نافذة بل نوافذ؛ وفيه قال خالد محمد خالد: «والكون كتاب ربنا مفتوح لكلّ ناظر، وميَسَّر لكل قارئ. ومِن الأفذاذ الذين نرفع نحوهم أبصارَنا في خشوع، كثيرون أخذوا معظم تراثهم العقلي والروحي من هذا الكتاب الكبير. نظْرتك إلى السماء ونجومها، إلى الأرض وزرْعها، إلى البحر، إلى النهر. تأمّلك النّاس والأشياء. لحظات الصمت المفكِّر التي تستغرقك فيها سبحات روح طلِعة...كلّ هذه أضواء تتيح لعقلك أن يكُون نافذة قيِّمة على الحياة». كما لفت أنظارنا إلى ذلك أيضًا، أحد المفكرين الغربيين بقوله: «مَن يتصور أنّ الأفكار لا توجد إلّا في الكتب، وأنّ في الكتب كلّ الأفكار، ما هو إلا واهم. فالأفكار تجري مع الأنهار، وتطفو على وجه البحر، وتتكسر على شواطئه، وتسكن التلال والجبال، وتسطع مع نور الشمس...إن الأفكار موجودة في كل زمان ومكان».

وهكذا تصبح القراءة أمرا عامًا لا يقتصر على مطالعة الحرف، بل يمتدّ الفعل ليقرأ كلَّ مخلوق ويطالع كلّ موجود، ملموسًا كان أو محسوسًا أو مسموعًا أو مرئيًا، أو حتى مَشمومًا ومَذوقا، طالما أنّ الثمرة واحدة؛ وهي

إنتاج العلوم والمعارف، وتَعبيد السبيل للوصول إلى الحقيقة، وتوجيه السلوك إلى مدارج المكارم والفضائل. وليس في ذلك تمييع لفعل القراءة ولا تسطيح وتقزيم لدورها، بل هو تعميق لمعناها وتوسيع لقاعدتها، واضعين في الحسبان أنَّ المصباحَ لا يُغني عن الصباح، والشمعَ لا يحِلّ محلّ الشمس...والمَعنِيّ بالصباح والشمس هنا هو القراءة، بينما المصباح والشمع هو ما يردفها من نوافذ ووسائل معرفية أخرى.

٧- القراءة الاستكشافيّة

كما يتفحَّص أحدُنا بضاعتَه؛ فيتأكّد من ملاءمتها وجَودتها وكفاءتها، ويَستفسر من أصحاب الدراية عن مَنشئِها وصنْعتِها وسمعتِها، وذلك قبل أن يتخذ قرار الشراء ويمدّ يده فيدفع الدرهم والدولار؛ فإنّ الكتاب كذلك لا بد من تفحّصه ولو سريعا قبل أن ننفق فيه المال والوقت؛ وإلّا وقعْنا في الفخّ، وقمنا بشراء مالا يهمّنا قراءته، أو ما لا يمكننا الاستفادة منه، أو ما لا يستحقّ الشّراء من الأساس.

وتزداد أهمية القراءة الاستكشافية مع عناوين الكتب التي تزخر بالمجاز والاستعارة، وتلك التي يُراعَى فيها البعد التجاري قبل البعد الموضوعي؛ وذلك حتى لا نُفاجَأ كما فُوجِئ أحدُ الذين ابتاعوا كتاب الشيخ عائض القرني المُعنْون (عاشق)، ظنّا منه أنّ عشق الرجال والنساء هو لُحمة الكتاب وسداه! وحتى لا نكون كالباحث الطبيب عدنان إبراهيم الذي عثر -أيام صباه- في مكتبة المسجد على كتاب (الأمّ) للإمام الشافعي، فحسِبه يتحدّث عن الأمومة، ووجد فيه فرصة سانحة ليُتمّ موضوعا مدْرسيا عن عيد الأم! وقل مثل ذلك

عن كتاب (الشفاء) للقاضي عياض، والذي لا يمتّ -كما يتوهّم الكثيرون- إلى الطبّ بصلة.. ولهذا حذّر المنفلوطي من العناوين البرّاقة الخدّاعة، فقال: «لقد جهل الذين قالوا أنّ الكِتابَ يُعرَف بعنوانه؛ فإني لم أرَ بين كتُب الأدب أكْذب من كتاب (بدائع الزهور) ولا أعْذب مِن عنوانه، ولم أجد بين كتب الأدب أسْخف مِن كتاب (جواهر الأدب) ولا أرْوع مِن عنوانه».

والقراءة التفحُّصيّة أو الاستكشافية هذه لا تستغرق سوى بضع دقائق، وتكون بمثابة إشارة المرور التي تفتح الطريق، والمُقبِّلات التي تُثير الشهية وتُسيل اللعاب، والمهماز الذي يدفع فرس القراءة للمضيّ قدما في مضمار الكتاب. وفيها نجيب على سبعة أسئلة وضعها فهد الحمود واشترط إجابتها قبل البدء في اقتناء الكتاب وقراءته، وهي: «ما الفنّ العلمي الذي ينتمي إليه الكتاب؟ وما الفئة التي يقصدها المؤلِّف...وهل أنا منهم؟ وهل الكتاب الذي سوف أقرأه مناسب لمرحلتي العلمية؟ وهل فهمت مصطلحات الفنّ والكتاب الذي سأقرأه؟ وهل الكتاب مندرج تحت فنّ المؤلِّف المبرَّز فيه؟ وما المذهب العقَدي والفقهي... وسواها للمؤلّف؟ وهل سبق نقد للكتاب مِن قرّاء سابقين؟

ولكي نجيب على هذه السُّباعية؛ لابدّ من قراءة العنوان جيدا، ثمّ الانتباه إلى اسم المؤلِّف الذي غالبا ما يصبغ مادّة الكتاب بما يحمله بين جوانحه مِن أفكار ومبادئ ومعتقَدات. هذا قبل العروج على المقدّمة وقراءتها بعمق وتفصيل؛ لأنها تفصح عن أغراض الكِتاب ومحتواه، وتوضّح طريقة المؤلِّف في عرض الأفكار، ومغزاه في تقسيم الأبواب والفصول، وكم مِن مقدِّمات بلغت في الحُسن الذروة حتى فاقت شهرتُها متْن الكتاب الذي قدَّمت له، مثل مقدِّمة ابن خلدون في كتابه العِبَر، ومقدِّمة محمود شاكر (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) والتي صدّر بها كتابه عن المتنبي. وقد أبدع الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف حين شبّه المقدّمة، بالقشّة التي تعضّ عليها امرأة جميلة تؤمن بالخرافة التي تقول: إنّ المعطف يمكن أن يصبح كفنا لصاحبه، إن لم تضع زوجُه قشّة من التبن بين أسنانها عندما تساعده في خلعه!

هذا مع الاطلاع على فهرس المحتويات الذي يُعدَّ صورة حقيقية لمضمون الكتاب، حتى قيل فيه: «الكتاب مِن غير فهرس كنز مغلق». وقراءة الخاتمة التي يُودعها المؤلِّف زبدة كتابه وخلاصة موضوعه، وكذلك تصفُّح

المراجع والخلاصات التي يُذيِّل بها بعضُهم كُتبَه. ولا بأس مِن التسكّع قليلا بين دهاليز الكتاب للاطلاع على الرسوم والصور والجداول والخطوط والعناوين الرئيسة.

ليس هذا فقط، بل إنّ هنري ميللر يُجوِّد فيقول: «عندما تصادِف كتابا ترغب في قراءته، أو تعتقد أنك يجب أن تقرأه، دعه وشأنه بضعة أيام، ولكن فكِّر فيه بأشدّ ما يمكنك من تركيز. دع العنوان واسم الكاتب يدوران في عقلك، فكِّر ماذا كان يمكن أن تكتب لو أتيحت لك الفرصة، اسأل نفسك بجديّة إذا كان ضروريا أن تضيف هذا العمل إلى مخزونك من المعرفة أو إلى ذخيرتك من المتعة، حاول أن تتخيل ماذا يعني لك أن تضيع هذه المتعة أو الفائدة الإضافية. وحينئذ، إذا وجدت أنه لابد أن تقرأ الكتاب، فانتبه بأي فطنة استثنائية تتعامل معه، انتبه أيضًا إلى أنه مهما كان مثيرا فإنّ القليل جدا مما يحتويه الكتاب جديد حقا عليك».

٨ - القراءة التحليلية

أظنّنا لسنا في حاجة للتأكيد على أنه ليس كلّ مَن وضع قدميه في الماء سبّاحا، ولا كلّ مَن اعتمّ بالعمامة شيخا، ولا كلّ مَن أمسك بالكتاب قارئا؛ فالقراءة الحقّة تستدعي اليقظة للأفكار حدّ تشرُّبها، وتتطلّب التفاعل الحي مع اللغة التي صِيغت بها الكلمات ومع المشاعر التي تحتلّ جوف العبارات، وتشترط التوفُّر على عنصري البحث والتحصيل. وتلك هي القراءة التي يسمِّيها بعضُهم قراءة الضبط والتحصيل، بينما يسمِّيها آخَرون بالقراءة البحثية، أو القراءة التحليلية، أو القراءة الهادفة الذكيّة التي تتوخَّى التنقيب في زوايا النص عن: مَن؟ وماذا؟ وأين؟ ومتى؟ ولماذا؟ وكيف؟

ولكي نصل إلى هذا النوع من القراءة؛ علينا أن نَحذَر من الانضمام إلى جموع الخرقى التي قال عنها الصحفي نيكولاس كار: «إنّ البشريّة تتحول إلى جموع من الخرقى شيئا فشيئا، لأنّ تكوين المعرفة يتطلّب القراءة المتفحِّصة، ومِن ثَمّ تشرُّب الأفكار والتحليل والنقد، وهذه مهارات تواجه خطر الانقراض

اليوم، بسبب وسائل التواصل الاجتماعي أوّلا، وبسبب وفرة المعلومات على الإنترنت ثانيا».

بل علينا السيْر على هدْي نصيحة خالد محمد خالد ضمن وصاياه التي قال فيها: «عندما تبلغ عبارة تمسّ روحَك مسّ الكهرباء، وتحسّ فيها شيئا يستوقفك ويبهرك؛ نَحِّ الكتاب قليلا، واصْغِ لِما تُوحيه إليك، وفكِّر فيها...ستفتح بصيرتَك على عالَم مِن الأفكار جديد. وهذه مزية القراءة؛ فنحن لا نقرأ لنزيد معلوماتنا وننمِّي معارفَنا فحسْب، بل نقرأ؛ لأنّ القراءة تلهمنا، وتطلّ بنا على أفكار عذراء تنتظرنا لنكشفها ونضيفها إلى تراث الفكر الإنساني. إنّ في عقلك الباطن كثيرًا من الرؤى والتجارب، تنتظر عارضا يسيرا يدفع بها إلى وعيك، وقد يكون هذا العارض كلمة تسمعها، أو مشهدا تراه، أو عبارة تستوقفك في كتاب. فلا تقرأ وأنت غافل ساه، بل طالِع في يقظة وتفتُّح ومتابعة، وهيِّء بصيرتك لتتلقَّى ما تفيئه الكلماتُ المسطورة من حكمة وإلهام».

ولعلّ هذا النّوع من القراءة، هو الذي يرفع القارئ إلى مرتبة يصبح فيها مشاركا فاعلا بل ومؤلِّفًا ثانيًا للكتاب؛ فبعد أن سكب المؤلِّف الأوّل عصارة

فكره وزبدة عقله؛ يأتي القارئ ليفنِّد ويحلِّل ويدوِّن؛ فيضع المفيد موضع التنفيذ، ويصحِّح ما اعترى النصّ من أخطاء، كما يتوقّف بالبحث عند إبهام يحتاج إلى توضيح، أو إيجاز في حاجة إلى بسْط، أو أفكار متناثرة تستحقّ الربط فيما بينها والجمع. كما أنّ هذه القراءة وحدها هي السبيل إلى الوصول إلى الكتاب المضمَر الذي ذكره صاحبا كتاب (كيمياء القراءة) بقولهما: «كلّ كتاب يَحوِي بداخله كتابان، كتاب ظاهر وكتاب مُضمَر، فالظاهر هو الكتاب الذي تقرأه الآن وتراه بعين الرؤية، وأمّا المضمَر فهو دخولك في حالة الانتقال: من التردّد إلى ما وراء الرسوخ، ومن المعلوم إلى ما وراء المعمول، ومِن اللاقراءة إلى ما وراء الاستقراء، ومن المتعة إلى ما وراء الإمتاع».

والحقّ أنّ تلك القراءة مجهِدة ومرهِقة، ولكنّها بذات الوقت تتوفّر على لذّة تُتذوَّق ولا تُوصَف وتُحسّ ولا تُكتَب، علاوة على أنها تجعل قاعدتك المعرفيّة صلبة لا هشّة ومستقرّة لا قلقة؛ فتمكِّنك من الحديث بطلاقة عمّا قرأْت، بل والمحاجَجة والمناظرة بثبات وثقة، فضلًا عمّا تجنيه من حصانة أكيدة ضدّ مَن يحسبك خِبًّا يَقبل الخداع أو يظنّك غِرًّا يَنطلي عليه التدليس ويستسلم لغسيل الدماغ. وما ذلك إلّا

لأنها قراءة مقرونة بالتفكير الذي اعتبره ديكارت شهادة الوجود بقوله: «أنا أفكر إذن أنا موجود»، بينما عدّه جون لوك إثباتا لملكية المعرفة بقوله: «القراءة تمدّ العقل بالمعرفة، ولكن التفكير هو الذي يجعل ما نقرؤه ملكا خاصا لنا». ولأنها قراءة استوفت المتطلَّبات التي أسبغَت على فعل القراءة صفة الفنّ.

ولا ننسى أنّ جوهر الحياة ولبّها، لا يُتوصّل إليه؛ إلّا باقتفاء أثر الحكماء الأوائل، في تقليب الكتب وإعمال الفكر والتأمّل في الخلق، بعيدا عن ضجيج الحياة وفحيحها، فالسكون يصفِّي الذهن ويلملم الشتات ويلد الحقائق العالية النفيسة.

٩ - القراءة السريعة

تَزامُنا مع عصرنا اللاهث، والذي اصطبغ فيه كلُّ شيء بالسرعة؛ حتى أصبحنا نأكل الوجبات السريعة ونسلك الطرق السريعة ونفضِّل التأشيرات السريعة ونثمِّن الخدمات السريعة؛ كان لا بدّ للقراءة أن تنحو ذات المَنحى؛ فبات الحديث عن القراءة السريعة حاضرا وبقوّة في مجتمع القراءة والقرّاء. وهي مجموعة من التقنيّات ذات المسمَّيات العديدة، والتي تجمع بين السرعة والتركيز، فتردم الهوّة بين طاقتنا الفكرية وطاقتنا القِرائية، إذْ إنّنا نقرأ بمعدل يدور حول المائتي كلمة في الدقيقة، بينما نفكّر بسرعة تفوق ذلك المعدّل بعشرات المرّات، بمعنى أننا نقرأ بسرعة السلحفاة بينما نفكر بسرعة البرق، وبما يعنى أننا لا نستعمل من طاقاتنا الذهنية إلّا ما دون العشرة بالمائة، وفي هذا هدر كبير لطاقة نحن في مسيس الحاجة إليها لتصنع الفارق في زمن سريع يوشك أن تتلاشى فيه الفوارق، وفي عصر يعدو ويلهث حتى لَتتضاعف معلومات بعض التخصّصات في غضون شهور لا سنوات. وفيها -أي القراءة السريعة- ينبغي

توسيع مجال الرؤية لتشمل مقاطع لا كلمات، ويجب تَفادي الارتداد -ما أمكن- إلى ما سبقَ قراءته، والتقليل من الوقفات بين الجمل والصفحات، وتوهُّم أسئلة افتراضية تتعلّق بموضوع الكتاب والبحث عن إجاباتها في ثنايا الصفحات، وتمرير إصبع السبابة تحت السطور، واتباع القراءة الصامتة لا الجهريّة، والتركيز على (الكلمات المفتاحية)؛ وهي الكلمات التي تَبرز بشكل أكبر في ثنايا الكتاب، وتحتوي على جوهر الجملة أو الفقرة. مع تَبنِّي ما يُعرف بخرائط العقل؛ التي تَختصر الكتاب في صفحة واحدة بطريقة الرسم الشجري المرصَّع بالألوان والرموز، وذلك بُعيْد الانتهاء من قراءته، نظرا لفاعليتها في تثبيت الأفكار وسهولة استدعائها من قعر الذاكرة.

وقد أُلِّفت الكتب وعُقِدت الدورات من أجل تعميم هذه التقنيات، بل وتُقام لها المسابقات الدولية التي تُصنِّف القراء الأسرع عالميا، وذلك لِما لها مِن فائدة في اختصار الوقت والعزْف على وتَر العصر، ولِما لها مِن مردود إيجابي في تحسين عملية التذكُّر وزيادة الاستيعاب، إضافة إلى أنها تجنِّبنا الملل وتقينا من الإعياء المصاحِب لطول فترات القراءة. ولا بدّ هنا من التأكيد على أنّ القراءة

فعل تراكمي، ومع المداومة عليها؛ تتحسّن السرعة تلقائيا، ويزداد القارئ حنكة ودراية. مع الإشارة إلى ما قاله خليل الحاجّ من أنه «لا يوجد قياس موحّد للسرعة في القراءة، شأنها شأن السيارة التي تمرّ في طريق فيه سهول وفيه هضاب، فإذا نزلَتْ في السهول انطلقَتْ واندفعَتْ، وإذا صعدَت في الهضاب خفَّت سرعتُها».

والواقع أنَّ القراءة السريعة ليست حكرا على زماننا، بل مارسها الأقدمون وحثّوا عليها؛ حرصا منهم على الوقت، واستزادة لهم من العِلم، فقد رُوي عن الحافظ الهروي قوله: «يجب أن يكون المحدِّث سريع المشي سريع الكتابة سريع القراءة»، وذكَر الإمام السخاوي أنَّ شيخَه الحافظ ابن حجر؛ قرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس، وصحيح مسلم في أربعة مجالس، وكتاب النسائي الكبير في عشرة مجالس كلّ مجلس نحو أربع ساعات، ومعجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين الظهر والعصر. مع العِلم أنّ قراءتهم كانت جهرية لا صامتة، وأنّ تلك الكتب التي ورد ذكرُها هي مِن المجلّدات ذات الأجزاء، لا مِن الكتب ذوات الصفحات!

وإذا ذُكِرت القراءة السريعة على المستوى العالمي؛ ذُكرت أسماء لامعة عُرفت بسرعتها القرائية التي يُضرب بها المثَل، ومنهم المفكّر والفيلسوف

البريطاني ستيوارت ميل، والرئيسان الأمريكيان روزفلت وكيندي. أمّا في محيطنا العربي، فيُذكَر المفكِّر والمدرّب طارق سويدان؛ الذي أفادتْه تقنية القراءة السريعة التي درَسها في أمريكا إبّان ابتعاثه لدراسة الهندسة، فأصبح يقرأ الكلمات رباعا رباعا، لا كلمة كلمة كما يفعل أغلب القرّاء سيْرا على طريقة القراءة التقليدية التي درجْنا عليها منذ الصغر، بمعنى أنّ الكتاب ذو المائتي صفحة لا يستغرق منه سوى ساعة واحدة للإجهاز عليه وبفهم. ولعلّ هذا هو السرّ الكامن وراء معدّلات القراءة المرتفعة لديه؛ إذْ يَذكر أنّه في أوقات انشغاله يقرأ عشْر كتب في الشهر، ثمّ ترتفع إلى عشرين كتابا في حال فراغه، كما روَى أنه في إحدى سفْراته مِن كندا إلى الكويت والتي استغرقت أربع عشرة ساعة قرأ فيها ستة كتب! وعلى الرغم من تحمُّسه الشديد إلى القراءة السريعة، إلّا أنه يُسفِّه ما تُسمّى بالقراءة التصويرية، والتي يزعم مروِّجوها أنها تتجاوز العقل الواعي وتصب مباشرة في العقل الباطن، وتُمكِّننا من القراءة بمعدل صفحة في الثانية أي ٢٥٠٠٠كلمة في الدقيقة! وكأنّ صاحبها يُسابق الشاهين في طيرانه!

١٠ - القراءة الجماعيّة

رغم أنّ فعل القراءة يتمحور حول الفرديّة وينزع إلى الذاتيّة، إلّا أنّ القراءة الجماعية في مجموعات لا يزيد فيها عدد المشاركين عن أصابع اليدين؛ تضيف إلى فوائد القراءة فوائد أخرى إضافيّة؛ فتُنمّي روح المطالعة عبر شحْذ الهمم، وتُرغِّب فيها عن طريق إذكاء روح التنافس، كما تَدعم الفهم من خلال طرح أفكار الكتاب بأكثر من عقل، وتُقوِّي ملَكة المناظرة عن طريق الحوار والنقاش الذي يَجري على الهامش، علاوة على أنها تبعث الروح في ثقافة العمل الجماعي التي تحتضر بيننا أو كادت، وتتيح لنا فرصة تعريض أفكارنا للشمس الساطعة والهواء المتجدّد فتتعافى وتقوى.

ولعلّها أفْيد ما تكون؛ في الأشخاص ذوي الميول الاجتماعية الذين يعشقون المشي زُرافات لا وُحدانا، وفي المبتدئين الذين ما زالوا يحفرون نفقهم إلى عالَم القراءة، وفي أصحاب العزائم الباردة الذين يجدون أنفسهم في حاجة لوقود الاستدامة وزيت المثابرة.

ويمكن تكييف الطريقة التي تقرأ بها كلّ جماعة حسبما يتراءى لهم، إذْ في الأمر فسحة وسعة، وبه من البدائل ما يمكن تخيّر أفْضلها وأفْيدها، إلّا أنّ الأمر في أغلبه يدور حول طريقتيْن: الطريقة الأولى؛ ويلتئم فيها الجمْع في وقت محدّد، ثمَّ يُختار أحدُهم بالتناوب ليقرأ، بينما يغرق البقية في بحر الإنصات والمتابعة إلى أن يصطدموا بغلاف الكتاب الخلفي؛ والواقع أنّ تلك الطريقة لا تخلو من بطء القراءة التي تجرّ في أذيالها شبح الملل، والشرود، وقلّة الفائدة. أمّا الطريقة الثانية؛ فتبدأ بالقراءة الفردية للكتاب قبل التئام الشمل، ثمّ إجراء النقاش بصورة جماعية، وهي الطريقة الأكثر انتشارا والأعمّ فائدة، ولها أُنشأت مجموعات القراءة في أرض الواقع وفي فضاء الإنترنت، بل ويقيمها بعض مشاهير الكتُّاب مع قرّائهم إحياءً لتاريخ قديم مِن هذا الطقس القرائيّ العتيد. وفي هذا ذكر الكاتب الإسلامي محبّ الدّين الخطيب أنه إذا أعجبه كتاب جديد، قرأه مع نفسه منفردا، ثمّ أعاد قراءته مع قرين آخَر يختاره من بين زملائه.

والواقع أنّ هذه القراءة الجماعيّة هي صورة مصغَّرة لِما يجب أن يكون عليه المجتمع في تجمّعاته الأسرية والعمّالية والترفيهية، وهي نواة لخلْق المجتمع

القارئ؛ الذي يحتفي بالقراءة حتى لَتصبح خبزه وإدامه، ويحفّز عليها حتى لَيتسابق الجميع إلى الدخول في معتركها، وعلى أمل ليس ببعيد، يخجل فيه العازفون عن القراءة حين يجدون أنفسهم فرادى منبوذين، فينضمّون إلى أيّ مِن هذه التجمّعات، ربما بتثاقُل وعلى مضض في بادئ أمرهم، ولكنّهم بالمِران والممارسة سيتذوّقون ويفعلون ويدمنون.. فكم مِن محبة تولَّدت بعد عداوة، وكم مِن أُلفة نمَت على أنقاض إعراض.

ولا أبالغ هنا إن قلت أنّ النية لو صدقت وصاحَبَها هدف سام؛ فإنَّ الاجتماع على القراءة يُشبه حِلق الذكر التي يُقيمها المتصوّفة، ويُماثل جلسات التلاوة التي يتحلّق فيها أهل القرآن على مائدة كتاب الله؛ فصُلب الأمور يتوقّف على قدْر نفعها وفائدتها، وكلّ ما يصبّ في إصلاح الإنسان والأكوان هو عبادة يُؤجَر عليها فاعلُها ويُثاب.

١١ - اعبر الحواجز

قد يملك بعضُهم الرغبةَ في القراءة، ويصل بفُلكه إلى شاطئ الكِتاب، ولكنه لا يلبث أن يُجابَه ببعض الحواجز النفسية التي ربّما تفسد عليه مشواره القرائي، فتفتر همَّتُه في المضيّ قدما نحو الوصول إلى الهدف الكامل.

ومِن هذه الحواجز؛ ضخامة الكِتاب[١]، خاصة الكُتب التي تقع في مجلّدات وأجزاء، ويتجاوز عدد صفحات أحدها الخمسمائة صفحة أو قريبا من ذلك، وهو ما يصيب القارئ بنوع من الرهاب الشبيه برهاب الأماكن المرتفعة ورهاب الزحام والتجمّعات. وهنا يمكن التحايل بتقسيم الكتاب إلى

(١) رحم الله أصحاب الهمم العالية في القراءة، كالشاعر علي بن الجهم الذي قال: إن كان الكتاب عظيم الحجم كبير الورق كثير العدد؛ فقد تمّ عيْشي وكمل سروري!

مَلازِم، معتبرين كلَّ ملْزمة كتابا منفصلا، ولنتذكّر أنَّ الأسد ما هو إلّا خراف مهضومة، وأنّ الكِتاب لم يصل إلى هذا الشكل إلّا بعد طباعته مَلْزمة مَلْزمة، ثمّ جرى ضمّ هذه الملازم بعضها إلى بعض، بمعنى أننا لن نخترع العجلة ولن نضيف جديدا، بل سنعيد الكتابَ إلى سيرته الأولى. ومَن يدقّق في بطاقة الكتاب التي تسبق المقدّمة والإهداء، سيجد تنويها بعدد المَلازِم التي تَشكَّل منها الكتاب قبل تجميعه وطباعته. والمَلْزَمة قطعة من الكتاب، تتكوّن من ثماني صفَحات أو ست عشرة صفْحة أو اثنتيْن وثلاثين، أمّا الكتاب –وحسب تصنيف منظمة اليونسكو المَعنيّة بالتربية والعلوم والثقافة في عام ١٩٦٤م– فهو مطبوع غير دوري، يشتمل على ٤٩ صفحة، بخلاف صفحتي الغلاف والعنوان. ويُذكر أنّ أكبر كتاب مِن حيث عدد الصفحات، مُسجَّل في موسوعة جينيس للأرقام القياسية، باسم إحدى الجزائريات التي انتزعت الرقم مِن أحد الأمريكان، حيث يقع كتابها في ١٠٥٥١ صفحة، ويزن ٤٥ كجم، ويبلغ طوله ٥٧ سم، ويسرد مائة ألف حكمة وعبارة مأثورة!!

وتقسيم الكتاب المقترَح هنا إلى ملازم، لا يعني الفصل التام وتمزيق الكتاب إلى أشلاء، بل يعني تقسيمه تقسيما وهميا، مع استعمال الفواصل المُناسبة من شرائط ملوّنة أو قصاصات ورقيّة أو غيره من الوسائل التي تؤدّي الغرض.

وهو ما ذكره عبد العزيز الرفاعي في كنّاشته بقوله: «إذا تناولْتَ كتابا تقرؤه، ثمّ توقفْتَ عن القراءة، والتمسْتَ ما يحفظ لك الحدّ الذي وصلتَ إليه، فماذا تعمل؟ بعضهم يجد الكتاب مجلَّدا، ويجد فيه شريطا حريريا متدلِّيا خاصا لهذا الغرض، فيضعه حدّا إذا أراد. فإذا لم تجد، فضع قصاصة ورق، أو جذاذة قماش، أو بطاقة ما...والغربيّون يعنون بهذا الشيء، وتجده في أسواقهم إذا التمسْته! ولكن ماذا يُسمَّى هذا الشيء؟ إنّه الرشّام؛ الذي يُعرَف بأنه فاصل بين ورقات الكتاب، يجعله القارئ للدلالة على مكان توقّفه قبل استئنافه للقراءة، ويُسمَّى عند المغاربة رشّاما، لأنه يرشم ويعيّن مكان الوقوف. وقد يُسمّى عند بعضهم الدقّة؛ لأنه يفصل بين منطقة ومنطقة من الكتاب».

ثاني هذه الحواجز النفسية؛ هو الإحساس بعقدة الذنب حين يشرع أحدُنا في قراءة كتاب ما، ثمّ تتولّد لديه الرغبة في التوقّف وعدم الاستكمال، وذلك

لاعتقاده بأنّ الاستفادة من الكتاب تخضع لقانون الكلّ لا الجزء، وأنّ عليه مواصلة القراءة رغما عنه، حتى يصطدم بالغلاف الخلفي! والواقع أنّ ذلك ينافي الغرض الرئيسي من القراءة وهو الفائدة المُغلَّفة بالمتعة، ويَحرم القارئ مِن الارتحال في كتاب آخَر أكثر متعة وفائدة، ويُصادم مقولة مُجرِّب كبير بحجم فرنسيس بيكون الذي قال: «بعض الكتب وُجد لكي يُذاق، وبعضها لكي يُبتلع، وبعضها لكي يُمضغ ويُهضم؛ ليتمثّله المرءُ في كيانه إلى الأبد».. وبهذا لا غضاضة في قراءة الجزء مِن الكتاب دون الكلّ، خاصة في الكتب ذات الموضوعات المتعدِّدة وغير المترابطة، أمثال (وحي القلم) للرافعي، و(فيض الخاطر) لأحمد أمين، و(وحي الرسالة) لأحمد حسن الزيات، وما شابه. وفي هذا ذكَر تلميذ الرافعي الوفي (العريان) ؛ أنه كان يقرأ ما يُهدَى إلى الرافعي مِن كُتب أوّلا، ليشير إلى المواضع التي تُجدي فيها القراءة، ضنّا بوقت الرافعي في قراءة ما لا يفيده.

أمّا ثالث الحواجز التي تعترض مشوار القراءة، فهي الصعوبة التي يجدها بعضُهم أثناء الإبحار في كُتب ذات محتوى عميق، حتى لَيناديه اليأس وتهمّ نفسه بالانصراف، والحلّ هنا أن نحارب هذا اليأس بسيف السندباد (حسين فوزي)

الذي قال: «لا أعرف معنى اليأس في شئون القراءة؛ فقد نشأتُ على قصة للأطفال الإنجليز تقول حكمتها: حاول من جديد. وهي النصيحة التي أُسديها للقرّاء: لا تصدنّك صعوبة عن المضيّ في قراءة كتاب عظيم، أعِد قراءته، وسترى أنك بعد فهْمه ستطالعه مثنى وثلاث ورباع».

والواقع أنّ هذه الحواجز الثلاثة وغيرها، لا تُقارَن بحاجزٍ مثل فقد نعمة البصر والابتلاء بالعمى، والتي لم تقف حائلا أمام بعض مَن نُكبوا به، بل تعلَّموا القراءة باللمس، أو استعانوا بمن يَقرأ لهم، وربما نقدوا المال ليُقرأ لهم. ولعلّ أوضح الأمثلة على هذا، المقرئ النحوي الفقيه الضرير (عبد الله بن الحسين العكبري)؛ الذي رُوي أنه كان لا يمضي عليه ساعةٌ في نهاره إلّا وهناك من يلازمه ليقرأ عليه ويطالع له، أمّا بالليل فكانت زوجته تقرأ له!

١٢ - في الإعادة إفادة

رُوِي أنَّ رجلًا كان يصلّي بابنه، ويقرأ آية واحدة يكرّرها في كلّ صلاة، حتى زعم ابنُه أنه لا يحفظ غيرها، فلمّا سأله عن ذلك، قال له: كم مرّة سمعْتها منّي؟ قال: مائة مرة. فقال: والله ما قرأتُها إلّا واستحضرتُ لها معنى جديدا في كلّ مرّة...

ومع التأكيد على البون الشاسع بين كِتاب البشَر وكِتاب ربّ البشر تبارك اسمُه وتعالى جاهُه، فإنّ هذا يمكن تطبيقه ولكن بصورة مغايرة على قراءة بعض الكتب الدسمة التي تستحقّ قراءة ثانية وثالثة، وفي كلّ مرّة تخرج بحال غير الذي دخلْت به؛ ربّما لأنّ النص ثريّ وولّاد، وربّما لأنّك قرأته بمزاج وهدف وروح غير التي قرأته بها سلفا، وفي هذا أُثر عن العقّاد قوله: «أن تقرأ كتابا جيدا ثلاث مرات، خير لك مِن أن تقرأ ثلاثة كتب جديدة».

ولعلّ هذا يؤكِّد على أفضليّة نظرية الكيْف وتغليبها على نظرية الكمّ؛ بمعنى أنه لا يهمّ كم قرأت ولكن المهمّ كيف قرأت وكم استفدت، فالعدد في

الليمون كما يقولون، أمّا الثمين مِن الأشياء فلا عدّ فيه؛ بل كيلٌ ووزنٌ بالجرام ودون الجرام. كما يؤكّد على أنّ التكرار أمّ المعارف؛ باعتباره يعمل على توسيع قاعدة الفهم، وتعميق الوعي، وتمكين المعلومة في الذاكرة. والواقع أنّ إعادة القراءة لكتاب يستحقّ، ليست محض تكرار يقبض به أحدُنا على ما تسرّب من ثقوب الذاكرة بعد القراءة الأولى، بل هو قراءة جديدة واكتشاف جديد؛ ولكن بأفق أرحب، وذهن أنشط، وتكلفة أقلّ من حيث الوقت والجهد.

وقد كان هذا نهج المتبحِّرين في القراءة والعالِمين بأصول العِلم وقواعد تحصيله؛ فهذا مؤرِّخ الإسلام الشّهير ابن الأثير يقول في كتابه (المثل السائر): «وكنتُ جرّدتُ مِن الأخبار النبويّة كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر، كلّها تدخل في الاستعمال، وما زلتُ أواظب على مطالعته مدّة تزيد على عشر سنين، فكنت أُنهي مطالعتَه في كلّ أسبوع مرّة، حتى دار على ناظري وخاطري ما يزيد على خمسمائة مرة، وصار محفوظا لا يشذّ عنّي منه شيء». كما ذَكر الشيخ عائض القرني أنه قرأ كتاب ديل كارنيجي (دع القلق وابدأ الحياة) ثلاث عشرة مرّة. وكذلك ابن سينا الذي طالع كتاب (ما بعد الطبيعة) لأرسطو نحو أربعين مرّة

حتى حفظه، والإمام المزني الذي قرأ كتاب (الرسالة في أصول الفقه) للشافعي خمسين مرّة. وأخيرا وليس آخرًا، كتاب (الأغاني) بأجزائه العديدة، والذي ذكر الشيخ على الطنطاوي أنه قرأه ثلاث مرات.

وبرغم الفوائد المرجوّة مِن إعادة القراءة مثنى وثلاث ورباع؛ إلّا أننا نجد أكثر القرّاء يعتنق فكرة القراءة الواحدة، فيتعامل مع الكتاب كأنه عود ثقاب غير قابل لإعادة الإشعال، أو تذكرة قطار لا يجوز فيها إعادة الاستعمال! دون تمييز في ذلك بين كتاب خفيف الوزن يكفيه طلّة واحدة، وبين كتاب ثقيل العيار تعدّدَت فيه الأغراض والمقاصد التي تستعصي على الإمساك بها عبْر قراءة واحدة. ولعلّ ذلك راجع إلى قصور الهمّة من جهة، وإلى مفهوم القراءة الاضطرارية مِن جهة أخرى؛ وهي التي يلجأ إليها بعضُهم لاستدعاء النوم أو طرْد الوحشة لا غير.

١٣ - ضع بصمتك

كلما أمسكتُ بقلمي الرصاص ذو السنّ الدقيق لأخربش به كتابًا أقرأه؛ تذكّرتُ زميل الدراسة الذي كان يأنف أن يضع النقطة في كتابه، حتى لَيبقى الكتابُ بين يديه عامًا كاملًا، ولكنك إنْ طالعْته حسبْته خرج لتوّه مِن فم المطبعة دون أن تمسّه يد أو تمرّ عليه عين! والواقع أنّ هذه حساسية مفرطة وإيغال في الدقّة والنظام -وقد كان زميلي بالفعل هكذ-؛ فالكتاب وسيلة تعليميّة يَحلّ لك أن تفعل

به ما تشاء في سبيل الحصول على أكبر فائدة. أضِف إلى ذلك أن هذا يهدم بعضًا ممّا قاله علماء النفس، مِن أنّ في الإنسان غريزة تُميّزه، بل وتُعَدّ من أقوى غرائزه، وهي غريزة التملّك التي نجدها بارزة في غير مكان، ونراها تعبِّر عن نفسها بأكثر من لسان؛ فتارة يكون التعبير خشنًا ويصل إلى الظلم والسلب والقتل،

وتارة يكون تعبيرًا ناعمًا مُستحَقًّا ليس به عيْب أو ضيْر؛ كما هو الحال مع رسّام يوقّع اسمه في زاوية لوحته، ومع نجّار ينحت اسمه على كرسي مِن صنْعته، ومع كاتب يصدِّر كتابه بصورته.

وهو بالضبط ما يفعله القارئ بكتابه حين يقرأه؛ فيوقّع اسمه في أوّله، ويذيّله بتاريخ الشراء وزمن القراءة ومكانها، ثمّ يدلف إلى الهوامش فيدوّن بها ما يحلو له من ملاحظات، وقد يختم بتسطير انطباعاته الشخصية عن عموم الكتاب. ولا شكّ أنّ في هذا تفاعلٌ مع القراءة بتشغيل أكثر مِن حاسة، واستغراقٌ في النص عبر تسجيل الخواطر والأفكار التي تتحدّر مِن سماء عقولنا وتتولَّد عبر إعمال تفكيرنا، وهو إحدى علامات القارئ المثالي التي عدّدها ألبرتو مانغويل في كتابه (فنّ القراءة). وكما كان القلم سلاح الكاتب الذي طعن به الصفحات، فليكن القلم أيضًا سلاح القارئ لمبارزة ما سطَّره الكاتب مِن كلمات، وإلّا كان القارئ كزائر السلطان يدخل أعمى ويخرج أبكما! بل إنّ هذه الخواطر التي تتوسّد هوامش الكتاب وتغفو على حواشيه، قد تفوق في جمالها وعمقها النص المكتوب، حتى لتشكِّل بمفردها نواة لكِتاب عند الحاذقين المتفنِّنين من القرّاء.

وكم كانت هذه التعليقات والحواشي التي تتضمّن نقدا أو شرحًا أو إضافة، بمثابة الدّرر بين ثنايا كتب العلماء والمفكّرين، فترفع من قيمتها الماديّة والمعنويّة إذا ما قدِّر لها الخضوع للبيع والشراء. وفي هذا يقول الإمام الشافعي: «إذا رأيتَ الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فاشهد له بالصحة».

مع الحرص على أن تكون تلك الخربشات لطيفة كلطافة فعل القراءة، وأنيقة كأناقة الفائدة المرجوّة منها؛ فالقلم الدقيق أداتها، والرموز والتعبيرات والألوان زينتها، والتعليقات الموجَزة ديْدنها، وإلّا تحوّل الكتاب إلى زحام تَمجُّه العين وتملّه النفْس. ولا مانع من الاستعانة ببعض الوريْقات، وتسجيل الملاحظات عليها، ثمّ إرفاقها بين صفحات الكتاب، وهي ما تُعرف بالطيّارة.

وفي هذا المعنى يقول ساجد العبدلي: «الكتاب ليس تحفة أثرية أو مزهريّة لتخاف عليها من العلامات والتجريح، بل هو وسيلة للمتعة والمعرفة، لذلك خذ راحتك بطيّ الصفحات التي تريد العودة إليها، وكذلك لا تتردّد بالكتابة

على الهوامش بقلم الرصاص. اكتب ملاحظاتك وأفكارك ومشاعرك حول ما تقرأ، لتصنع بينك وبين هذا الكتاب حالة من الارتباط والشغف، لكن تَذكَّر: لا تفعل ذلك إلّا إذا كان الكتاب ملكك طبعا». ويوافقه تماما ألبرتو مانغويل بقوله: «أحيانًا تنتاب قارئ ما رغبة بإمساك القلم والتواصل بكتابة الهوامش على النص، هذا التعليق وهذه الهوامش وهذه الكتابة الظلّ التي تُرافق أحيانًا كتبَنا الأثيرة، تُوسِّع من النصّ وتنقله إلى زمن آخَر، وتجعل من القراءة تجربة مختلفة».

١٤ - لخِّص كتابًا

تَمشِّيا مع طبيعة عصرنا الذي يُدار بالأزرار؛ فيركض ركض الخيول في الميدان، ويمتاز بانفجار المعارف وانقلاب المعلومات؛ فإنَّ ألسنة المطابع لا تتوقّف عن اللهاث، لِتتحفنا يوميا بأكداس فوق أكداس من الكُتب الجديدة التي تطالبنا بالوفاء بحقّها والبدء في قراءتها، ولو قدِّر للمرء -كما قال عبد الكريم بكّار- أن يقرأ في حياته ستّين سنة، وقرأ في كلّ أسبوع كتابا، فإنه يكون قد قرأ نحوا من ثلاثة آلاف كتاب، وهو رقم متواضع جدّا بالنسبة إلى ما هو منشور.

ولأنّ طُرق الكتب بعيدة، وخُطى العمْر قصيرة، وحياتنا باتت معقَّدة؛ فإنّ الكثيرَ مِن القرّاء يلجؤون إلى البحث عن ملخّصات الكتب ومختصراتها، ليُشبع الواحدُ منهم بعضا من غليله ويَروِي نزْرا من عطشه، على قاعدة أنَّ ما لا يُدرك كلّه لا يُترك كلّه، وعلى نهج الزِّركْلي الذي سطّر في مقدّمة كتابه الشهير(الأعلام) قائلًا: «ويقتضي العصر الذي نعيش فيه، أن يكون لنا كتب

يجتزئ - يستغنِي- بها المعجل منّا عن مطوّلات السّير وضخام أسفارها». وفي هذا كانت المواقع الإلكترونية التي سطّرت للكتب مختصَرات ومراجعات، وعملت كفواتح لشهية القراءة، كما كانت المُختصَرات التي أَوْجزت المؤلّفات الطوال، مثل مختصرات الكتب الستّة وغيرها، والتي لولاها لما اقْترب الكثيرون منها ولا دَروا شيئا عنها...ومعلوم أنّ الاختصار هو أحد ضروب التأليف ومقاصده السبعة التي حصرها الإمام أبو محمد (ابن حزم) في: شيء لم يُسبق إلى استخراجه فيستخرجه، أو ناقص فيتمّمه، أو مخطّأ فيصحّحه، أو مستغلَق فيشرحه، أو طويل فيختصره، أو متفرِّق فيجْمعه، أو منثور فيرتّبه. ومعلوم أيضًا أنّ كثيرًا من السلف قد قاموا باختصار عشرات إن لم يكن مئات الكتب، ومنهم ابن منظور الذي قال فيه المؤرِّخ الصفدي: ما أعرف في كتب الأدب شيئا إلَّا وقد اختصره صاحب لسان العرب ابن منظور.

ولا شكّ أنّ في عصر السرعة هذا، يصبح تلخيص كتاب قرأه أحدُنا وارتأى فيه فائدة؛ هو من قَبيل الإحسان إلى غيره مِن القرّاء، خاصة إذا كان الملخَّص متقَنا ووافيا؛ فأَوْرد الأفكارَ الرئيسية بتوازُن ودون بتر، وحافظ على

تنسيق الكتاب دون أن يقدِّم أو يؤخِّر في أبوابه وفصوله، وسرَد الأمثلةَ التي يستعين بها المؤلِّف للتدليل على فكرته ولكن دون تكرار وإسهاب، وأَدرج معلومات الكتاب الأساسية المتضمِّنة لعنوان الكتاب واسم المؤلِّف ودار النشر وسنة الطباعة وعدد الملازم والصفحات، ولا ضير إنْ سجّل في ذيل الملخّص انطباعه عن الكتاب ولو في سطور قليلة، مع ملاحظة أنّ التلخيص أفيد ما يكون في الكتب العلمية والفكرية عنه في الكتب الأدبية.

ولأنّ الماء لا يمرّ على ظمآن حتى يرتوي منه، فإنّ تلخيص كتاب -وإن استفاد منه آخَرون- لا يعدم تثبيت القراءة وتحسين الاستيعاب لدى مَن قام بالتلخيص، كما يكسبه مهارة الكتابة المركَّزة المكثَّفة، ويعمِّق نظرته ويولِّد الثقة في نفسه، علاوة على الأجر والثواب الذي يصله مِن حيث لا يدري ولا يحتسب. وبرغم أنّي كثيرًا ما ألجأ إلى البحث عن هذه الملخّصات، وأعمد إلى الاستفادة منها والدعاء لَمن قام بها؛ إلّا أنّ عميد القراءة ألبرتو مانغويل له رأي مغاير يقول فيه: «لا أحب أن يُلخِّص لي أحدٌ الكتب التي أنوي قراءتها، لا بأس أن يُشوِّقني بعنوان أو مشهد أو اقتباس، لكن ليس بكلّ أحداث الكتاب».

ومع أنّ الفئام من الكُتّاب الأقْدمِين، كانوا يأنفون من اختصار كتبهم حين يُطلب منهم ذلك، ويتأفّفون إن وجدوا مَن تجرَّأ وأقدم عليه؛ خشية الانتقاص أو الإخلال أو التأويل، أمثال صاحب معجم البلدان (ياقوت الحموي) الذي احتدّ واشتدّ قائلًا: «اعلم أنّ المُختصِر للكتاب كمن أقدم على خلْقٍ سويّ؛ فقطَّع منه أطرافَه، وتركه أشلّ اليديْن، أبتر الرجليْن، أعمى العينيْن، أصْلم الأذنيْن. وكمَن سلب المرأة حليّها فتركها عاطلا. أو كمن سلب الكَمِيَّ سلاحَه فتركه أعْزل راجلا»... فإنّ الفيصل يكمن في عدم الاكتفاء بالملخَّصات والحذر مِن الاستغناء بها عن الكتاب الأصلي؛ لِما في ذلك من إيثار للراحة العقلية التي تولِّد البلادة وتعطِّل آلة التفكير وترهِّل عضلة البحث والتنقيب، بناء على القاعدة الذهبية التي تقول: «العضو الذي لا يُستعمل يَضمر». في حين أنّ قراءة الكتب الأصلية تُمكِّننا الغرْف من النبع، وتعلِّمنا السباحة في النهر، وتحفِّزنا على الغوص في الأعماق.. ومعلوم أنّ الدرّ في الأعماق لا على الشاطئ، والذهب في الجبل لا في السّهل.

ولعلِّي لا أُرائي، إن ذكرتُ أنني في إحدى الرمضانات، وبعد أن ساءني هجرُ الأيادي لمكتبة المسجد العامرة بمئات كتب الفقه والحديث والسيرة والتفسير، أَقدمتُ على تلخيص يسير لنحو ثلاثين كتابا تضمّها المكتبة، وسُقتها شفاهة في ختام جلسة التلاوة المنعقِدة بعد صلاة العصر يوميا، وفيما لا يزيد عن دقائق معدودات، أَذكر فيها نبذة عن المؤلِّف ومضمون الكتاب وأبوابه وفصوله واقتباسات من أجمل الخلاصات والفوائد؛ وذلك بغرض لفت الانتباه إلى مكتبة تقاسي الهجران والوحشة، وإلى كُتب خطَّها مؤلِّفوها لا لتنام على الرفوف، بل لتنير العقول وتنعش الأرواح. وكم كانت دهشة بعضهم حين علموا بأنّ هذه الكتب النفيسة موجودة ضمن رفوف هذه المكتبة، وأنها على أهبة الاستعداد لتركض ركض الخيول بين أيديهم إن أرادوا. وليس سرّا أنه كان من بين تلك الكتب؛ (لطائف المعارف) لابن رجب الحنبلي، و(أبطال ومواقف) لأحمد فرح عقيلان، و(ترجمان السنّة) لعائض القرني، و(تنبيه الغافلين) لابن النحاس، و(تعظيم قدر الصلاة) لابن نصر المروزي، وغيرها.

١٥ - قراءة الكاتِب

قُل لي لماذا تقرأ، أقل لك كيف تقرأ؛ فبقدر تعدّد الأهداف التي نتغيّاها مِن وراء القراءة، تتعدّد وسائلُنا في ممارستها؛ فمَن يقرأ للدراسة والاختبار والنجاح، غير الذي يقرأ للتسلية وإزجاء الوقت والبحث عن المتعة، غير الذي يقرأ بحثًا عن معلومة أو توثيقا لحدَث، غير الذي يقرأ بغرض التأليف والكتابة. وبين هؤلاء وأولئك؛ ستجد القارئ العصفور الذي يحلّق عاليا وبالكاد يلتقط العناوين، وستجد القارئ الصقر الذي يحطّ على الصفحة والصفحتيْن فيقتنص صيده ويرحل، وستجد القارئ الفراشة الذي يقفز بخفة ورشاقة وتكفيه الطرفة والحكاية، وستجد القارئ النحلة الذي يحفر بأناة وعمق فيظفر بالرحيق ويجني العسل.

وقد سلَّطت سلام خياط الضوء على أحد تلك الكيفيّات القِرائية، فوصفَت الكاتب حين يقرأ، بقولها: «إنّه يتريّث عند كلّ مقطع، ليتمعّن في جماليات الكلمة وجدائل الجملة. يبحر ويرسو في ميناء الرأي والفكرة، يتساءل

وهو في خضمّ سياحته الماتعة تلك: ما الذي حبّب هذا الكتاب إليه، ما الذي كرّهه فيه، لماذا أثاره هنا وحرّك كوامن حُزنه هناك؟ كيف انتهج المؤلّف أسلوبَه ذاك؟ هل الأسلوب سلس أو معقّد، مبهَم أم واضح؟ كيف تمّ بناء الشخصيات وهندسة الأحداث، هل الحوارات مقنعة والسرد واف، هل هي ضامرة وشاحبة لم تروِ ظمأ ولا أشبعت فضولا؟ هذه الأسئلة وغيرها ممّا لا يحصرها عدّ، لا تمنحنا لذّة المتعة فقط، ولا تشحن الذهن فحسب، إنّما تضيف إلى القدرات قدرة وإلى المخيلة خيالا، وتُطوِّر في إمكانات الكاتب الكتابية والثقافية، والتي لا غنى ولا مندوحة عنها لكلّ أنملة خطّت على قرطاس».

وهو ما عبّر عنه الكاتب المغربي إدريس هاني حين وصف قراءته بقوله: «قراءتي لم تكن قراءة مجرَّدة من أيّ نشاط ذهني آخَر، بقدر ما هي جدل داخلي وتأمّل وتفكّر متواصلان. فالقراءة كانت بمثابة باعث يحرّك في ذهني عملية التفكير ومشاركة الكاتب إن لم أقل مسابقته في بلوغ أفكار، أو لنقل: إنّ القارئ هنا لا يقرأ الكتاب فقط، بل يقرأ أفكار الكاتب ويمارس بالتوازي إعادة بناء النص. إنها لو شئت حالة من التناصّ الباطني الذي يلازم القارئ عبر غواية

القراءة. لذا كنت لا أحبذ المطالعة في المكتبات، ولا حتى في الأماكن المكتظة بالناس، لأنه يهمّني أن أناقش الكتاب كما لو كان كائنا حيا وأنخرط في جدله بصوت رفيع». وكذلك الكاتب هنري ميللر الذي قال: «عندما أستعيد الماضي يبدو لي أني كنت دائما أقرأ وأنا في وضع صعب. لكن ما كنت أقرأ ه كان يتغلغل داخلي. والمعنى هو، أنِّي عندما أقرأ أفعل ذلك بانتباه ثابت وبكل ما أملك من قدرات».

وهكذا يَرِد الكاتبُ النصّ، فيقرأه بروح الثقافة العالية التي تتخطى غايات المتعة والفائدة إلى غاية الخلْق والإبداع، ويعمَد إلى الكلمات؛ فيَزِنها، ويتحسَّس نبضها، ويعدّ أنفاسها، ويتفحّص حرارتها، ويستفسر عن جيرانها، ثمّ يحلِّق بعيدا عنها ليراها بنظرة الطائر ويقظة الطيّار، قاصدا تكوين فكرة كليّة؛ ففي القُرب حجاب الشمول وفي البُعد حجاب الدقّة، بينما كلا الرؤيتيْن تكمِّل إحداها الأخرى؛ فنظفر بالدقّة والشمول معا.

ولعلّ هذه هي القراءة المُثلى والمطالعة المأمولة؛ بحسبانها الأعلى سعرًا والأجْود نوعا والأنْضج ثمرا، ولِما امتازت به من حضور ذهني وتأمّل روحاني،

لا يشبهه إلّا التبتّل في المحاريب والرهْبنة في الصوامع والنبْش عن كنوز الآثار. ولاريب أنّ صاحب هذه القراءة هو القارئ المثالي الذي حلم به ملك القراءة ألبرتو مانغويل، فوصفه بقوله: «القارئ المثالي هو القادر على تشريح النص، وسلخ الجلد، وتقطيع اللبّ إلى شرائح، ومتابعا كلّ شريان وكلّ وريد، ومن ثمّ يُوقِف كائنًا واعيًا جديدًا بالكامل على قدميه».

١٦ - الرَّفّفي

هل سمعتَ عن القارئ الغلاف أو القارئ الواجهة؟ إنّه المهموم بمكان المكتبة وشكلها وترتيبها وحجمها، والمشغول بالحديث عن عناوين الكتب لا مضامينها وعن أغلفتها لا أفكارها، وهو مَن يُعمِل فيها يدَه لا عقلَه وينفق عليها مالَه لا وقتَه ويتباهى بما فيها لا بمَن فيها، وهو باختصار بهلوان الكتب الذي يُمارس فنّ الاستعراض فيما لا فنّ فيه.

وإنْ شئت على ذلك مثالا حيّا، فهاك ما ذكره المقرّي التلمساني في كتابه (نفح الطيب)؛ مِن أنّ مناديا نادى بسوق الورَّاقين على كتاب حرص العالِم (أبو القاسم الحضرمي) على اقتنائه، وثمّنه بديناريْن، وإذْ بشاب يُزايد على أبي القاسم في الثمن حتى أوصله إلى خمسين دينارا، فدُهش أبو القاسم وقال للشاب: إنك قد بالغتَ مبالغة مسرفة حين عرضتَ الخمسين، وما كان هذا المجلّد لِيزيد عن خمسة دنانير على الأكثر! فما سبب رغبتك فيه؟ فقال الشاب: لستُ ممّن يقرؤون الكتب، ولكنّي هيّأتُ خزانة علمية أدبية للمباهاة، وقد صرفتُ عليها كثيرًا ممّا

أملك، وأعيان البلدة يؤمُّونها ويُطالعون ما بها، فأشعر بالفخر والإعجاب، وقد تأمّلتُ الكتاب فوجدته حسَن الخطّ والورق والتجليد، فقلت: والله لن يفلت من خزانتي، والحمد لله على ما أنعم، فإنّ الرزق كثير، فخشع أبو القاسم الحضرمي، وقال في أسف: نعم: الرزق كثير عند مثلك، ويُعطي الله الجوزَ لَمن لا أسنان له.

وقد أَحسن محمد آيت حنا حين نزع صفة القارئ عن مِثل هذا الشاب، وصنّفه جامعا لا قارئا ومُقتنيا لا مُطالِعا، ثمّ ميّز بينهما قائلًا: «يُكوِّن القارئُ علاقة مميّزة بكتبه، لكنّه يستحضر هذه الكتُب في الغالب الأعمّ كأفكار، وكمضامين تجترّها ذاكرتُه بدرجات متفاوتة من الشدّة والخفوت، وبالطبع يبني أيضًا علاقة جسدية بالكتب. لكن حضور الكتاب كمُعطًى ذهنيٍّ مجرَّد (أفكار واحدًاث وذكريات) يفوق حضورَه المادي. وعلى خلاف ذلك، يَعني الكتاب في المقام الأوّل بالنسبة للمُقتنِي وجامِع الكتب (والقارئ أيضًا قد يكون مقتنيا جامعا للكتب)، مادّة محسوسة، شيئا له وجود فيزيائي مادّي، ويَشغل حيّزا خارج الذهن».

وقد ترصّدَت دُور النشر لهذا النوع الغلافي من القرّاء، فاعتنوا غاية العناية بالأغلفة؛ وذلك بناء على دراسة أفادت أنّ ٢٠٪ من الناس يشترون الكتاب تحت وطأة الأغلفة الجذّابة التي تنطوي على قدر عال مِن الجمال والأناقة والفخامة، واعتمادا على ما ذكره أورهان باموق بأنّ عناوين الكتب مثل أسماء الناس؛ فهي تساعدنا على تمييز الكتاب مِن بين مليون كتاب آخَر يشبهه، لكنّ أغلفة الكتب مثل وجوه الناس؛ إمّا أنها تذكرنا بسعادة عرفناها ذات يوم، أو أنها تَعِد بعالَم مبارَك مازال أمامنا أن نستكشفه. وهذا هو السبب في أننا نحدِّق في أغلفة الكتب بمودّة كما نفعل مع الوجوه.

ولهذا حذّر محمد آيت حنا مِن تخمة الكُتب التي تؤدّي إلى الخمول القرائي، وفضَّل عليها ندرة الكتب التي تظلّ محَوطة بالشغف، وذلك حين قال:»لن نختلف في أنّ مشاكل القارئ تكاد تتموقع كلّها بين حدّي الشحّ والوفرة. أن لا تجد ما تقرأه، بحيث تصير محكوما بشكل أبديّ بقراءة وإعادة ما قرأْتَه مرارا؛ أو أن تزدحم عندك الكتب بحيث تفقد القدرة على القراءة تدريجيا وتتحوّل إلى

مجرّد مُقتنِي كتب. بالطبع الوفرة أخطر مِن الندرة؛ فقانون الندرة يُحفِّز حواسك القرائية كلّها، بينما تُلقي بك الوفرةُ تدريجيا إلى مَهاوِي الخمول».

وفي هذا رُوي أنَّ رجليْن استبّا (أي تَشاتما)، فقال أحدهما للآخَر: يا رفَفي، فانخذل ذلك الرجل وظنّ أنّه قد قابله بشيء عظيم، ثمّ مضت الأيام، فاصطلحا، وتمازحا ذات يوم، فقال الآخَر لصاحبه: كنا استبَبْنا يوم كذا وكذا، وقلت لي يا رفَفي، فما الرفَفي؟ قال: رأيتك تكتب العلم وتضعه على الرفّ (أي تجمع الكتب وتكدّسها على الرفوف دون أن تقرأها).

١٧ - الإعارة والاستعارة

للناس في إعارة كتبهم آراء متضاربة، تتراوح بين المنع المطلَق أو المقيَّد، وبين البذْل المشروط أو غير المشروط، ولكلٍّ حجّته ومنطقه، وما ظلَم مَن حكَم في ماله؛ فمِن جهة نجد الكاتب هنري ميللر يدعو وبإلحاح إلى إعارة الكتب بقوله: «الكتب هي أحد الأشياء التي يدلِّلها البشر بعمق، وكلّما كان الإنسان راقيا تَشارَك بشكل أسهل مقتنياته العزيزة، وكتاب يتمدّد بتكاسل على رفّ هو ذخيرة ضائعة سدى. وكالمال، يجب جعل الكتب في حالة تداول مستمر، اسْتعِر وأَعِر إلى أقصى مدى، فالكتاب ليس فقط صديقا، بل يصنع لك أصدقاء، وعندما تمتلك كتابًا ذا عقل وروح تَغتني، ولكن عندما تعطيه لشخص آخر تغتني ثلاثة أضعاف». وكذلك الإمام أحمد ابن حنبل الذي يَرى في البخل بالكتاب عار بقوله:

لِكُتُب العِلمِ كُن دَأْبا مُعِيرا ولا تَبخل فإنَّ البُخلَ عارُ

والقاضي وكيع الذي يعتقد أنّ أوّل برَكة العلم إعارة الكتب.

ومن جهة أخرى؛ فإنّ الكاتب الأمريكي أناتولي بروريارد، يُوجع قلبَك ويعتصر كبدك حين يَروي تجربته مع إعارة الكتب قائلًا: «إجازة الصيف هي الوقت الملائم للقراءة، وأصدقائي يأتون إلي في هذه الفترة لاستعارة الكتب مني لأنني أملك كتبا أكثر منهم جميعا. ولكنهم لا يعرفون ما أمرّ به حين أعيرهم هذه الكتب. لا يفهمون أنني أفكر في نفسي وكأنني أعطيهم الحب والحقيقة والجمال والحكمة والعزاء أمام الموت. ولا أظنّ أنهم يعلمون أنني أشعر حيال إعارتي لكتبي كما يشعر معظم الآباء حين تغادر بناتهم للعيش بعيدا عنهم. وفي اللحظة التي أُعير فيها كتابًا لأحد، يبدأ اشتياقي إليه. والكتاب الغائب عن الرفّ يصبح فجأة أكثر أهمية من جميع الكتب الموجودة؛ يذهب عقلي مباشرة للفراغ الحزين على الرف. طمأنينتي تحطّمت، توازُني اختلّ، تأثيري أصبح مشوَّشا حتى يعود كتابي إليّ. وأتذكّر في إحدى روايات فيليب روث، حين تزوج أحد أبطال القصة من فتاة فقط كي يتمكّن من استرجاع الكتاب الذي أعاره إياها. أصدقائي ليسوا فقراء، ويخطر في بالي سؤال متكرّر: إذا كنتَ حقا تتمنى قراءة هذا الكتاب، إذا كنتَ جادًا في الأمر، لماذا لا تذهب وتشتريه؟ لماذا لا تتعامل مع الكتب كما

تتعامل مع بقية السلع التي تشتريها يوميا؟». كما رُوِي أنّ أبا العتاهية أتاه أحدُ إخوانه وقال له: أعِرني دفتر كذا وكذا، فقال: إني أكره ذلك، فقال المستعير: أما علمتَ أن المكارم موصولة بالمكاره؟! فخضع أبو العتاهية لمنطق الرجل ونزل على رغبته ودفع إليه ما أراد من الدفاتر.

وقد استقْصى الشيخ محمد خير رمضان أحوال إعارة الكتب، وسجّل خُلاصة ذلك بقوله: «أكثر الأخبار الواردة في إعارة الكتب هو السماح بها وبذلها لأهلها، بل ورد ما يفيد الترغيب في ذلك والترهيب من عدمها. لكن الإذن بالإعارة فيه أنواع ومطالب. فقد يكون بذلها هكذا سماحة وكرما من صاحبها بدون قيد أو شرط. وقد يكون المرء ضنينا بكتابه لكنه يخشى الإثم من إمساكه فيعيره ديانة. وقد يتردّد في إعارته ولا يدفعه إلى المستعير إلّا بعد تذكير وإلحاح. وقد يُمسكه ولا يُعطيه إلّا بعد أن يتأكّد مِن أنّ طالبَه صاحب قراءة وانتفاع، وليس من نوع اللامبالِين الذين يضعون الكتاب على الرفّ ولا يأبهون لإعادته. أو هو لا يُعير إلّا لأخي ثقة يعلم أنه سيرده إليه. أو لا يدفعه إلّا برَهْن؛ مِن كتاب أو قيمته، أو آلة نفيسة أو مال أو دابّة، ولعلّه أكثر ما يكون».

أمّا الشيخ بدر الدين بن جماعة؛ فقد فصّل في آداب الاستعارة بقوله أنه «ينبغي للمستعير أن يشكر للمُعير، ويجزيه خيرا ولو بالدعاء، ويردّ الكتاب بعد فراغ حاجته أو عند طلب مالكه. ولكن لا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه، ولا يُحشِّيه، ولا يكتب شيئا في بياض فواتحه أو خواتمه إلّا إذا علم رضاء صاحبه، ولا يُعيره غيرَه. كما ليس له أن يَنسخ منه بغير إذن صاحبه؛ إذْ مطلق الاستعارة لا تتناول النسخ إلّا إذا قال له المالك: لِتنتفع به كيف شئت، وإذا نسَخ منه أو طالَع فيه فلا يضعه في الأرض مفروشا منشورا، بل يجعله بين شيئيْن أو على كرسيّ لئلّا ينقطع حبكُه».

ومن طرائف ما رُوِي في إعارة الكتب واستعارتها؛ أنّ رجلا استعار من (أبي حامد الإسفراييني) كتابا، فرآه أبو حامد يومًا وقد أخذ عليه عنبا. ثمّ إنّ الرجل سأله بعد ذلك أن يعيره كتابا، فقال: تأتيني إلى المنزل، فأتاه، فأخرج الكتاب إليه في طبق وناوله إياه؛ فاستنكر الرجل ذلك، وقال: ما هذا؟ فقال له أبو حامد: هذا الكتاب الذي طلبته وهذا طبق تضع عليه ما تأكله. فعلم بذلك ما كان من ذنبه. كما رُوِي أنّ رجلا سأل رجلا أن يُعيره كتابا فقال: عليّ يمين

ألّا أعير كتابا إلّا برهْن، قال: فهذا كتاب استعرْته مِن فلان فأتركْه رهْنا عندك. فقال: أخاف أن ترهن كتابي كما رهنْت كتاب غيري. بينما سلك القاضي أبو الوليد الكناني مسلكا عجيبا؛ إذْ كان يعير الكتاب، ولكنه لا يُبقيه عند المستعير إلّا أياما تساوي عدد أوراق الكتاب، على اعتبار أنّ يومًا واحدًا كاف لقراءة صفحة أو نسخها.

وقد كان الروائي الفرنسي أناتول فرانس صريحا إلى أقصى درجة حين قال:» «لا تُعِرْ كتبك لأحد فإنّه لن يعيدها، ولو فحصتَ مكتبتي أنا مثلا، لما وجدتَ فيها إلّا الكتب التي استعرتُها من الناس». ومِثله في ذلك، مَن تفكَّه مِن أهل الأدب، فكتب أبياتا مِن الشعر في ورقة، وإذا جاءه مَن يستعير كتابا ناوله الورقة، فإذا قرأها الطالب، أُسقِط في يده ومضى إلى حال سبيله...وتقول الأبيات:

ألا أيّها المستعيرُ الكتابَ ... ألا ارجــعْ بـغـيرِ الذي تطلبُ

فلمْس السماءِ وأخْذ النجومِ ... بـكـفِّـك مِــن أخْــذه أقــرب

فدُم ما بقيتَ على اليأس منه ... فـلـيـس يُـعــار ولا يُـوهَـب

والواقع أنّ نزعة الإعارة والاستعارة عموما، في الكتب وفي غيرها من وسائل الحياة، قد تراجعت كثيرًا مع زحْف المدنية وهيمنتها على سبل المعيشة؛ فبعد أن كان الناس بأريحية يُعيرون الملح والسكر ويستعيرون الزيت والسمن وغيرها من مقوّمات العيش، سادت حالة من الاستقلالية والخصوصية، وتوارَت أخلاقيات المشاركة والمقاسمة، حتى داخل البيت الواحد، وهو ما ألقى بظلاله على مبدأ الإعارة والاستعارة في ذاته.

١٨ - توقير الكتب

معلوم أنّ الوسائل تشرف بشرف الغايات، وبِقدر ما للقراءة من مكانة وتقدير واحترام في النفوس، بقدر ما يناله الكِتاب من مكانة وتقدير واحترام. وتوقير الكتاب ثقافة لابد مِن غرسها، وتربيةٌ يجب تنشئة الأطفال عليها؛ واقْرأ في ذلك ما سطَّرته عابدة المؤيّد حين قالت: «لقد كان التعامل مع الكتب عند جدّي (على الطنطاوي) عِلما لا بد من إتقانه؛ لذلك كان يعلّمنا طريقة تناول الكتاب عن الرفّ بحيث لا يَفسد غلافُه: فنضع السبابة على الطرف العلوي من حرفه الخلفي ونُميله برفق حتى نتمكن من إمساكه بيدنا، ثم نسحبه. أمّا تقليب الصفحات فإنّ له فنّا آخَر: فكان يمنعنا منعا صارما من لعق أصابعنا قبل قلب الصفحة، أو الضغط على الورقة بشدة في زاويتها اليسرى لقلبها. أمّا الأسلوب الصحيح للتقليب؛ فهو جذب الورقة بسبابة اليد اليسرى (بمساعدة الإبهام والوسطى) من الزاوية العلوية اليسرى للكتاب، جذبا إلى الأعلى لا ضغطا إلى الأسفل! ثمّ كان يحظر علينا أن نضع داخل الكتاب قلم رصاص أو كتابا آخر أو

أي شيء يزيد سمكه عن ورقة، فضلًا عن قلب الكتاب وهو مفتوح، لأن ذلك يُفسِّخ كعبَه ويُفرِّق ملازمَه». وهو ما درج عليه أيضًا فيلسوف فرنسا ومفكِّرها (سارتر) بقوله: «بدأتُ حياتي وسط الكتب، ففي مكتب جدّي كان ثمّة كتب في كلّ زاوية ومكان، وكان من الممنوع على أيّ كان أن يدنو من المكتب. في ذلك الحين لم أكن بعد قد تعلَّمتُ القراءة، لكنني تعلّمتُ تبجيل الكتب. كنت أراها مثل الحجارة المصقولة المرصوصة، سواء صُفَّت جالسة أو منحنية، مكدَّسة بعضها إلى بعض فوق رفوف المكتبة، أو موضوعة بكل نبل بعيدة بعضها من بعض. كان يخالجني شعور غامر بأنّ ازدهار عائلتنا معلّق بها». بينما ذهب أنيس منصور أبعد من ذلك حين نظر إلى المكتبة نظرة إجلال وتقديس، وطالب بخلع الأحذية على أبوابها؛ وكأنها محاريب صلاة وصوامع عبادة.

ولأنّ القراءة -كما هو ماثل للعيان- في وضع لا يَسرّ إلّا العدو ولا تُسئ إلّا الصديق؛ فتوقير الكتاب واحترامه يعيش أزمة فعلية حتى ليسكب الهمّ في نفوس المهتمِّين بشأن القراءة والكِتاب، وهو ما عبَّر عنه أحدُ الناشرين العرب (محمد عدنان) بقوله: «الكتاب في وضعه الراهن سلعة تَفتقر إلى الاحترام؛ لأنها غير

مطلوبة، وإنّ عدم الاحترام للكتاب ليبدو في طريقة تعامل الناس معه...فالمُستعير لكتاب؛ لا يفكّر بردّه إلى صاحبه، إلّا إذا ألحّ صاحبُه في طلبه، ولو أنه استعار سلّما أو ماعونا أو شاكوشا لبادر إلى رده فور انتهائه من استخدامه. وبائع الكتب يماطل في دفع قيمة الكتب التي طلبها من الناشر، ولا يدفعها له إلّا بعد أن يُعْيِيه من طول الانتظار، ولو أنّه اشترى شعيرا أو ملابس أو قرطاسية، لبادر إلى تسديد ثمنها في أجَلها، أمّا إذا كانت الكتب مُرسَلة إليه بدون طلب، بقصد عرضها للبيع، فالويل كل الويل، وعلى الناشر أن يدفع ثمن غلطته، حتى لو بِيعت كتبه بأكملها. وإنّ من أفدح مظاهر عدم الاحترام للكتاب؛ استباحة حقوق الإبداع، بالسرقات الأدبية تارة، وبقرصنة النّشر وتزوير الكتب تارة أخرى».

وقد رُوِي أنّ بعضَ الحكماء رأى رجلًا قد جلس على كتاب، فقال: سبحان الله يصون ثيابه ولا يصون كتابه، لَصوْن الكتاب أوْلى من صوْن الثياب». وفي هذا قِيل: «لا تجعل كتابك بوقا ولا صندوقا»، أي: لا تَلوِه على بعضه فيكون كهيئة البوق، ولا تُكثر من وضْع الأشياء فيه فيكون بمثابة الصندوق. كما ذكَر الزِّرِكْلي في أعلامه، أنّ أحد علماء المغرب وصالِحيها، ويُدعَى محمد الدِّرعي، كان جمّاعًا

للكتب حفيّا بها، وبرغم أنه كان ينام مع أهله على التراب بعد أن قَصُرت يدُه عن شراء فراش أو حصير، فإنّه لّما أَهدى إليه أحدُ تلاميذه حصيرا آثر أن يضع كتبَه عليه، وكأنّ كتبَه أغلى عليه من نفسِه وأهله! وقريب من هذا الإجلال والتوقير؛ ما سطَّره ظافر القاسمي في ترجمته لأبيه الشيخ جلال الدين القاسمي قائلًا: «منذ أدركت ووعيت، وأنا أسمع أن في بيتنا كنزا لا يعدله كنز، وهو كتاب التفسير (محاسن التأويل) الذي أفنى الوالد عمره في تأليفه، ويقع في اثني عشر مجلّدا. وقد بتنا ليلة في بيتنا الذي يقبع في أحد أزقّة مدينة دمشق، وإذا بمدافع الفرنسيين تقصف المدينة وتحرقها بالقنابل، وذلك في عام ١٩٢٥م، ولم يغمض لنا جفن طول الليل. وقبيل الفجر، أحسسنا في الحي ضجيجًا غير معتاد، ولما خرجنا نستطلع الأمر، رأينا الناس يزحفون من بيوتهم كيوم الحشر، ويحملون في أيديهم ما غلا من متاعهم، وكانوا يقصدون حي العمارة الآمن، لأنَّ القنصل الإنجليزي مقيم فيه، ولا تجرؤ فرنسا على ضرب هذا الحي. فعدنا إلى البيت، وحمل كلُّ أخ مِن أخواي الكبيرَيْن خمسة مجلّدات من كتاب أبي في التفسير، بينما حمَّلوني مجلّديْن لصغر سني، وانطلقنا إلى حي العمارة».

١٩- كيف تنظِّم مكتبتك؟

على طريقة المعادلات الرياضية يمكننا القول أنّ القراءة تعني الكتاب، والكتاب يساوي مكتبة. ولعلّ أفضل ما يبرّ به أبٌ أولادَه أن يؤسّس لهم مكتبة أو نواة مكتبة؛ فتكون له صدقة جارية يترحّمون بها عليه ويمطرونه بالدعاء مع كلّ مطالعة، كما تكون فتْحا لهم على طريق المعرفة والثقافة، وربّما عَظمت المكتبة الخاصة واتّسعت فصارت قِبلة للباحثين وملتقى لطلّاب العلم، وفي هذا أجر ما بعده أجر. ولا يُشترط أن تُعَدّ الكُتب بالمئات والألوف لتحوز وصف المكتبة؛ فزاوية في غرفة تحتلها بعض الكتب، أو رفّ في صالة تتوسّده بضعة كتب، يمكن أن يكون هو المكتبة، إذْ لا تلبث مع تعاقُب الأيام وكرّ الليالي أن تنمو وتتمدّد، حتى لتغطّي الجدران وتغزو البقيّة الباقية من الزوايا والأركان.

وما من شكّ في أنّ حيازة مكتبة يستدعي تنظيمها بجمْع الشبيه إلى شبيهه والنظير إلى نظيره، على نحو ييّسر الوصول إلى الكتاب ويختصر الوقت والجهد، وهو ما تناولَه عِلم المكتبات الذي بزغ إلى النور مع عصر المعلوماتية،

فقعّد لذلك أصولا وثوابت، وتمخّض عن أشهر نظامين لتصنيف الكتب، وهما: تصنيف مكتبة الكونجرس؛ الذي اعتمد الحروف اللاتينية في الترتيب، وقسم المعارف إلى واحد وعشرين قسما. وتصنيف (ديوي العشْري) الذي وضعه العالم الأمريكي ميلفل ديوي مع نهاية القرن التاسع عشر، ويهدف -كما قال ديوي- إلى معرفة أين يُوضع الكتاب وأين تجده مرة ثانية إذا بحثْت عنه في اليوم الثاني أو بعد قرن من الزمان، وفيه قسَّم عامّة المعارف إلى عشرة أصول

وهي (المعارف العامة، الفلسفة وعلم النفس، الديانات، العلوم الاجتماعية، اللغات، العلوم البحتة، العلوم التطبيقية، الفنون، الآداب، التاريخ والجغرافيا والتراجم)، ثمّ قسَّم كلّ أصل إلى عشرة فروع وقسَّم كلّ فرع إلى عشر شعب، ومن هنا اكتسب النظام صفة العشْرية التي رتّب على أساسها الكتب بطريقة

شجَريّة مرموزة، ويُعتبَر هذا التصنيف الموضوعي هو الأشهر عالميًا؛ إذْ تأخذ به ما يزيد على مائة وثلاثين دولة.

وبالطبع يختلف الأمر مِن مكتبة مدرسية تُشبع احتياجات الطلّاب والمعلمين، ومكتبة جامعيّة تخدم الوسط الجامعي، ومكتبة عامّة ترتادها كلّ فئات المجتمع، ومكتبة قومية تضمّ ذخائر الوطن وتقدِّم خدماتها للدولة برمّتها، ومكتبة متخصِّصة تهتمّ بضرب معيَّن من ضروب الفكر، إلى مكتبة شخصية. إذْ إنّ الأمر في الحالة الأخيرة -المكتبة الشخصيّة- أكثر مرونة، ويخضع للاختيار الذاتي؛ وفيها يُمكننا اختيار أحد البدائل الأربعة التي طرحها عاشق الكتب والمكتبات ألبرتو مانغويل حين دوّن خبرته في تنظيم مكتبته قائلًا: «في البداية كنت أنظِّم كتبي حسب الحروف الأبجدية لأسماء المؤلِّفين، ثمّ جمّعتها وفق الموضوعات: روايات، مقالات، مسرحيات، أشعار. ثمّ حاولتُ تصنيفها وفق اللغات. إلّا أنّني، ونظرا لعدم تمكّني من الاحتفاظ بذلك العدد الكبير من الكتب بسبب رحلاتي الكثيرة، قسّمتها إلى كتب لم أقرأها إلّا فيما ندر، وإلى كتب كنت أعاود قراءتها، وإلى كُتب كنت آمل قراءتها في يوم ما».

ولا يَطيب ذكر المكتبات الخاصة إلّا بالإشارة إلى أشهرها وأضخمها، وهي مكتبة الوزير الأديب ابن عبَّاد؛ التي ذكر ياقوت الحموي أنها كانت تحوي مئتيْن وستة آلاف مجلد! وزارها الإمام البيهقي وقال إنّ فهرسها يقع في عشرة مجلدات! ومدحها ول ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة، فقال: إنّ كتب ابن عبَّاد كانت تفوق جميع ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة! كما رُوِي أنّ بعض الملوك أرسل إليه طالبًا قدومه عليه، فأجابه ابن عباد قائلًا: أحتاج إلى ستِّين جملًا أنقل عليها كتبي!

٢٠- القارئ المغرور

الغرور هو انخداع المرء بنفسه ووقوعه تحت ضغط الشعور الكاذب

بالأهمية والمكانة، ومثلما يغترّ المرء بما لديه من مال أو شهرة أو جاه، قد يغترّ بكونه قارئا عرف طريق الكتب والمكتبات وسلك طريق الثقافة والفكر والإبداع؛ فتراه يلوي لسانه بالمصطلح تلو المصطلح، ويرطن في حديثه رطانة الأعاجم، ثمّ يشمخ بأنفه ويُحقِّر ما سواه من رأي أو فكر؛ بحجّة أنه قرأ أكثر وعلِم أكثر! ولا يدري المسكين أنه مريض بداء الاستعلاء المعرفي، وأنّه مستحقّ للشفقة وأحوج ما يكون إلى القراءة أكثر وأكثر.

والواقع أنّ هذا الغرور آفة طلّاب العِلم في أوّل الطريق؛ ويبدأ عندما نعتقد أننا نقرأ لنروي شجرة المعرفة التي تترعرع داخلنا، وليس لتقليص مساحات الجهل التي تعشِّش فينا. بينما ينتهي هذا الغرور، ويبدأ التواضع؛ عندما نعتقد

أننا نقرأ لنعرف أقدار أنفسنا لا لننتقص مِن أقدار الآخَرين ونتعالَم عليهم، ونقرأ لنفهم الآخَرين فنقدِّرهم حقّ قدْرهم. وليتنا نقف وقْفة تأمّل مع حكمة العالِم إسحاق نيوتن حين قال: «إنَّ النّاس مع كلّ ما بلغوه مِن المعرفة، وتوصَّلوا إليه من الاكتشاف؛ ليسوا إلّا أولادا صغارا يلتقطون الأصداف والأعشاب التي ينبذها ويقذف بها بحر الحقائق وخضمّ المجهولات مِن آن إلى آخَر».

فالقراءة لم تكن يومًا زينة ولا وجاهة، بل هي تربية ترقى بها أخلاقُنا ونصوغ منها حكمتَنا، وهي أيضًا مسئولية تُنادِي على متعاطيها بأعلى صوت وبكلّ لسان: ها قد علمتَ فاعمل، وها قد عرفتَ فالْزم. وبينما يُعذَر الجاهلون بجهلهم، فيُعَلَّمون ولا يُعنَّفُون؛ فإنّ القراءة حجّة على مَن يقرأ وبيِّنة على مَن يُنكر. ولهذا كان الراسخون في العِلم أكثر الناس تواضعا، وأَخْوفهم من الإصابة بفيروس الغرور الذي يُهلك صاحبَه ويُرْديه...وجميل هنا هذه التذكرة التي ساقها الكاتب محمد الرطيان بقوله: «عندما تُصاب بلحظة غرور تَذكَّر أنّ فيروسًا صغيرًا لا يُرى بالعين المجردة يستطيع أن يطرحك أرضا ويجعلك تتأوّه لمدة أسبوع في فراشك وأحيانًا يقتلك». وجميل كذلك ما نصح به راغب

السرجاني حين قال: «لا تُخرجك القراءة ولا العلم عن تواضعك، ولا تتكبّر بالعِلم الذي علمت، بل تَذكَّر على الدوام أنّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي مَنّ عليك به ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، وهو الذي (علّم الإنسان ما لم يعلم)... هذا المعنى لا يجب أن يغيب عن ذهن القارئ أو المتعلّم، مهما وصل إلى أعلى درجات العلم في زمانه». أمّا الأجمل فهو ما رُوي أنَّ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الذي حاز القناطير المقنطرة من العلم والفقه، وشغل منصب الإفتاء في المملكة العربية السعودية؛ ما سُمع يومًا قال عن نفسه (الشيخ) أو (المفتي)، وإذا اضطُرّ إلى تعريف نفسه إلى مَن لا يعرفه، فسبَق اسمَه بلقب المُفتي؛ قال: هداه الله، أَلزمَنا أن نقول هذه الكلمة!

وإني لَأدهش لِقارئ يتكبّر ويَغترّ؛ مع أنّ الله سبحانه هو مَن امتنّ عليه بالعين التي تقرأ وبالعقل الذي يفقه، كما أَعجب لقارئ يغترّ مع أنّه قرأ لكاتب كنجيب محفوظ الذي تواضَع؛ فتنكَّر لشخصه، وغيّب الأنا عندما فاز بجائزة نوبل العالمية للآداب قائلًا: «فاز الأدب العربي بجائزة نوبل ممثَّلا في شخصي». وربما قرأ أيضًا للمازني الذي سطَّر بيمناه قائلًا: «إذَنْ لا تُصوِّب نظرك يا (مازني) إلى هذه الحيوات الصغيرة الساذجة التي تبدو لعينيْك إذْ تطلّ من نافذتك، ولا

تبتسم إذْ تجتلي مظاهرَها كأنك تزدريها أو ترثي لأصحابها الذين لم يقرؤوا ما قرأْت ولم يعرفوا ما عرفْت». وكذلك فعل ديل كارنيجي الذي طبّقت شهرتُه الآفاق، ولكنّه بتواضع جمّ قال بأنّه لم يفعل سوى أن ذكَّر بالمبادئ القديمة التي جرت على ألسنة الأنبياء والحكماء... هذا مع أنّ أنّ فتنةَ الرجل بكُتبه -كما قال الجاحظ- تفوق الفتنة بجميع نِعمه، لأنّها منه مقام الذّراري ومحلَّ الأولاد.

ولا ننسى هنا أنّ الكاتِب هو المُنتِج والمنجِز، بينما القارئ متلقٍّ ومستهلِك، وبالتالي فغرور القارئ أشبه ما يكون بامرأة صلعاء تغترّ بشعرها المستعار، أو بحارس يتعالى ويتفاخر بقصر سيِّده! وقد سُئل الفيلسوف الإيطالي توما الأكويني عن أكثر ما يشكر عليه الربّ فقال: «نعمةَ أنْ فهمتُ كلَّ صفحة قرأتُها».. وفي هذا تحدد دقيق لمهمة القارئ، ودرس بليغ في تواضع الكاتب والقارئ معًا.

٢١- قراءة الأحرار لا العبيد

لا مراء في أنّ استقامة أمر ما متوقِّف على ضبطه في إطاره الصحيح ووضعه في نصابه دون تهويل أو تحقير، ولو أدركنا أنَّ الكاتبَ ليس إلّا قارئا موهوبا متمرِّسا، وأنَّ كلَّ بني آدم خطّاء، وأنّ كلَّ شخص مهما علا يُؤخَذ منه أو يُردّ، بعد أن ذهبت العصمةُ برحيل آخِر رسل الله وأنبيائه... لو أدركنا كلّ ذلك؛ لكان لنا مع الكتاب حالٌ غير الذوبان فيه والتسليم بكلّ ما فيه، ولَباعدْنا بيننا وبين التوحّد مع الكاتب أو الوقوع في أسْره والاسترقاق لأفكاره. بل كان حالنا حال المتمثِّل للحكمة اليابانية التي تقول: «إذا كنت تصدّق كلّ ما تقرأ فلا تقرأ»، وحال القارئ المُستبصِر الواعي الذي يعلو النص؛ فيفرزه، ويحلّله، قبل أن يُودِعه خزانة القبول وأمانة الحفظ؛ وذلك لأنّ الأفكار تتبدّل كأوراق الخريف والآراء تشيب كما الشَّعر يَشيب، وما يتبنّاه كاتبٌ اليوم ويدافع عنه دفاع المستميت قد يتخلّى عنه ويعتنق ضدّه بعد زمن يقصر أو يطول، وهو دليل على الضعف البشري الذي جُبل عليه وعلى النقص الإنساني الذي رُكِّب فيه.

وفي هذا نصح فرنسيس بيكون قائلًا: «اقرأ لا مِن أجل المعارضة، ولا من أجل الإيمان والتسليم، ولا من أجل السعي إلى المجادلة والحوار، ولكن لكي تزن الأمور وتُمعن النظر فيها»، وهو أيضًا ما جاء ضمن (الوصايا العشر) للكاتب القدير خالد محمد خالد بقوله: «إنّ للكلمة المطبوعة سلطانا عظيما، وما لم تحتفظ بثبات رشدك واستقلال عقلك وأنت تقرأ، فستحملك على أجنحتها بعضُ الكلمات الآسرة، وتُلقي بك إلى متاهات يصعب العثور عليك فيها. اقرأ قراءة الأحرار لا قراءة العبيد، واقرأ لتستكشف نفسك لا لتفقد نفسك، واقرأ لتتبيّن الطريق لا لتصير ذرّة تائهة فوق الطريق. اقرأ وناقش ما تقرأ، واحتفظ باستقلالك الفكري، ولا تجعل إعجابك بالكاتب يُنسيك أنك إنسان مثله، وأنّ مِن الممكن أن يكون تحت سطح دماغك كنوز تفوق كنوزه».

والواقع أنَّ الحريّة إذا اقترنَت بالقراءة جعلت منها فعلا إيجابيّا بامتياز، وصيَّرتْها أمرا يتّسم بالتفاعل لا التلقِّي وبالحوار لا الإملاء، وأَكْسبتْها بذلك صفة (الديالوج) لا (المونولوج)، ومعلوم أنّ لغة الحوار هي أرقى اللغات وديْدن الأحرار، بينما الأوامر والإملاءات لغة القطيع التي يقذف بها السادة

وجه العبيد. وبلغة معشوقة الجماهير (كرة القدم) أستطيع القول بأنّ القارئ الحُرّ هو مَن لا يجعل عقله كرة يركلها كلّ صاحب قلم، ولا ينسج منه شِباكا يُهدّف فيها كلّ مَن هبّ ودبّ، بل هو حارس مرمى ماهر؛ لا يُعير انتباها لفكرة طائشة خارجة عن مرمى التفكير السليم، بينما يبذل كلّ جهده فيركض يمينا وشمالا ويقفز عاليا وعاليا جدا للإمساك بكلّ فكرة صوّبها الكاتبُ بدقّة واقتدار نحو مرماه.

وزبدة القول ما قاله ابن القيّم في كتابه (مدارج السالكين): «أيّها القارئ: ما وجدتَ فيه مِن صواب وحقّ فاقْبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى مَن قال»... ولِمَ لا؛ وقد أبى اللهُ أن يَتمّ إلّا كتابُه، علاوة على أنّ الحقّ لا يُعرَف بالرجال ولكن بالحقّ يُعرَف الرجال. وما أجمل أن يحمل أحدنا ميزان الحقّ بيد ومصباح الحقيقة بيد، ثمّ يجوب بين السطور مرفوع الهام يقِظ الجنان غير هيّاب ولا وجِل؛ فالقراءة -كما قال برناردشو- جعلَت من (دون كيشوت) رجلًا نبيلًا، لكن تصديقه لكلّ ما قرأه جعله مجنونًا. والكتب عجينة من صحيح

الكلمات وسقيمها(١)، وفيها قِيل قديما: «مَن كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه».

ولعلّ الإشارة هنا واجبة إلى أنّ الحثّ على القراءة لا يعني غضّ الطرف عن التعلُّم على أيدي العلماء والأساتذة والشيوخ، بل هما خطان متلازمان يصبّ كلّ منهما في مصلحة الآخَر، ولا غنى لأحدهما عن أخيه، فالإمام الشاطبي يقول: «يُفتح للمتعلِّم بين يدي العلماء ما لا يُفتح له دونهم»، وقِيل: لأبي حنيفة: في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال: ألهم رأس؟ (أي شيخ أو فقيه يرجعون إليه)، فقالوا: لا. قال: لا يفقه هؤلاء أبدًا.

(١) في هذا المعنى ورد قول الشاعر:

الكتب تذكارٌ لمَن هو عارف ... وصحيحها بسقيمها معجون
والفكر غواص عليها مُدرك ... والحقّ فيها لؤلؤ مكنون

المفتاح الثالث:

ماذا نقرأ ؟

١- سؤال القراءة الأوّل

أكاد أجزم أنّ أكثر الأسئلة التي تتردّد في فضاء القراءة هو: ماذا نقرأ؟ وهو سؤال على بداهته ووجاهته؛ يتطلّب إجابة متروِّيّة تشفي الغليل وتهدي الحائر. ولأنّه سؤال القراءة الأوّل وعنوانها الأبرز؛ فقد أَدلى المتمرِّسون في القراءة بدِلائهم، وتفاوتت في ذلك مشاربهم؛ فمنهم مَن نصح بقراءة كلّ ما طالتْه الأيدي دون أن يستثني! وفي ذلك نظر. ومنهم مَن وضع للكتب قوائم جامدة ووجَّه إلى قراءتها! وفي ذلك أيضًا نظر. ومِن القرّاء مَن تَجاوز السؤال والجواب، فطفق يقرأ خبط عشواء، وكان كحاطب الليل الذي لا يلوِي على شيء، وكأني به يؤمِّن على مقولة الروائية الإنجليزية فرجينيا وولف: «فيما يتعلّق بالقراءة، فإنّ النصيحة الوحيدة حقّا التي يمكن أن يُسديها شخص لآخَر، هي إيّاك أن تأخذ بنصيحة أحد».

ولعلّ الأستاذ خالد محمد خالد قد توسّط في الجواب بقوله: «لا تسألني ماذا تقرأ؟ فكلّ كتاب يزيدك معرفة عليك أن تقرأه، هناك -لا غير- كتب هزيلة تحمل هذرا وإسفافا، وهذه ليست لنا على بال. إنّما أنا أدعوك للمعرفة.. للثقافة، وللثقافة والمعرفة عبير سيقودك إليهما. فكلّ ثقافة أَقبِل عليها، وكلّ معرفة خُذ من مناهلها.. اقرأ في الأدب والسياسة والأخلاق والاقتصاد، واقرأ في العلم والدين والاجتماع. اقرأ في كلّ شيء وعن كلّ شيء، وعِش في أوسع مساحة ممكنة من المعرفة والفهم». وعلى ذات المنوال نسج حسن آل حمادة بقوله: «لا يوجد لدي كتاب أعتبره الأفضل فيما قرأت! فالأفكار الجميلة وجدتها منثورة في كتب عديدة، لذا أنا حريص على تتبّع مواطن الجمال في بساتين منوّعة، وأعمل على تلقّي الحكمة أنّى وجدتُها».

وحتى لا نضلّ وسط الزحام ولا نُصاب بدوار القراءة؛ علينا أن نقرأ في كتاب واحد ونجمع همّتنا حوله، حتى إذا ما أنهيناه انتقلْنا إلى سواه؛ فصاحبُ بالَيْن -كما يُقال في الأمثال- كذّاب، ومَن ركض وراء أرنبيْن رجع بخفّي حنيْن، ومَن رام كلَّ شيء تَحصَّل على لا شيء، ولذَّة الانتهاء مِن الكتاب -كما قال فهد

الحمود- مَدعاة إلى محاولة القراءة مرّة أخرى، أمّا إنْ شتَّتَّ نفسَك في كتب عديدة -مع أنّ هذا له فائدة وهي عدم الملالة والسآمة- فإنه يقتضي منك زمنا طويلا حتى تَفرغ من الكتاب، وهذا ذريعة أن يَنسى أواخرُه أوائلَه، وتنقطع أوصالُه، فلا يتمّ الربط بين أجزاء الكتاب برابط، ويَعسر فهمُه لهذا، ويَقضي على لذة الانتهاء من الكتاب التي تُوقِد الحياةَ في دماء القرّاء.

هذا مع مراعاة اقتناء آخر نسخة من الكتاب المُراد قراءته، إذْ غالبا ما تكون النسخ التالية مَزيدة ومنقَّحة، وبها مِن الفوائد والاستدراكات مالم تتضمّنه النسخ السابقة. وقد جاء في ترجمة شيخ الإسلام وقاضي قضاة مصر والشام (بدر الدين بن جماعة)؛ أنّه كان مغرَما بالكتب وحفيّا بها، حتى إنه كان يشتري النسخة من الكتاب التي إليها المُنتهَى في الحُسْن، ثمّ يقع له ذلك الكتاب بخطّ مُصنِّفه فيشتريه ولا يَترك الأُولى. كما ذكر صاحب الخطط (المقريزي) أنّه كان في خزانة العزيز بالله ٣٠ نسخة من كتاب العين و١٠٠ نسخة من كتاب جمهرة اللغة، وأنه كان في خزانة كتب الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري..

ولا بأس هنا من الاستطراد قليلا مع صاحب كتاب صُبح الأعشى في صناعة

الإنشا (القلقشندي)؛ الذي ذكر أنّ أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاثة: خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد؛ والتي بادت بعد أن دهم التتار بغداد وفعلوا بها الأفاعيل. وخزانة الخلفاء الفاطميين بمصر؛ والتي تفرّقت بزوال دولتهم على أيدي الأيوبيين. وخزانة خلفاء بني أميّة بالأندلس؛ والتي انقرضت بانقراض ملكهم.

٢- الكتاب أوّلا

مَن يقرأ الكتب الدراسية يدَّعي أنه قارئ! ومَن يواظب على تصفّح الجرائد اليومية يعتبر نفسه قارئا! ومَن يطالع صفحته في الكوكب الأزرق (الفيس بوك) يظنّ نفسه بقارئ! بل ومَن يتواصل مع أصدقائه على الواتساب يظنّ نفسه قارئا! والحقّ أنّ الكتاب فقط هو مَن يمنحك شهادة قارئ، حتى لو غصّت الوسائل الأخرى بالأفكار والمعاني (مع أنّ هذا بعيد المنال إلى حدّ كبير)؛ إذْ إنّ فكرة مكتمِلة بين دفّتي كتاب، خيْر مِن عشرات الأفكار التي تتدفّق مِن هنا وهناك؛ فتضرب بعضُها أكتاف بعض، وتُشوّش بعضها على بعض، وتكون المحصّلة النهائية لا شيء. وليس هذا إلّا لأنّ الكتاب أمْتن في السبْك، وأعْمق في الطرح، وأعْلى في المصداقية عن سواه مِن الجرائد والمجلات[١] وغيرها ممّا يُقرَأ ويُطالَع..

---

(١) في سبب التسمية؛ ذُكِر أنَّ المجلة سُمِّيت بهذا الاسم لِما امتازت به مِن غلاف جليل فخم، بينما سُمِّيت الصحيفة جريدة لأنها جُرِّدت مِن الغلاف.

فعلى سبيل المثال؛ معظم الجرائد تُكتب بلغة بسيطة، وأفكارها سطحية، وتَناولها للموضوعات يكون على سبيل المسّ لا على سبيل الإحاطة، وربّما تُعذَر في ذلك؛ باعتبارها تخطب ودّ الجميع بلا استثناء، ونظرا لطابع السرعة الذي تتطلّبه الإصدارات اليومية أو الأسبوعية.

ويُعدّ الكتاب أقوى الأدوات الإعلامية تأثيرا في صناعة رأي عام تجاه قضايا المجتمع بل وقضايا العالَم بأسْره، وكلّما كان المجتمع قارئا زادت فاعلية الكتاب وأثره في تكوين الوعي العام وتشكيل العقل الجمْعي؛ فبينما تذهب الكلمة المسموعة وتتلاشى الصورة المرئية، فإنّ الكلمة المكتوبة تبقى حاضرة وجاهزة للاستدعاء بالقراءة في كل زمان ومكان، ومِن ثَمّ تفعل القراءة فعلها في تحريك المشاعر وتنبيهها، وفي مخاطبة العقول وقيادة منطِقها؛ فبعض الكلمات أقْتل مِن سيف وأطْعن مِن خنجر وأحْرق مِن نار، وبعضها أضْوء مِن نجم وأهدَى من بدر وأصحّ مِن دواء . ولهذا؛ لا غرو أن يُعرَّف الكِتاب بأنّه عمل من أعمال السِّحر، تخرج منه أشباح وصور، لتحرِّك كوامن النفس وتغيِّر قلوب البشر. ولا غرو أن تتفاعل أعلى هيئة أمميّة مع الكِتاب، فتخصّص المنظمةُ الدولية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) يوم الثالث والعشرين من أبريل كلّ عام للاحتفال باليوم العالمي للكتاب، وذلك بدءا من عام ١٩٩٥م.

ولا خطيئة في القول بأنّ الكتاب فوق المدرسة؛ لأنّ المدرسة لا تستغني عن الكتاب بينما الكتاب مُستغنٍ عنها بنفسه، ولأنّ المدرسة ليست إلّا أداة تُعلِّمنا كيف نتعلّم، ومصنعا يُعدّنا لنقرأ، ومُرشدا يأخذ بأيدينا إلى أوّل طريق المعرفة التي تغصّ بها أوعية الكتب. وكم مِن أناس صاروا عظماء بلا مدارس، ونجوما بلا جامعات، ومشاهير بلا شهادات، وفي ذلك عُدَّ كثيرًا ولا تَسأم وارفع رأسك ولا تخجل.

مع ملاحظة أنَّ الكُتب فيها الغثّ؛ الذي تفتقد ألفاظُه البهاء والإشراق، وتصطبغ أفكارُه بالغموض والضحالة، ويبدو سبكه مفكَّكا لا قرابة بين أجزائه؛ حتى لتنتفي عنه صفة الكِتاب، ويصبح أشبه ما يكون بشجرة يابسة وجثة هامدة وأشلاء ممزَّقة. وفيها السمين الذي أينع فيه اللفظُ كالثمار، وأشرقت الأفكارُ كالشمس، وتماسكَت أجزاؤه كأنه البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا. وفيها كذلك طويل المفعول، الذي يظل ذهبا لا يصدأ وصفوا لا يتكدّر؛ مثل المراجع والمعاجم والكتب التاريخية. وفيها قصير المفعول الذي يموت مع آخر صفحة تقرؤها فيه، وهي التي عناها عبد الكريم بكّار بقوله: «مِن الكتب ما

يفقد الكثير من صلاحيته؛ وذلك مثل الكتب التي تشتمل على قدر عال من التحليل، وتلك التي تعبِّر عن الرؤى الشخصية حول الماضي والحاضر، وإنّ الإصرار على العودة إلى هذا النوع من الكتب يقف عائقًا أمام تطوير الذهنيّة». وهنا علينا أن نُسقط من حسابنا حجم الكتاب، ولا نجعله حَكَمًا على جودته وفاعليته، فلا نحقِّر كتابًا لقصر عوده ونحول خصره، ولا نهوّل مِن آخَر بالنظر إلى عظم منكبيه وانبعاج ردفيه، وفي هذا قال فولتير: ما حدث قطّ أن أَلهبَت الكتبُ الكبيرة حماس أمّة، بل إنّ الكتب الصغيرة المحشوّة بالعواطف والتي تتأجّج حماسًا هي التي تقوم بهذا العمل.

ولأنّ الغايات قائدة والوسائلَ تابعة؛ فطبقا للغايات والأهداف مِن القراءة تتفاوت الوسائل والأساليب المُتَّبعة، فمَن رام التخصّص في عِلم من العلوم لابد أن يغوص فيه ويكون القاع مبتغاه، أمّا مَن تثقَّف فيه فيكفيه الطبقة والطبقتان؛ لِينتقل بعدها خفيفا رشيقا إلى ما سواه. والمنصِف مَن يُعطي تخصصه ٥٠-٦٠٪ مِن قراءته، بينما يجعل النسبة الباقية ملك يمينه؛ يسيح بها في صعيد القراءة الحرّة بشتى فِجاجها ودروبها. وفي هذا قال ابن قتيبة: «مَن أراد أن يكون عالِمًا فليطلب فنّا واحدًا، ومَن أراد أن يكون أديبًا فليتّسع في العلوم». مع التنبيه

على أنَّ التخصُّص لا يُغني عن التثقُّف، وعلى ضرورة الجمع بين التخصّص والثقافة؛ فالثقافة تُطلَب من الجميع وكأنّها فرض عين، بينما التخصّص كفرض الكفاية يُطلَب مِن فئام النّاس لا غيْر: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾[1].

ومِن تمام العقل هنا أن يجعل المرءُ من الكون كلِّه فصلا دراسيّا له، ويتّخذ من الكِتاب معلِّما مدْرسيّا وأستاذًا جامعيّا؛ واضعا في ذهنه أنَّ المكارم لا تأتي إلّا على أجنحة المكاره، وأنَّ القراءة تتطلّب فراغ البال واتّساع الزمان ووفرة المصادر وصلاح النيات، وأنَّ اقتران القراءة بالإيمان هو وحده الكفيل بتكوين ثقافة آمنة تقودنا إلى السعادة وتسمو بنا إلى الريادة؛ فما ازدان الإيمان بمثل العِلم، ولا تَجمَّل العِلم بمثل العمل، ولا طاب العمل إلّا بالرفق.

وجميل أن نتعامل مع الكتاب على أنّه كائن حي ذو أصول وأنساب وأصدقاء؛ فله أب يُدعى كاتب، وله أمّ تُدعى ناشر، وله بيت نُسمّيه مكتبة، أمّا طعامه فليس إلّا الآداب والعلوم، وكساؤه ليس سوى المعاني والحروف، وأصدقاؤه هم الكثرة الكاثرة من القرّاء في مختلف البقاع. وجميل أيضًا ونحن

(١) سورة التوبة الآية: (١٢٢).

نتجوّل بين هذه الكائنات الحيّة (الكتب)؛ لِنرتشف عصير الألفاظ ونتلذّذ بحساء المعاني، أن لا ننسى هؤلاء القابعين في دهاليز الحرف لِيعصروا هذا العصير ويُنضِجوا ذاك الحساء، فنُنعم عليهم ولو بدعوة صالحة.. فمَن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

٣- تَخيَّرْ كتابَك

مَجازًا.. يُمكننا القول أنّ الكتاب كالطعام؛ وكما ننتقي من الطعام أطْيبه، علينا أن ننتقي مِن الكُتب أطيبها؛ فبعض الكتب مفيد وبعضه فاسد وبعضه سامّ، وبالطبع سلامة أدمغتنا ليست أقلّ أهمية مِن سلامة أمعائنا. ومِن هنا يتوجَّب علينا حسْن اختيار الكُتب؛ لننتقِي الأجْمل معنى، والأبْلغ أسلوبا، والأقْوى سبْكا، والأوْضح تعبيرًا؛ ففي قوّة التعبير يكمن التأثير، وفي جماله تسكن المتعة، وفي وضوحه يتأتّى الفهم، وفي معناه يتوارى النفْع وتتخفّى الفائدة.

ولا يَخفى على كلّ مَن في حالة تماس مع الحرف وهام مع الكلمة، أنّ الكلام كالمعادن؛ منه الماسيّ الذي بالمُهج يُفتدَى، ومنه الذهبيّ الذي يُشترَى ويُكتنَز، ومنه الفضيّ الذي يُؤخَذ منه ويُردّ، ومنه النحاسيّ الذي يُدقّ على أُمّ رأسه ولا يُأبَه له؛ ولا يَفصل بين هذا وذاك وتلك، إلّا ملَكةُ حُسْن الاختيار التي هي صناعة العقْل وإحدَى البلاغتيْن... ولا يفوته حُسْن الاختيار مَن وضع

نصْب عينيْه قول القائل: «مَن ساء اختيارُه قَبُحت آثارُه»، أو نظْم الناظم:

وللـزنـبـور والبــــازي جميعا   لدى الــطــيران أجـنـحـة وخـفْـق

ولكن بين ما يصطاد باز   ومـــا يــصــطــاده الــزنــبــورُ فــرْق

وبرغم أنّ كلّ كتاب لا يخلو من فائدة تصغر أو تكبر، إذْ خرجَت سطوره من بين أنامل مَن هُم أقرأ وأعلم منّا، حتى قِيل إنَّ كلّ ما كُتب على الورق خير من الورق، وأنّه لا يخلو سواد من منفعة؛ إلّا أنّ قصر العمر، والجري المحموم في أزقّة الحياة، لا يمنحنا ترف المحاولة ولا يسعفنا في التعلّم عن طريق التجربة والخطأ، بل يحتّم علينا تعظيم الفائدة المرجوّة من وراء الكتاب الواحد. وهو ما يتحقَّق في كلّ كتاب يفتح أذهاننا كالمظلّة ويشحذها كالنّصل ويقويّها كالصلب، ويتوفَّر عليه كلّ كاتب يخاطب العقل والوجدان والروح دفعة واحدة؛ فيَسمو العقلُ ويَرقّ الوجدان وتَصفو الروح.

وفي هذا نتمثّل قول الشيخ علي الطنطاوي: «الكتب فيها النافع وفيها الضار، ومنها المغذِّي المفيد، وما هو كثير الدسم عظيم النفع ولكن لا تشتهيه النفس، وما هو مُشهٍّ لذيذ ولكن لا ينفع، ومنها السمّ القاتل، ومنها ما هو سمّ

ولكنه ملفوف بغشاء من السكر، فمَن انخدع بحلاوة الغشاء قتله السمّ! ومَن أكل كلَّ ما يجده -يخلط به الحلو والحامض والحار والبارد- أصابته التخمة وسوء الهضم، ومَن قرأ كلّ شيء صار معه سوء هضم عقلي!».

وكذلك قول العقّاد: «الكتاب الخليق باسم الكتاب، هو ما كان بضعة من صاحبه في أيْقظ أوقاته وأتمّ صوره وأجْمل أساليبه، وهو الحياة منظورة من خلال مرآة إنسانية، تصبغها بصبغها وتظلِّلها بظلالها وتبدو لك جميلة أو شائهة، عظيمة أو ضئيلة، محبوبة أو مكروهة، فتأخذ لنفسها زبدتها الخالصة، وتعود بها وأنت حيّ واحد في أعمار عدّة أو عدّة أحياء في عمر واحد...ذلك هو الكتاب كما أستحبّه وأطلبه، وعلى هذا لا تكون ساعاتنا بين الكتب إلّا ساعات نقضيها في غمار هذه الدنيا بين الأحياء العائشِين، أو بين الأموات الذين هم أحْيا من الأحياء».

وإذا كان خير الأصدقاء مَن إذا ذكرتَ اللهَ أعانك وإذا نسيتَ الله ذكَّرك، فإنّ الكتاب - باعتباره أفضل صديق وأعزّ رفيق- خليقٌ بأن يكون كذلك. بمعنى أنّ خيرَ الكُتب مَن يفتح لك أفقَ المعرفة بالله، ويقرِّبك خطوةً أو خطوتيْن من السماء، ويدير مفتاحَ الروح فينفض الران عن القلب.. ولله درّ شوقي حين

قال في شوقيّاته:

تجد الكتبَ على النقد كما تجـد الإخــوانَ صِــدْقـا وكِـذابـا

فتَخيَّرْها كما تختاره وادّخِـر فـي الـصـحْـب والـكُـتـب اللبابا

صالِحُ الإخـوان يبغيك التُّقى ورشيدُ الكتُب يبغيك الصوابا

ليس هذا فقط، بل ينبغي اختيار الكتاب الذي يناسب الحال والمقام، فكتاب في حال الحزن لا يَصلح للقراءة في حال الفرح، وكتاب في مقام هدوء وتركيز قد لا يناسب مقاما يضجّ بالحركة والضجيج، وكتاب إبّان سفر يختلف عن كتاب في إقامة، وكتاب حال الصحة والعافية يختلف عن كتاب حال المرض والاعتلال، وفي هذا يقول العقاد: «وأنا مريض يائس من الشفاء، كنت أنتقي ما أقرأ؛ فكانت يدي تتجه إلى نوعيْن من الكتب بينهما مسافة بعيدة من الاختلاف في الموضوع والوجهة، وأعني بهما الكتب التي تغلب عليها النزعة الجسدية والمتع المادية، والكتب التي تبحث عما وراء الطبيعة وتستكْنه حقائق الأرواح وعالم الغيب، وكلاهما كفيل بتعويض المريض الذي يحسّ من نفسه أنه سيفقد الحياة، فيعوضانه في عالم الخيال والتفكير، لأنّ حياته الواقعية تُريه مقدار الحاجة إلى عالَم الحسّ كما تُريه مقدار الحاجة إلى عالَم الروح».

ومن الحصافة أن تقع أيدينا على الكتب الأعلى منّا فكرا والأرقى منّا أسلوبا؛ لأنّ هذا ممّا يرفعنا ويرتقي بنا. مع عدم الاعتماد على البائع في اختيار الكتب، عبر إعطائه صكّا مفتوحا ليتخيّر لك كتابا تذكر له الموضوع الذي ترغب فيه فحسْب، فقد جرّبتها مرّة واعتبرْت؛ لأنّ اختيار البائع غالبا ما يكون وفقا لمحبته للمؤلِّف أكثر من تدقيقه في المؤلَّف، وللرائج مِن الكتب أكثر مِن الهادف منها، ولذوقه الشخصي لا لذوقك الخاص، بما يَعني أنّ اختياراته -غالبًا- عوراء تفتقد الحياديّة وعرجاء لا تفي بالمطلوب، ومعلوم أنّ شهادة المحِبّ مجروحة وعينه عن كلِّ عيب كليلة.

٤- لا خاب مَن استشار

مع الاعتراف بذاتيّة الفعل القِرائي، والإيمان بالمثل القائل: ما حكّ جلدك مثل ظفرك، والاعتقاد بأنّ القراءة التي يدخل فيها عامل الجبْر مثل القراءة المهنية والدراسية أقلّ متعة وفائدة مِن القراءة الحرّة؛ فإنَّ الأمرَ لا ينافي استشارة أهل الخبرة ولا يعارض الاستنارة بآرائهم، خاصّة فيمَن لا يملك قدْرا من الثقافة المعرفيّة التي تؤهِّله للاختيار السليم ولا يتحلَّى بقدر من الحسّ النقدي الذي يخوِّله الحكْم على الطالح والفاسد من الكتب، فكما قال أحدُ السّلف: «مِن حقِّ العاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العلماء، ويَجمع إلى عقله عقول الحكماء؛ فالرأي الفذّ ربما زلّ، والعقل الفرد ربّما ضلّ»، وكما قِيل أيضًا «مَن أُعطِي المشورة لم يُمنع الصواب». وإذا كنا نستشير فيما دقّ وعظُم مِن أمورنا الحياتية؛ فعلينا أن نستشير ونهتدي في القراءة بمَن ساروا في دربها السنين الطوال؛ فخبروها خبرة المحترف، ودَروها دراية الخبير الذي يُشترى رأيُه ويُقدّر طرحُه.

وفي هذا نقلَت حفيدة الطنطاوي اختياراته في القراءة وترشيحاته من الكتب قائلة: «وأرشدني (تقصد جدَّها علي الطنطاوي) إلى بعض الكتب التي تُغني مَن يقرؤها عن الكثير من أمثالها ومنها: فجر الإسلام لأحمد أمين، ونور اليقين للخضري، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والجامع الصغير للسيوطي. وكان يهتمّ كثيرًا بالأسلوب الأدبي الجيد وسلامة اللغة، ويرى أن قراءة كتب المنفلوطي والرافعي والمازني وأمثالها، تساعد كثيرًا على تحسين السليقة وتقوية اللغة». وفي شروحات كُتب الحديث الستّة؛ رشّح الطنطاوي أيضًا كتاب شرح صحيح مسلم للإمام النووي، وذلك حين قال: «شرْح صحيح مسلم كتاب جليل جدا، ليس في شروح الحديث، بعد شرْح البخاري لابن حجر، ما هو أكثر منه فوائد وأجزل نفعا». وجدير بالقول أنّ كتاب (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني؛ أمضى (ابن حجر) في تأليفه ربع قرن من الزمان، ولمَّا أتمَّه أوْلم وليمة مشهودة في قلعة دمشق، كلَّفتْه يومها خمسمائة دينار. وهو ما سرَى سُنّة فيمن خلَفه؛ أمثال علّامة الهند صدّيق حسن خان الذي أَوْلم لكتابه (فتح البيان في مقاصد القرين)، وأمثال مُرتضى الزبيدي الذي أولم لكتابه الشهير (تاج العروس من جواهر القاموس).

وفيما يخصّ كتب الفقه؛ فقد أوْجز سلطان العلماء (العزّ بن عبد السلام) حين قال: «ما رأيتُ في كتب الإسلام في العِلم (يقصد عِلم الفقه في زمانه)؛ مثل المَحلّي لابن حزم، وكتاب المُغْني للشيخ موفَّق الدين». بينما أوصى العلّامة القرضاوي فيما يخصّ كتب التفسير قائلًا: «إني أوثر في التفسير كتابَي ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وابن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، وإن كان ولا بد مِن أحدهما: فتفسير ابن كثير؛ لأنه جمع خلاصة ابن جرير مع زيادة تنقيح وتهذيب».

أمّا أمير البيان (شكيب أرسلان) فقد رشَّح كتاب تاريخ آداب العرب للرافعي وقال فيه: «لو كان كتاب (تاريخ آداب العرب) في بيتٍ حُرِّم إخراجُه للناس، لكان جديرا بأن يُحجّ إليه، ولو عُكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار لكان جديرا بأن يُعكَف عليه». واختار المفكّر الإسلامي محمد المبارك كتاب الندْوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وذكر أنه واحد من خير الكتب التي صدرت في القرن العشرين. وكذلك فعل الكاتب ربيع السملالي الذي أوصى بمكتبة قوامها أربعة كتب لا غيْر، فقال: «لو لم تمتلك مِن الكتب إلّا كتاب الله، وتفسير ابن السعدي، ورياض الصالحين، وكُتب الأديب علي الطنطاوي كلّها؛ لكفاك فخرا وشرفا واعتزازا واكتفاء».

وإذا عُدنا إلى القرنيْن الثالث والرابع الهجريّيْن، وأَنخْنا رحالَنا في حضْرة (ابن دريد) الذي تَنقَّل في إقامته بين العراق وعُمان وبلاد فارس، وجمَع بين العِلم والشعر فأجاد في كليْهما على غير المألوف، ولُقِّب بأشْعر العلماء وأعْلم الشعراء، واشتُهر بكتابه (جمهرة اللغة)... لَوجدناه في جمع من أصحابه يتذاكرون المتنزّهات؛ فقال بعضهم: أَنزه الأماكن غوطة دمشق. وقال آخَرون: بل نهر الأبلّة. وقال آخرون: بل سُغْد سمرقند. وقال بعضهم: نهروان بغداد. وقال بعضهم: شِعب بَوّان بأرض فارس. وقال بعضهم: نوبَهار بلْخ. فقال (ابن دريْد): هذه منتزهات العيون، فأين أنتم عن متنزّهات القلوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: (عيون الأخبار) للقُتيبي، و(الزَّهرة) لابن داود، و(قلق المشتاق) لابن أبي طاهر. ثمّ أنشأ يقول:

وَمَن تكُ نزهَتَهُ قينةٌ وكأسٌ تُحثُّ وكأسٌ تُصَبْ
فنزهتُنا واستراحتُنا تَلاقِي العيونِ ودرْسِ الكُتبْ

والواقع أنّ قائمة الاختيارات تطول، ويكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق، ومَن أراد المزيد فعليه بالكتب التي أَفردَها بعضُهم لذلك الغرض، وسطّر فيها

قوائم مختارة تناسب كافّة الأعمار، مثل كتاب (ماذا نقرأ) لطارق سويدان، والذي استعان فيه بخبراء ومرشدين لإعداد حقائب معرفية تخصّ كلّ فئة على حدة، مع التأكيد على أنّ هذه القوائم تبقى في حكْم الإعلام لا الإلزام.

٥- المؤلَّف لا المؤلِّف

تُعرَف قيمة الكتاب بما يَحمله من آراء وأفكار، وبما يَرمي إليه من أهداف تربوية وروحية؛ أمّا اسم الكاتب وهيئته وشهرته، فعلينا أن ننحِّيها جانبا؛ وإلّا صرنا أَسرى لعدد محدود مِن المشاهير، ووقعنا في فخّ القراءة الموجَّهة، وأغلقْنا بذلك عقولَنا على حفنة مِن الرؤى والأطروحات. أضِف إلى ذلك أنّ لكلّ جواد كبوة ولكلّ فارس عثرة، فقد يركَن المشهور إلى شهرته فلا يُجوّد ولا يتقن، بينما يتقن المغمور ويُجوّد بغية إثبات وجوده واحتلال موضع لقدمه. ولهذا نصح عبد الكريم بكار قائلًا: «لا ينبغي للقارئ أن يُصدر حكما نهائيا على الكاتب من خلال الكتاب الذي قرأه، إلّا إذا تبيَّن له أنّه آخِر كتاب له، فالكاتب الجيد ينمو باستمرار، وخلال نموّه يتخلّى عن بعض الأفكار، ويُؤمن بأفكار جديدة، ومِن الإنصاف أن نأخذ ذلك بعين الاعتبار».

والواقع أنَّ الحُكم على الكتاب من خلال مؤلِّفه فقط، آفة تُعمِي عن الحقيقة وتُفسد ميزان الإنصاف؛ فالإسلام يدعو إلى النظر لِما يُقال لا لِمَن قال، ويؤكِّد أنّ الحقّ يُعرف به الرجال لا العكس ؛ وهو ما رصده الجاحظ بقوله: «ربّما أُألِّف الكتاب المحكَم المتقَن وأنسبه لنفسي، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم، بالحسد المركَّب فيهم، وهم يعرفون براعته ونصاحته. وربّما ألَّفتُ الكتابَ الذي دونه في المعاني والألفاظ؛ فأُترجمه باسم غيري، وأُحيله إلى مَن تقدَّمني عصرُه، مثل: ابن المقفع والخليل؛ فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم، الطاعنون على الكتاب الذي كان أَحكم من هذا الكتاب؛ لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ!».

ولعلَّنا نذكر أنّ الحُكم على المؤلَّف من خلال مؤلِّفه، واستباق الأحكام بناء على الكاتِب لا المكتوب والأفراد لا الأفكار، هو ما دفع الروائية البريطانية ماري إيفانس إلى النّشر بالاسم الذكوري (جورج إليوت). وهو أيضًا ما شكّل مادّة دسمة لِما عُرف وقتها بفضيحة الموسم، وذلك حين كَتب أحدُ محرِّري جريدة الكواكب مسرحيّة في ستينيات القرن الماضي، ثمّ قدّمها إلى أربعة من كبار النقاد

على أنها مسرحية مترجَمة لكاتب سويسري شهير، وإذْ بهم ينكبُّون عليها كإحدى الروائع ويسطِّرون فيها المديح والأشعار، بينما استلقى المحرّر على قفاه ضاحكا ومقِرًّا بأنّه سطّر المسرحية في ساعة زمان دون درس أو تمحيص، وليدلِّل بذلك على الغفلة التي تَبني حُكمَها على المؤلِّف لا المؤلَّف. وعلى النحو ذاتِه؛ نظم أحدُ القرّاء بيتيْن هزيليْن من الشِّعر، ونسبهما إلى ابن الرومي، ثمّ سأل العقّاد عبر مجلّة الرسالة، عن سرِّ هذه الركاكة في شاعر رفعه العقّاد إلى أعلى علِّيين في سماء القريض، وإذْ بالعقّاد يلبس العمامة ويَحكم على الأبيات من منظور المؤلِّف لا المؤلَّف، فيدافع عن البيتيْن وعن ابن الرومي!

وقد رَوى الكاتب عبد الحميد جودة السحّار الذي عُرف بكتاباته الإسلامية، أنه وأثناء تواجده في مكتبة نهضة مصر، دخل أحد الشيوخ وقال للبائع: أريد شراء ٥٠٠ نسخة من كتاب أبي ذر الغفاري للشيخ عبد الحميد السحار، و٥٠٠ أخرى من كتابه سعد بن أبي وقاص، ولمَّا عرّفه صاحبُ المكتبة على الكاتب، ووجده المشتري أفنديا يلبس القميص والبنطال لا شيخا معمَّما مجلَبَبا، خفّض طلبه من كتاب بلال بن أبي رباح إلى خمسة لا خمسمائة! كما

حكى الأديب يحيى حقي أنّ أحدَ القرّاء راسله يطلب منه بعضا من مؤلّفاته مع صورة شخصية، فأرسل له الكتب ولم يرسل الصورة قائلًا: الأهمّ عندي أن تعرفني من كُتبي، أمّا صورتي فلا أهمية لها. بمعنى أن تستنفر حواسّك تجاه الكتاب لا الكاتب، و وتُركِّز جلّ اهتمامك ناحية المؤلَّف لا المؤلِّف، لِما في ذلك من إعلاء لقيم الموضوعية، وتعظيم للفائدة، وجدوى للنص والقارئ معا.

وهو ما أكّده نائب رئيس مجْمع الخالدين (محمود الربيعي)، في كتاب بعنوان (مقالات أدبية قصيرة)، جاء فيه: «من الواجب أن نسهم في تخليص حياتنا من الاتجاه إلى الأفراد، والاتجاه بها إلى فحص الأفكار وتقديرها؛ ليصبح فنّ الغزل أبقى من امرئ القيس، وفنّ الوصف أبقى من النابغة، وفنّ الهجاء أبقى من جرير والفرزدق، وفنّ الرواية أبقى من نجيب محفوظ، وفنّ المسرحية أبقى من توفيق الحكيم، وفنّ القصة القصيرة أبقى من يوسف إدريس، وفنّ المقالة أبقى من أحمد أمين وسلامة موسى وأحمد حسن الزيّات. فحين يُوجَّه القارئ إلى الموضوع الأدبي يصبح ميّالا إلى اكتشاف ما في هذا الموضوع، وحين يُوجَّه إلى

تقاليد التعبير الأدبي يصبح أكثر قدرة على التذوّق، وحين يُوجَّه إلى قيمة الأدب ومغزاه يصبح أكثر قدرة على التقدير والحكم».

وفي هذا دعوة إلى فكِّ أي نوع من الأعْصبة عن عيوننا، والتمعُّن فيما نطالِع بأفق مستنير وعقل منفتح؛ فالحصيف يتجاوز الأشخاص إلى الأفكار، والمنصف يمحّص الأدب لا الأديب، واللبيب لا يترك عِلما بحجّة زلّةٍ لِصاحبه ولا يدع كِتابا لِهفوةٍ في كاتبه؛ فلو أَدرْنا ظهورنا لكلِّ عالم زَلَّ زَلَّة ولكلّ كاتب هفا هفوة، لَمَا وجدْنا أحدا نأخذ منه عِلما، بل لنا عِلمهم ولهم عملهم فيفصِل الله فيه ويَحكم. وكَمْ مِن قارئ حرم نفسه مِن نتاج كاتب، لا لشيء إلّا لأنّه ليس مِن حزبه ولا جماعته، أو لأنّه اتّخذ موقفا في شأن عام له عليه مأخذ وله فيه تثريب!

وكأني به لَم يسمع قول الشاعر:

اعْمل بعِلمي وغُضّ الطَّرفَ عن زلَلي   ينفعْك قولي ولا يَـضرُرْك تقصيري

وربّما أيضًا لم يتناه إلى سمْعه قول ناصيف اليازجي:

وأفضلُ ما اشتغلتَ به كتابٌ   جـلـيـلٌ نـفـعُـه حـلـوُ المـــذاقِ

٦- نستفتح بالذي هو خيْر

يُعدّ اختلالُ سلّم الأولويات، مِن أكبر الأخطاء التي تُرتكَب عند ممارسة فعل القراءة، إذْ كيف تطوّح بنا القراءةُ ذات اليمين وذات الشمال، فنطالع كُتبا في السياسة والفكر والتاريخ والفلسفة، ونقرأ للقدماء والمحدثين وللعرب والأعاجم؛ ولا يكون القرآن -الذي أَقسم الله به، وجعله أعظم كتب السماء قاطبة، وخصّ به خير البشرية جمعاء، وتكفّل بحفظه إلى يوم الدين- في صدارة قراءاتنا و محور مطالعاتنا!

وقد نبَّه فريد الأنصاري على ذلك بقوله: «قال الشاعر: وخير جليس في الزمان كتاب...تلك حكمة قِيلت بالنسبة لأيّ كتاب. فما بالك إذَنْ بمجلس يكون فيه كتاب الله -جلّ ثناؤه- هو جليسك! ثمّ ما بالك بمجلس يكون فيه أهل الله وخاصته هم جلساءك! ثمّ ما بالك به -بعد هذا وذاك- إذا كان الملائكة هم زوّاره وحضّاره».

وعلى هذا أيضًا أكّد إبراهيم السكران بقوله: «يا أخي والله لقد قرأتُ كثيرًا كثيرًا في كتب الرقائق والإيمانيّات والمواعظ، وجرّبتُ كثيرًا من الوسائل التي ذكروها، وأَصْدقك القول أنني رأيتها محدودة الجدوى، لا أنكر أنّ فيها فائدة، لكن ليست الفائدة الفعلية التي كنت أتوقعها، ووجدتُ العلاج الحقيقي الفعَّال الناجع المُذهل في دواء واحد فقط، دواء واحد لا غير، وكلّما استعملتُه رأيتُ الشفاء في نفسي، وكلّما ابتعدتُ عنه عادت لي أسقامي، هذا العلاج هو بكلّ اختصار (تدبُّر القرآن). دَعْ عنك كل ما يَذكره صيادلةُ الإيمان، ودَعْ عنك كلّ عقاقير الرقائق التي يَصفونها، واسْتعمِل تدبّر القرآن وسترى في نفسك وإيمانك وقوّتك على الطاعات وتَأَبِّيك على المعاصي وراحة نفسك في صراعات المناهج والأفكار شيئا لا يَنقضي منه العجب»... وكأنّي به يردِّد مع الشاعر عمر الأميري قوله:

فألَجأ للقرآنِ في حوْمة الجَوى ... أُداوِي بــه دائي وأجـعـلــه طبّي

ولأنّ القرآن كتاب استثنائي في مصدره ومحتواه ورسالته ومكانته، فإنّ الله -جلّت حكمتُه- شرع له قراءة استثنائية متفرِّدة بقوله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1]؛ ولن تَرقى القراءة إلى مرتبة الترتيل وتُصبح التلاوة حقّ تلاوة؛ إلّا

---

(١) سورة المزمل الآية: (٤).

بحضور لسانٍ ينطق صحيحَ حروف الضاد، وعقلٍ على جانب معقول من المعرفة بالمعاني، وقلبٍ يشرع أبوابه للاعتبار والاتّعاظ.

وحريٌّ بنا هنا أنْ لا ننسى أنّ التدبّر روح القرآن ومفتاح السعادة القلبية؛ فنتمثّل قول (بشر بن السَّرِيّ): «إنّما الآية مثل التمرة، كلّما مضغتَها استخرجتَ حلاوتها». ثمّ نسلك درب (ابن الأثير) الذي وصف تلاوته للقرآن بقوله: «إني كلما آخذ سورة من السور، أتلوها، وكلما مرّ بي معنى أُثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها، ثم آخذ في حلّ تلك المعاني التي أُثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أَقنع بذلك حتى أُعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلْته أوّلا، وكلّما صقلتُها التلاوة مرّة بعد مرة ظهر في كلّ مرّة من المعاني مالم يظهر في التي قبلها». ونهتدي كذلك بوصيّة الإمام ابن القيّم حين قال: «إذا مرّ متدبِّر القرآن بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه؛ كرَّرَها ولو مائة مرّة ولو ليلة؛ فقراءة آية بتفكّر وتفهّم، خير من قراءة ختمة بغير تدبّر وتفهّم، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن».

ومِن روائع ما روَاه الشاعر والمفكّر والفيلسوف محمد إقبال؛ أنَّ أباه اعتاد أن يسأله كلَّ صباح حين يراه يقرأ القرآن قائلًا: ماذا تصنع؟ فيُجيبه:

أقرأ القرآن، وظلّ على هذا المنوال ثلاث سنوات، يُسأل السؤال نفسه ويُجيب الجواب عينه، حتى كان يومًا قال فيه لأبيه: لماذا تسألني عن شيء أنت أعلم بجوابه؟ فقال الأب: إنّما أردتُ أن أقول لك لا تقرأ القرآن قراءة معتادة، بل تَعمَّق فيه واستغرق في معانيه، واقرأه وكأنه عليك أُنزل. ثمَّ يَذكر أنه بعدها، كان كلّما قرأه، تسابقت الدموعُ إلى عينه مِن وقع الآيات في قلبه، وأنه بدأ يتفهَّم ويُقبل على المعاني بدرجة أكبر. وقد قام جمع من الناس بزيارته في منزله، وفي أثناء الحديث بادره زائر بقوله: إنك قد اطلعت على أهم الكتب وأغزرها علما في الدين والاقتصاد والسياسة والتأريخ والفلسفة وغير ذلك، فما هو الكتاب الذي ترى أنه أجل هذه الكتب وأنفعها للقارئين؟ فتغيّب (إقبال) قليلًا في إحدى غرف المنزل، ثم عاد وفي يده دائرة معارف الكون وكنز العلوم وأجل الكتب وأنفعها وهو القرآن الكريم.

والحقّ أني كثيرًا ما أفتح مصحفي، وأتأمّل فيما صرَّح به أحد مشاهير الكَتَبة، مِن أنّه يقضي العاميْن ونصف العام في كتابة النسخة الواحدة قبل الدفع بها إلى المطبعة. كما أتعجّب ممّا أورده محمد رجب البيومي في كتابه (طرائف ومسامرات)، مِن أنّ ابن غطاس، وهو مضرب المثل بين كتَّاب المصاحف في

حاضرة الأندلس الزاهرة، كان يخلط المداد بالمسك والعنبر لتفوح رائحته بين السطور ويتنشّقه القارئ. وكيف أنه قطع رحلة استغرقَت أربعين يومًا، ليصل إلى رجل اشترى منه مصحفا مخطوطا، وذلك لِيُبرّأ ذمَّته ويُصحِّح (سكونا) كُتبت خطأ (ضمّة) في إحدى آيات سورة الزخرف ضمن المصحف المُباع! أمّا ما يدقّ جرس الإنذار فهو ما قاله أحد السلف، من أنّ ختم القرآن في أكثر من أربعين يومًا يعدّ هجرا لقراءته وإعراضا عن تلاوته!

٧- تفاسير القرآن

لا شكّ أنّ العِلمَ بوّابة العمل؛ ولا جدال في أنّ فهم هذا العلم هو الطريق الذي تدبّ عليه أقدام العمل، وهو المرشد الذي يأخذ بيد العمل إلى منصة الفوز والتتويج. وإذا طبّقنا تلك القاعدة على كلّ علم نافع وكلّ فهم سديد؛ فإنّ إنزالها على أشرف الكُتب وأقدسها هو من أوْجب الواجبات، والمقصود هنا هو القرآن الكريم، والمعنَى أنّ فهم معاني القرآن والوقوف على مراميه يجب أن يحتلّ أهميّة قصوى وأولويّة عظمى، وهو ما يتحقّق بالمطالعة في علم التفسير الذي يُعَدّ أشرف العلوم؛ باعتبار موضوعه الذي هو آي القرآن، وباعتبار غرضه الذي هو فهم المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية، وباعتبار غايته التي هي نيْل رضى المولى وسعادة الداريْن. ولعلّ أجمل تشبيه ينبّه على الحاجة إلى المطالعة في أسفار التفاسير؛ هو ما ساقه (إياس بن معاوية) قائلًا: «مثل الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون التفاسير؛ كمثل قوم جاءهم كتاب من مَلِكهم ليلًا، وليس عندهم

مصباح، فداخلتْهم روعة لا يَدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يَعرف التفسير كمثَل رجُل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب».

ووسط هذا الفيض من التفاسير التي تُنْبئ عن مدى العناية بدستور الحياة الخالد، وتؤشِّر على عظمة الجهد المبذول من قِبل أهل العِلم وأئمّة المسلمين؛ قد يجد القارئ صعوبة في الاختيار من بينها، وهو ما يحتِّم الإصغاء إلى ما نصَح به أهلُ الرأي والاختصاص من حيث البدْء بالتفاسير الموجَزة ذات العبارة الواضحة؛ كتفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) ذو النهج السويّ والعقيدة الصافية، والذي اختصره الشيخ في كتاب عنوانه (تفسير اللطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن). أو تفسير الجلالَيْن للإمامَيْن المحلِّي والسيوطي؛ والذي وصفه (ابن عثيمين) بأنه زبدة وجيّد جدا مِن حيث السّبْك[(١)]. وقد كان هذا الأخير أوّل عهدي بكتُب التفاسير، حِين جلَبه الوالدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن العراق التي ضُرِب بها المثَل في زعامة القراءة العربية؛ فقِيل إنّ الكُتب تُكتب في مصر وتُطبع في لبنان وتُقرَأ في العراق. بينما الأوّل (تفسير السّعدي)، فقد أُهدي إليّ مرّتيْن في سلطنة عمان الحبيبة، وقرأتُ أغلبه.

(١) كما نبَّه الشيخ على ما به من تأويل الصفات تَمشّيا مع عقيدة الأشاعرة.

ومَن أراد التوسُّط فعليه بكتاب الشيخ أبي بكر الجزائري (أيْسر التفاسير لكلام العلي الكبير) المعروف بسلاسته وحسن تنظيمه، والذي طالعْتُ أغلبَه عبر مكتبة المسجد في أوقات انتظار الصلاة. أو كتاب (الظلال) الذي وصَّى به الشيخ محمد موسى الشريف بقوله: «وأمّا (الظلال) فليس هناك في الأرض كتاب موضوع في التفسير مثله لَمَن يريد تحصيل الثقافة الإسلامية في جانبها القرآني؛ ففيه تدبّر جليل جدا، وربْط لسنن الله في الكون بواقع المسلمين بل الناس أجمعين، وماضيهم ومستشرف مستقبلهم، وفيه معالجة اجتماعية رائعة، ولفتات إيمانية ليس لها نظير». ويبقى التفسير الأشهر هو تفسير (ابن كثير)، والذي وصفه الشيخ محمد رشيد رضا بأنه «مِن أشهر كتب التفسير في العناية بما رُوي عن مفسِّري السلف، وبيان معاني الآيات وأحكامها، وتَحاشِي ما أطال به الكثيرون مِن مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يُحتاج إليها في فهم القرآن». وكذلك تفسير (جامع البيان في تفسير القرآن) للإمام الطبري؛ والذي يُعدّ العمدة والمرجع لِما سواه من كتب التفسير بالمأثور؛ إذْ وصفه الإمام النووي بأنه لم يصنِّف أحدُ مثله.. وقد ذكَر الخطيب البغدادي

أنّ ابن جرير لَمَّا شرَع في تأليف تفسيره، قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن الكريم، قالوا كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا ممّا تَفنَى الأعمار قبل إتمامه، فاختصره في ثلاثة آلاف ورقة.

أمَّا مَن ارتقَت هِمّتُه وسمَت غايتُه؛ فعليه أن يتقلّب بين كتب التفسير كافّة؛ إذْ ينفرد كلُّ تفسير بمزية لا توجد في غيره من التفاسير. وعليه أن يضع نصب عينيه حال الإمام ابن تيمية الذي قال: «ربّما طالعتُ على الآية الواحدة مائة تفسير، ثمّ أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم علِّمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرِّغ وجهي في التراب، وأسأل الله تعالى، وأقول: يا معلِّم إبراهيم علِّمني». مع الاحتياط حيال المحاذير الأربعة التي ساقها الشيخ القرضاوي، ونصح بها كلَّ مَن يطالع كتب التفسير، وهي: الاهتمام باللباب دون الحشو والفضول والاستطراد، والإعراض عن الإسرائيليات، والحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة، والانتباه إلى الأقوال الضعيفة والآراء الفاسدة.

٨- كُتب الرقائق

ربّما يختلف العلماء في تسميتها؛ فيسمّونها كتب التزكية أو كتب التحلية أو كتب الزهد أو كتب التصوّف أو كتب فقه الباطن، ولكنهم لن يختلفوا في أنها كتب البهجة الروحية والسعادة القلبية والراحة النفسية؛ وذلك لأنها ترمِّم القلوب؛ فترتفع بها من مرحلة الموات أو السقْم إلى مرتبة السلامة، وتُبلِّغها بذلك مناها في الوصول إلى مولاها. ولأنها ترتفع بالبدن من وحل الطين إلى نور الملكوت، وتفتح في جدار الدنيا أوسع كوّة للإطلال على الآخرة والإقبال على الله. ولأنها كذلك تُصحِّح القصور الذي اعترى بصيرتَنا وغشَّى أبصارنا؛ وذلك عبر جراحة دقيقة، نرى بعدها الأشياء على حقيقتها؛ فنظفر بالحكمة، ونروح بطانا بعد الخِماص.

وتَعتني تلك الكتب بذكر الموت والبرزخ والحشر والصراط والجنة والنار، وتَروِي أخبار الزهد والخوف والصبر التي وردت في حقّ الأنبياء والصحابة

والتابعين، ثمّ تُعدِّد أمراض القلوب وأحوال النفوس، وتدعو إلى التأمّل والذِّكر والتوبة والإخلاص وقراءة القرآن، وتدقّ جرس المراقبة والمحاسبة والدعاء، وتحذِّر من الغفلة وقصر الأمل. ويمكن اعتبار هذه الكتب الملائكية -إن جاز التعبير- بمثابة الموجِّه الروحي، أو ما يسمِّيه الغربيُّون مدرِّب الحياة، ويُطلق عليه الصوفيُّون شيخ الطريقة.

وقد اعتنى العلماء قديما وحديثا بالتأليف في هذا الباب، وأَفرد بعضُهم لذلك كتبا كانت بالعشرات بل المئات؛ كابن القيم في (إغاثة اللهفان)، والغزالي في (إحياء علوم الدين) و(المنقذ من الضلال)، وابن عطاء الله في حِكَمه[(١)]، والمنذري في (الترغيب والترهيب). إضافة إلى أحمد فريد في (البحر الرائق في الزهد والرقائق)، ومحمد الراشد في (الرقائق)، وسعيد حوّى في (المستصفَى في تزكية النفس)، وغيرهم ممّن تنوء بحصرهم السطور، عدا عمّا تفرّق بين قبائل كتب الفقه العقيدة والسيرة والتفسير. وتزخر هذه المؤلَّفات بصنوف اللآلئ والدُّرر التي نتَجت مِن تأمُّلات أناس؛ ساروا إلى الله بقلوبهم لا أقدامهم،

(١) في نفاسة تلك الحكم، قال أحدهم: لو جازت الصلاة بشيء غير القرآن، لجازت بحكم ابن عطاء الله!

وحلّقوا بأجنحة الروح لا أجنحة الجاه، وترفَّعوا عن مزاحمة النّاس في المال والعقار؛ ففتح الله عليهم فتوح العارفين، وانجلَت أمامهم حجُب المادّة والطّين. ولهذا؛ ينبغي قراءة هذه الكتب قراءة عليا، فنُقبل عليها بالوجدان والأذواق، وبالقلب قبل العقل، وبالروح لا بالطين؛ فللذّهب ميزانه، وللحديد ميزانه.. ومعلوم أنّ التأمّل قراءة عليا لأنّها تتمّ دون عون مِن كاتب وكِتاب، بينما القراءة تأمُّل ناقص لأنّه يأتينا بسنَد مِن كاتِب وكِتاب.

وما كثرة التأليف في هذا الباب إلّا لكشف زيف الدنيا ووضعها في نصابها الصحيح، ولكبح جموح النفس التي تركن إلى الملذّات والشهوات وتميل إلى العاجل دون الآجل، وكذلك لمجابهة سعار المادّة التي توشك أن تطمس بهاء الروح وصفاء النفس، خاصّة في هذا العصر الذي تعقّدت فيه الحياة بفعل المدنيّة والتكنولوجيا، حتى تكاثرت الأدواء الباطنة، واختلّ النسق الداخلي، وأوشكَت البشرية على الهذيان، بل والطواف في الطرقات مع الجأر بالصياح: وا رَوْحاه، وا نفْساه، وا قلْباه.

وعن تجربتي مع تلك الفئة العالية من الكتب والتي تصادف هوى في نفسي؛ أذكر كتاب (إحياء علوم الدين) الذي قِيل فيه: ليس مِن الأحياء مَن لم يقرأ الإحياء، وكيف أثّر في تكويني الروحي والنفسي، حين استعرْته من أحد الكرام ذوي الأيادي البيضاء، ومكثْتُ في رحابه ومحرابه شهرا، أطالعه بين أعواد القشّ فوق سطح البيت تارة، وعلى أطراف الساقية وسط المزارع والحقول تارة أخرى. وكذلك كتاب (التوهُّم) للإمام المحاسبي؛ الذي فتح عيناي على مَرائي القيامة ومشاهد ما بعْد الموت، فكانت كمرْأى العيْن وملْمس اليد. والحقّ أني مع تناوُل أيّ كتاب من تلك الكتب؛ أتذكّر ما حكاه الإمام ابن الجوزي، عن تأثّر أحد شيوخه بأحاديث الرقائق، وكيف انتقل هذا التأثير إليه، فقال: «ولقيتُ عبد الوهاب الأنماطي، فكان على قانون السلف، لم يُسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يَطلب أجرا على سماع الحديث، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق، بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد».

٩- ذخائر الأدب

ما أكثرما ترك الأوّلون للآخِرين؛ فبتجاربهم الثريّة نختصر طريق المجد، وبِسِيَرهم العطرة نقتفي درب السعادة، ومِن كُتبهم ومؤلّفاتهم نقبس نور المعرفة ونستنشق عبق الحكمة ونستمطر ودْق الأصالة. وحوِّل بصرَك وذهنَك عمَّن يهرف فيطالب بإهالة التراب على كتب التراث بداعي الحداثة والعصْرنة، بل وأَهِل الترابَ على مَن يَصفها بأنها كتب باهتة صفراء جاوزَها الزمن وعلاها الغبار، وأنها في الكتب أموات وفي الأوراق قبور؛ فها هو الكاتب الفرنسي أندريه موروا يقول: «لا تهمل آراء الأجيال التي سبقتْك؛ بل يجب أن تعنى عناية خالصة بالكتب القديمة الخالدة، ولنثق بما اختارتْه القرون السالفة من روائع الكتب، فقد يخطئ الاختيار رجل واحد، وقد يخطئه جيل واحد ولكن الأجيال لا تخطئ جميعا».

ولأنّ شهوات العقول -كما قال زكي مبارك- أعنف وأخطر من شهوات الأحاسيس؛ فإنَّ تثقيف الشهوا العقلية بمطالعة الأدب، يكبح جموح العقل، ويُضفي عليه مسحة من الجمال واللطف. مع مراعاة أنّ التقدّم في العصر عند أهل الأدب مدح ولكنه عند أهل العِلم قدح، بمعنى أنّ الكتب العلمية تتقادم بتقادم الزمن ويُنصح فيها بقراءة الأحدث، بينما كتب الأدب لا تَبلى، وينطبق عليها المثل الإنجليزي: [old is gold].

والأدب عند صاحب الظلال (سيد قطب)؛ هو التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية، ولدى أمير البيان (شكيب أرسلان)؛ شِعر جيّد، ومثَل سائر، وخبر مأثور، ونسب محفوظ، وسهم مضروب في متعدّد من العلوم. وإذا ذُكرت كتبُ الأدب، ذُكرت الكنوز التي خلَّفها أعلامُه وأئمّته الكبار: أمثال الجاحظ الذي أهدانا -ضمن ما أهدانا- أحد أركان الأدب الأربعة وهو كتاب (البيان والتبيين)، فاكتمَلت به رباعيّة الذخائر الأدبيّة: (الأمالي) لأبي علي القالي، و(الكامل) لأبي عباس المبرّد، و(أدب الكاتب) لابن قتيبة. وفيهم قِيل: «مَن لم يقرأ الكامل فليس بكامل، ومَن لم يقرأ أمالي القالي فهو للأدب قال»، كما قِيل: «مَن درس (أدب الكاتب) صار مُحقِّقًا لُغويًا».

هذا عدا عن كتاب (الأغاني) الذي يَضمّه بعضُهم إلى تلك الكنوز الأربعة، وهو لِمؤلِّفه أبو الفرج الأصبهاني؛ الذي لم يؤلِّف غيرَه، وقصد منه التسلية، وجاء بمثابة دائرة معارف لجانب مِن حياة عصره. ومع أنَّ عشرة عقود قد توالَت عليه، إلّا أنّه مازال في نظر النقّاد والمثقّفين أحد الذخائر التي يعجّ بها التراث العربي، وما فتِئَ الباحثون والدارسون يتكالبون عليه بالتهذيب تارة وبالاختصار تارة أخرى. وعلى الرغم من التحفّظ الذي أبداه الدكاترة زكي مبارك، وكذلك الشيخ علي الطنطاوي بقوله: «اقرؤوا كتاب (الأغاني) للمُتعة الأدبيّة، ولتقويم الملكة البيانيّة؛ ولكن لا تُصدِّقوا كلّ ما يَرويه فيه، ولا تَعتمدوا عليه»...فإنّ الطاهر مكّي يقول: «يُعَدّ الأغاني، وبحقّ، من خيرة ذخائر التراث العربي؛ ألّفه أبو الفرج في خمسين سنة، وكتبه مرّة واحدة في عمره، وأهداه إلى سيف الدولة الحمداني فأَنفذ له ألف دينار واعتذر إليه، فلمّا سمع بذلك الصاحب بن عبّاد استقلّها وبعث إليه الحكَم الثاني (خليفة الأندلس آنئذ) ألف دينار عينا ذهبا، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه». وكذلك فعل أنيس منصور حين قال:» لا يوجد من المثقَّفين واحد يجرؤ على أن يقول لك أنه لم يقرأ هذا الكتاب أو في هذا

الكتاب أو عن هذا الكتاب؛ لأنّ تجاهل هذا الكتاب جهل شديد». وقبلهما -أي مكّي ومنصور- ذكر الأمير شكيب أرسلان؛ بأنّ مَن فاته الاطلاع على كتاب الأغاني؛ فاته أكثر جمال اللسان، وكان معذورا في ضيق الذراع وقصر الباع.

وغنيٌّ عن القول أنّ الحديث عن دواوين الأدب الأربعة عامة، وعن كتاب الأغاني خاصّة، ليس إلّا إلماعة واحدة، وإلّا فالإحصاء يطول والعدّ يُعيي، ومَن شاء المزيد فعليه بالعقد الفريد لابن عبد ربه، والأدبيْن الصغير والكبير لابن المقفع، ونهج البلاغة، ونفح الطيب، ومقدمة ابن خلدون، وغيرها من المنارات الهادية في سماء الأدب.

ولنفاسة هذه الذخائر وفائدتها الجمّة؛ فقد أَقدم جمْع من المتقدِّمين والمتأخِّرين، ليس على قراءة هذه الكتب ومطالعتها، بل على استظهارها كما يستظهرون أسماءَهم وحفظها كحفظهم لأنسابهم، وذلك بعد أن ساروا على نهج الإمام البخاري الذي سُئل يومًا عن دواء للحفظ، فأجاب: إدمان النظر في الكتب.

١٠-دواوين الشِّعر

لا شكّ أنّ الشِّعر فنّ رفيع مِن فنون القول، وجنس بديع مِن أجناس الكَلِم، وتاج ألماس يَزين هامَ الأدب؛ فبه لُقِّبت لغةُ الضاد وصارت لغة القريض، وبه تَحلّى العرب فكان فضيلتهم على حدّ وصف الجاحظ، وعنه كتب أمير البيان شكيب أرسلان قائلًا: «الشِّعر، لا سيّما إذا علَت طبقتُه؛ هو مِن ألذّ ملاذّ الحياة الدنيا، وأوْقعها في النفوس، وأفْعلها في إحياء القوم وتخليد المآثر على الأيام».

أمّا الرئيس الأمريكي جون آدمز فارتقى به إلى مرتبة الدواء، وخلّق منه ترياقا للضجر حين قال: «مَن كان في جيبه ديوان شعر لم يُصبه الضجر»... ورَغِم في ذلك أنفُ شيخ فلاسفة اليونان (أفلاطون)؛ الذي حمَل على الشّعراء، واتّهمهم بالفساد والإفساد، وطردهم مِن جنّة مملكته الفاضلة. وخاب مَسعى مَن صاح يومًا ملء حنجرته قائلًا: في هذا العصر التعِس، ما الفائدة من الشِّعر والشّعراء؟

وفي هذا قرأت أنَّ الشاعر البلجيكي ميترلينك، وعلى وقع تعرُّض بلاده

للغزو الألماني؛ التهبَت حماستُه وثارت حميّتُه، وأبدى رغبته في الانضمام إلى صفوف الجيش المقاتل، ولكن الحكومة كتبت إليه قائلة: «إنّ قلمك الجبّار يقدّم لنا خدمات أكثر من لواء كامل من المدرّعات».

وخيْر الشِّعر ما حَسُن لفظُه وجاد معناه وصدق معدنُه؛ فأوْرثَنا رقّة المشاعر ورهافة الحسّ وسموّ الذوق وسماحة الخلُق، ثمّ فتح لنا بابا لإتقان اللغة وطلاقة اللسان وفصاحة البيان، فضلًا عن كوْنه تعبيرا حيّا نابضا عن مكنونات النفس الإنسانية، وسجلًّا حافلا لعصور غيَّبها الزمن وطواها كفّ النسيان، وهو بهذا الوصف لازمٌ للمجتمعات كلزوم الماء للبحر والنجوم لِلَّيل. ولعلّ بعضنا قرأ عن المساجلة التي دارت بين العقاد ونجيب محفوظ، حين قدَّم العقّاد الشِّعرَ على الرواية ووصفه بأنه من خيرة ثمار العقول، وكيف أن نجيب محفوظ انتصر لفنّه، وذكر أنّ الرواية فنّ بمقام الشِّعر، وفيهما الجيّد والرديء. وربّما طاف بعضُنا بكتاب (حديث السنين) لمؤلِّفه زكي نجيب محمود؛ والذي أقرّ فيه بالفضل لديوان الشاعر إبراهيم طوقان، وعدّه النافذة الأولى في تعرُّفه على عمق مأساة القضية الفلسطينية، وخَصّ بالذكر قصيدة الثلاثاء الأحمر.

وقد رُوِي أنّ العلّامة المُفسِّر (الشنقيطي) -رحمه الله- سُئل في ختام إحدى محاضراته عن آخر كتاب قرأه، فذكَر أحدَ دواوين الشِّعر، ولمّا تعجَّب بعضُهم، إذْ ظنّوا أنه سيذكر لهم أحدَ أُمّات الكتب في التفسير؛ قال الشيخ: إني أستعين بالشِّعر على فهم كلمات ربي. وأُثر عن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قولها: «روُّوا أولادَكم الشِّعر تَعذب ألسنتُهم». وقال الإمام الشُّعبي، وهو أحد مشاهير التابعين بالكوفة: «ما أنا لشيء مِن العلم أقلّ رواية منّي للشِّعر، ولو شئتُ أن أنشد شعرا شهرا، لا أعيد بيتا، لفعلْت». ولا ننسى أنّ عمالقة النثر العربي أمثال الرافعي والعقاد وطه حسين والمازني بدأوا بنظْم الشِّعر قبل أن يطرقوا باب النثر، بل إنّ الشِّعر متَّهَم باحتكار الوجدان العربي ردْحا من الزمن، وعدّه بعض النقاد سببا في تأخّر ميلاد فنون النثر المقالية والقصصية والروائية والمسرحية.

ولتلك المنزلة العالية للشِّعر، والمنوطة بأناس يملكون حسّا عميقا تجاه الحياة وقدرة فريدة على التعبير عن هذا الإحساس؛ ينبغي أن نقرأه قراءة إبداعية تحتفي به وتليق عليه؛ فنطالعه بمزاج يتّسم بالأريحية، ونمرّ على دواوينه مرور النسيم على الوجْنات ومرور الفراشات على الأزْهار؛ فنتذوّق الألفاظ كما

نتذوّق أطايب الطعام، ونستسيغ المعاني كما نستسيغ لذيذ الشراب، ونتمثّل الصورة الشّعريّة كما نتمثّل أجْمل الذكريات وأسْعد الأحداث. ويا حبّذا لو قرأناه بصوت عال، على اعتبار أنّ القراءةَ الشِّعرية الصامتة نصف قراءة، وأنَّ الأذن بوّابة الشِّعر الحقيقية، وأنّ القصائد صُنِعت لتُسمَع لا لتُقرَأ. ولا غِنى للأريب في كلّ مجال، عن حفظ فرائد القصائد وتقييدها؛ للاستشهاد بها والاحتجاج والتأثير، فبعض الشِّعر سحر وبعض القصيد بلسم وبعض الأبيات يَصدق فيها قول أبي تمام:

ولولا خِلالٌ سنّها الشِّعرُ ما درَى   بناةُ العلا مِن أين تُؤتَى المكارمُ!

وبرغم أني لست متحزِّبا إلى شاعرٍ بعينه، بل أميل إلى الاختيارات الشِّعرية التي تضمّ عيون الشِّعر قديمه وحديثه، على نسق المُفضّليات التي انتقاها الضبِّي والأصمعي وغيرهما؛ إلّا أنّ سلطان الشِّعر يحثُّنا على الإبحار بين بحوره، والمرور على المعلَّقات السبع بشروحها، ثمّ الحجّ إلى المتنبِّي في كعبته الشِّعرية، وإلى اختيارات أبي تمام[1] في ديوانه الحماسة، وإلى أحمد محرّم في إسلاميّاته، وإلى

(١) سُئل أبو حاتم عن (أبي تمام) فقال: «سيل كثير الغثاء غزير الغمار جمّ النطاف، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال». وفي إشارة إلى ديوان الحماسة، قال الرافعي أنّ أبا تمام في اختياره أشْعر منه في شِعره.

أحمد مطر في لافتاته، وإلى ما تتّسع له الذائقة الأدبيّة التي تَبرز خصوصيتها الشديدة حال الاقتراب مِن حِمى الشِّعر وعرين القصيد...ولنتذكَّر دوما أنّه ليس بالعقل وحده يحيا البشر، وأنّ منبر الإنسانية -كما قال جبران خليل- يكمن في قلبها الصامت لا في عقلها الثرثار، وأنّ الشعراء أبناء الخيال، وهُم كالملوك لا يُولَدون كلّ عام.

١١-الروايات

مِن حدَب الكِتاب علينا ورحمة القراءة بنا؛ أنها تتلوّن بألوان عدّة وترتدي أقنعة شتّى، إذْ لو اقْتصرت على لون معرفي واحد وقناع فكري جامد، لَمَا مال إليها الإنسان المَلول بطبعه والتوّاق دوما إلى التغيير والتجديد؛ ولهذا، لا يحقّ لأحد أن يعنِّف غيره على ميله لهذا اللون أو إيناسه بذاك القالب، فإن لم تكن الحريّة في القراءة...أين بربّك تكون؟

ومع أنّ فنّ االسّرد الروائي ليس خياري الأوّل، خاصة وسط هذا الظرف التاريخي الصعب الذي نحياه، والذي يَتوقّع منّا وثبات فكرية وقفزات معرفية ورُوحية؛ إلّا أننا يجب أن نرفق بهذا الجيل إن احتفى بالرواية ووجد فيها ضالّته، بحسبانها مرَقا يعوِّض به ما فاته مِن اللحم، وباعتبارها خطوة ننجو بها ولو قليلا مِن شبح هذه التكنولوجيا التي تقصفنا صباح مساء بالهواتف الذكيّة ومواقع التواصل الاجتماعي، فضلًا عن الفضائيات التي تتكاثر كالأرانب وتطنّ كالنحل، فتقذفنا بعيدا عن القراءة بشتى ألوانها وقوالبها.

والواقع أنَّ الإنسان حكَّاء بطبعه واجتماعي بفطرته، فتأسره القصة وتُمتعه الحكاية؛ ولهذا لا عجب أن يتواءم المرءُ مع الفنون السّردية، ويجد فيها مرآة لِما يعتمل في دواخل نفسه وتلافيف لا وعْيه؛ ولا غرْو أيضًا أن تتصدّر الروايةُ المشهدَ الثقافي وتعيش عصرها الذهبي، حتى لَتصبح الأكثر طباعة وترجمة ومَبيعا بين الكتب قاطبة، وينال مؤلِّفوها الحظوة الأوْسع والنجومية الأشْهر، وتُرصَد لها أكبر الجوائز مقارنة بسواها مِن صنوف الأدب الأخرى، وربّما في هذا تحقيقًا لنبوءة نجيب محفوظ الذي وصف الرواية بأنها شِعر الدولة الحديثة. مع أنه كان من المتوقّع وسط لهاث السرعة وانفلات الزمن الذي نعيشه، أن تتراجع الرواية لحساب القصة القصيرة؛ بما يعني أنّ هنالك ما يحكم سير القافلة غير العقل، وهو الوجدان الذي يعيد ترتيب اهتماماتنا وفقا للأريحية لا العقلانية.

أضِف إلى ذلك أن الرواية تُدخلنا إلى عوالمَ بِكر ربّما لم تطأْها عقولنا، وحيوات متكاملة تُدهشنا بشخوصها واحداثها، حتى لترسم أمام مخيّلتنا لوحة ملوّنة للكون والحياة؛ فتُزيدنا معرفة بالنفس الإنسانية، وتُطلعنا على جوانب خفيّة في هذا الكون الفسيح. ولهذا شجَّع الكاتب والناقد الأمريكي هارولد بلوم

على قراءة الرواية بقوله: «على مدى خمسين عامًا وأنا أقرأ الروايات مِن أجل ما فيها من شخصيات وقصص، ومن أجل الجمال الذي أحسّه في أصوات المؤلِّفين وفي طرائق حكْيهم.. دعونا نقرأ الروايات مِن أجل المتعة الجمالية والرؤية الروحيّة». ولا ننسى أن بعض روايات الخيال العلمي، رسمت صورة قلمية لمخترَعات تأخّر ظهورها لعقود، فكانت بذلك قاطرة علميّة لا رواية خياليّة؛ فالروائي الفرنسي جول فيري كتب عن الصعود إلى القمر، قبل أن تحط أول سفينة فضائية قدمَها هناك بنحو قرن من الزمان. وكذلك فعل ألدوس هيكسلي حين تنبأ بظهور أطفال الأنابيب، وأرثر كلارك الذي بشّر بالأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت، وغيرهم من الحالمين الكبار في سبيل مستقبل أفضل للبشرية جمعاء.

وبرغم أنّ الرواية بوجه عام -وخاصة الرومانسية منها- لا ترهقنا ذهنيا، وتفتح لنا قلبها حتى لو كان المزاج رماديا والذهن نصف مشغول؛ فإنها لا تلبث أن تهزّنا نفسيا وترَجّنا وجدانيا حتى ليضطرب القلب وتدمع العين، وفي ذلك سرّ قوتها وجاذبيتها، إذْ إنّ مدار أمر ما، لا يكون إلّا على قدر التأثير الذي يتركه في الشعور والوجدان، وعلى مدى التغيير الذي يُحدثه في أعمق الأعماق.

فضلًا عن أنّ الروايات الواقعية تشكِّل مخزنا ثريّا لعلماء النفس ورافدا إضافيا للمؤرِّخين وعلماء الاجتماع؛ فيشرعون في استخلاص سمات العصر التي كُتبت فيها، والاطلاع على ما غيَّبته الأيام من وقائع وطواه الزمن مِن أحداث. فروايات بلزاك ترجمانٌ لفرنسا القرن التاسع عشر، وروايات تشارلز ديكنز لوحة تعبيرية عن إنجلترا القرن التاسع عشر، وهكذا.

وهنا يبقى الخيال أكبر الرابحين؛ فالروايات الخيالية أكبر ساحة للتزلّج على سطح الخيال، وتتيح لنا القفزَ فوق الواقع، وتفتح أمامنا الباب واسعا للهروب المؤقَّت مِن أنين الهموم المستفحِلة وضجيج الحياة الصاخبة؛ فنظفر بسويْعات من المتعة وفاصل من التسلية، وكأنّ الروايةَ حلمُ نهارنا اليقِظ، تماما كما أنّ الأحلامَ رواياتُ ليلنا النائم. وعن ذلك عبَّرت صاحبة رواية قواعد العشق الأربعون (إليف شفاق) قائلة: «عندما ننغمس في رواية جيدة، نترك مساكننا الحميمة الضئيلة خلفنا، ونرحل مع الشخوص الخيالية للرواية، فنجد أنفسنا نتعرّف إلى أناس لم نقابلهم قط، أو أننا كرهناهم حتى، واعتبرناهم أعداء». وبظنّي؛ أنّه من الصعوبة بمكان، أن تُولَد رواية وتستوي على عودها، دون أن

تمدّ لها جذورا في الواقع المعاش، بمعنى أنه لا توجد رواية خيالية مائة بالمائة، كما لا توجد رواية واقعية مائة بالمائة. وكما قال الروائي ألبرتو مورافيا: «على الروائي أن ينطلق من حدث واقعي، لكن شخصياته يجب أن يخترعها، وكذلك المواقف يجب أن تكون من ثمار المخيِّلة».

هذا بالإضافة إلى ما يُمكن أن تحمله الروايةُ بشتى صنوفها (التاريخية-الرومانسية-الواقعية-البوليسية-الخيالية-السياسية) مِن معارف وأفكار وحِكَم تؤدِّي وظيفة تربوية واجتماعية، وذلك ضمن زاويتها المنفرجة على كافة الفنون، ومن خلال سياقها السردي الفتّان؛ الذي يبدو وكأنه سلّة فاكهة أو كبسولة فيتامينات؛ لِما فيه من مَشهديّات عامِرة بالصوت والحركة والصورة والألوان، ولِما يتضمنّه من تعبيرات لغوية مبتكَرة وصور بلاغية نابضة راقصة. وهو ما عبَّر عنه الروائي والفيلسوف الإيطالي أمبرتو إيكو بقوله: «حين يتعطّل السّرد تبدأ القصة»، ومعلوم أنّ القصة رواية قصيرة، والرواية قصة طويلة.

وعلى الرغم من هذه الإيجابيات؛ إلّا أنّ الأمرَ لا يخلو من محاذير تنبِّه على عدم الإسراف في قراءة الروايات؛ بل يكفي أن تكون للمحارب مثل الاستراحة

وللجائع كالمقبِّلات وللملاكِم بمثابة الفاصل بين الجولات، فنعرف ما يدور خلف القضبان من عسف وجوْر كما في رواية القوقعة لمصطفى خليفة، ونتفحّص العالم الأوروبي المستبِدّ بصحبة جورج أورويل في رواية ١٩٨٤، ونتنسّم عبق ماضينا الأندلسي التليد عبر ثلاثية غرناطة لرضوى عاشور، ونطوف في أرجاء التاريخ مع روايات الكبيريْن الكيلاني وباكثير، ونسبح مع المعاني الراقية والموضوعات الجادّة الهادفة التي تطرحها روايات أيمن العتوم وحنان لاشين.

مع التأكيد على عدم العيْش في جلباب الخيالات الروائية، ووجوب تطعيمها بكتب البناء الفكري والعلمي، واجتناب تلك الروايات الآثمة التي تهبط بالذوق اللغوي والخُلُقي؛ فتحصر موضوعها في العشق والغرام بصورة مكشوفة مفضوحة، وتتلبّس بالعامية وتركل الفصحى. ولعلنا نتذكّر بعض المساكين من القرّاء الذي توغّلوا في أحداث بعض الروايات، وتماهوا بل وتوحّدوا مع أبطالها نفسيا وذهنيًا، ثمّ انتحروا حزنا على مأساة البطل كما في آلام فرتر لجوتة! أو ارتكبوا جرائم محاكاة لِما قرؤوه في بطون الروايات البوليسية!

١٢-كُتب التاريخ

التاريخ -كما قال ابن خلدون- فنٌّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذْ هو يُوقِفنا على أحوال الماضِين مِن الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سِيَرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لِمَن يروم أحوال الدِّين والدنيا..

أمّا كتب التاريخ؛ فهي لسان أسلافنا الذين رحلوا، ومفاتيحنا الذهبية التي ندرك بها لماذا وكيف وماذا حدث في هذا الماضي السحيق، وبها نطأ أزمانًا تالدة غابرة، ونقلّب شخوصًا واحداثًا علاها ركام الأيام؛ وحالنا معها كحال الغوّاص الذي ينقّب عن الدرّ في البحار، وحال الجيولوجي الذي يفتّش عن الذهب وسط الأحجار.

والحقّ أنّ معرفتَنا بالتاريخ ضمانةٌ لسلامة أحكامنا على الواقع وصحة فهمنا لأحداثه، وبابٌ واسع نغترف منه التجارب ونقطف منه العظات؛ لنضع أقدامنا

ثابتة على أرض الحاضر، ونحلّق في آفاق المستقبل بجناحَي الماضي والحاضر.. فمَن لا ماضي له، لا حاضر له ولا مستقبل. بل إنّنا نرَى بعض الأمم تعيش حاضرًا بائسًا وواقعًا مهينًا، ولكنّ ماضيها العريق مازال يشفع لها، ويُعطيها بعض المكانة، ويُمنِّيها بمعاودة الكَرّة ومصافحة المجْد ولو بعد حين.

ولهذا حثَّ عليه أمير الشعراء شوقي بقوله:

اقــرؤوا التاريخ إذْ فيه العِبر ضــلَّ قــومٌ ليس يَــدرون الخبر

وكان دوما وأبدا محلّ عناية المفكِّرين والمربِّين والمُصلحين؛ واقرأ في ذلك قول الشيخ علي الطنطاوي: «أكثر ما أُولِعت به التاريخ.. فأنا أقرأ كلّ ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم، ومِن المذكّرات والرحلات والمشاهدات.. قرأتُ تاريخ الطبري كلّه غير مرّة، وتاريخ ابن الأثير، وابن كثير، والمسعودي، وابن خلدون، وتاريخ ابن الجوزي، وأبي شامة وذيله، وقرأت تاريخ الخلفاء للسيوطي مرّات، ونظرتُ في كتب التراجم فقرأتُ منها ما لا أحصيه». واقرأ كذلك قول علّامة الهند أبي الحسن الندوي: «التاريخ مرآة الأمم البائدة، وخزانة العِبَر المُبرِزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها، فليس ثمّة سقوط أو نهوض

يحدث عفوا أو اتفاقا، وإنّما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرّفات الأمم وأعمالها، وعلى هذه التصرّفات والأعمال تتوقّف مصايرها في مسيرة التاريخ».

وإذا ذُكرت كتبُ التاريخ؛ أَطلّ المؤرّخ الأمريكي ويل ديورانت برأسه شامخا، وفي يُمناه كتاب (قصة الحضارة)؛ الذي اقتطع له من عمره أربعة عقود، وجاب من أجله أرجاءَ المعمورة؛ فجاء موسوعةً ضخمة؛ تألّقت ضمن اثنين وأربعين مجلَّدا في نسختها العربية، وسردَت تاريخ الحضارات البشرية كافّة منذ بدء الخليقة وحتى القرن التاسع عشر الميلادي، وقد شهد لها المؤرّخون بالروح الموضوعيّة والمنهجيّة العلميّة والالتزام الخلُقيّ، وكانت بتلك الشهادة خليقة بالرجوع إليها وجديرة بالاستشهاد والاقتباس منها. ولا ننسى موسوعة المؤرِّخ الإنجليزي أرنولد توينبي (دراسة التاريخ)، والتي بدأ تأليفها في عام ١٩٢١م وأنهاها في عام ١٩٦١م، وطرح فيها نظرية التحدِّي والاستجابة، وفصّل في عوامل بناء وسقوط الحضارات. ثمّ يأتي عمدة الكتب في التاريخ الإسلامي؛ وهو كتاب (البداية والنهاية) للحافظ ابن كثير، وفيه ابتدأ بقصة الخلْق، وطاف بقصص الأنبياء، وفصّل في تاريخ أمّة الإسلام حتى القرن الثامن الهجري

(٧٦٧هـ)، فجاء -في أقلّ طبعاته- في خمسة عشر مجلدا؛ ولهذا اختصره (أحمد الخاني)؛ فحذَف تراجم الرجال والأسانيد، وأوْجز المطوّل مِن الأخبار، فقلَّصه إلى نحو ٨٠٠ صفحة، ويَسَّر بذلك الاقتراب منه والنّهَل من مَعينه. وبالطبع لا يمكن إغفال صنيع المؤرّخ الإغريقي (هيرودوت)، الذي حلّ ضيفا لستة عقود في أحضان القرن الخامس قبل الميلاد، واشتُهر بلقب أبي التاريخ؛ باعتباره المدوِّن الأوّل له عبر كتابه الموسوعي (تاريخ هيرودوت)؛ فصاغه في تسع مجلدات، وضمَّنه ما عاشه وما وصله مِن أحداث وأساطير وعادات وتقاليد.

وهنا يتوجّب علينا الحْذر من التدليس الذي طال تدوين بعض صفحات التاريخ، والانتباه إلى الفساد الذي شاب تفسيره وتأويله؛ فنقرأ سطوره قراءة واعية؛ لنميِّز بين المؤرِّخ الموضوعي الأمين، وبين المؤرِّخ الذي يخلط السمّ بالعسل؛ فيلوِي عنق الحقائق لتتوافق مع هواه، ثمّ يُقدِّم ويُؤخّر ويحذف ويضيف، وكأنه حائك ثياب لا راوية تاريخ. كما ينبغي أن نتخطّى سرد الأحداث ونتحرّر من سجن الوقائع، إلى إدراك المغزى والفلسفة، وإلى البحث عن العِلل والجذور؛ وذلك ليتسنّى لنا إسقاطها على واقعنا المُعاش؛ فنواميس

الحياة ثابتة لا تتبدّل بمرور الزمان والمكان، والتاريخ الإنساني بحر مفتوح لا حواجز فيه، والأحداث تعيد نفسها بصورة أو بأخرى ومِن آن لآخَر، وكما قال توينبي: «الذين يقرؤون التاريخ ولا يتعلّمون منه؛ أناس فقدوا الإحساس بالحياة، واختاروا الموت هربا من محاسبة النفس أو صحوة الضمير».

وفي ذلك يُسعفني المؤرِّخ عماد الدين خليل بأطروحاته حول فلسفة التاريخ، مع العلم أنّ ابن خلدون هو أوّل مَن صكّ هذا المصطلح؛ قاصدا به تعليل الأحداث التاريخية والنظر إليها بنظرة فلسفية. كما أستفيد كثيرًا مِن بانوراما قصة الإسلام التي قامت على أكتاف الطبيب المؤرِّخ راغب السرجاني. وأَعمد إلى ما سطّره المُحمَّدون الثلاثة كشك ومورو وإلهامي. ولا زلت أذكر بساطة وشمول كتاب (لمحات من تاريخ العالم)؛ والذي سطّره زعيم الهند جواهر لال نهرو مِن داخل محبسه في ثلاثينيات القرن الماضي، وجعله بمثابة رسائل تثقيفية إلى ابنته أنديرا، لإدراكه التام أنّ صانعي التاريخ لابدّ وأن يكونوا على علم تامّ بالتاريخ، ولوعيه العميق بأنّ المعرفة الحقّة لا تكمن في معرفة الأحداث بقدر ما تكمن في إدراك الكيفيّة والسببيّة وراء تلك الأحداث. وفي العموم؛ أجدني منحازا إلى

كتب التاريخ ذات النظرة الكلِّية التي تربط الأحداث بعضها ببعض؛ فتعطيك مفهوما عامًا تقيس به، وتبني على قاعدة التشابك والتطوّر والتسارع والتغيّر التي ترسم قسمات التاريخ. خاصة تلك التي تنبض بالحيويّة وتفيض بالحرارة؛ فترطّب جفاف الحقائق والتواريخ والأحداث. ولعلّ آخر ما وقع في يدي من الكتب الملبِّية لتلك الملامح؛ كتاب (قراءة في تاريخ الوجود) لمؤلِّفه أحمد كنعان.

١٣- التراجِم والسِّير

أظنّ أنّ القراءة في كتب التراجم والسِّيَر هي مِن أمْتع وأفْيد ما يُقرأ، وأظنّ أيضًا أنَّ هذا الظنّ يُشاركني فيه الكثيرون ممّن تتكحّل عيونهم بسواد المداد ليل نهار، وربّما بذلك الإجماع يرتفع ظنّي إلى مرتبة الاعتقاد أو يكاد. فهي روايات واقعيّة بها مِن المنفعة والمعرفة والأُنس، مالا تَعدلها أيّة رواية أخرى حتى لو تأنَّق فيها كاتبٌ وأجاد. وهي جزء من تاريخ الأمم والشعوب إذا ما ضُمّ بعضُها إلى بعض، فتكاملَت فيها الأحداث وتآلفَت كالفسيفساء، باعتبار أنّ كاتب السيرة غالبًا ما يخرج مِن الخاص إلى العام ومن الشخصي إلى الموضوعي، فيُراوح بينهما ويُزاوج. وفي هذا أَستأْنس كثيرًا بقول الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحكايات عن العلماء ومحاسنهم، أحبّ إليّ مِن كثير مِن الفقه؛ لأنها آداب القوم»، وبمقولة جابريل ماركيز: «الحياة ليست ما يعيشه أحدنا، وإنّما هي ما يتذكّره، وكيف يتذكّره ليرويه». وكذلك بقول الشيخ علي الطنطاوي: «وقد اجتمع لي في مكتبتي

الصغيرة، أكثر من تسعين مجلّدا في تراجم الرجال والنساء، ولو أنّ في كل واحدة منها سيرة مئة منهم، لكان من ذلك تسعة آلاف مِن سير العظماء».

وتكمن فائدة هذه التراجم؛ في أنّ الأجيال للأجيال كالمُعلِّم للتلميذ، وأنَّ مَن لم يتّعظ بغيره وقع على أمّ رأسه.. فمَن أراد القدوة السلوكية؛ وجدها بين طيات تلك التراجم والسِّير مرأى العين، لا محض خيال. ومَن رام خبرة الحياة؛ حصَّلها وفي شتى المجالات. ومَن ابتغى الحكمة؛ نالها عبر تصاريف القدَر وأحكامه في هؤلاء الذين جرت عليهم المقادير وسرَت فيهم أحكامُه. ومَن أراد المتعة؛ وجدها حين تطوف روحه بين السطور، وتغوص في حيوات الآخَرين، فتستعرضها كفيلم سينمائي، وتعود منها بغير الوجه الذي دخلت به. ومَن كان فُضوليا يأنس بالقيل والقال؛ لن يعدم إشباع فضوله، حين يتلصّص على أخبار محدِّثه وخباياه الشخصية وأسراره العائلية. فضلًا عن أنَّ صياغتها في قالب أدبي بديع، ينعِّم خشونة ما تحويه من وقائع واحدَاث، فتحبِّب التاريخ إلى قارئه، وتجمع بذلك بين حسَنة القصة الأدبيّة وحسَنة الرواية التاريخية.

وكما أَحسن بعضُهم حين ترجموا لمشاهيرَ رحلوا وعظماءَ اندثروا؛ فأحيوهم بعد ممات، ونقلوهم مِن زمان إلى زمان ومِن رُفات إلى كتب وأوراق؛

فقد أحْسَن العديدُ من القامات حين حانت منهم التفاتة إلى آثار أقدامهم، ثمّ ترجموا لأنفسهم، ولم يُسلموا زمام سِيرهم إلى اللاحقين مِن خلفهم؛ فالخصم لابدّ قادح، والمُحِبّ لابدّ مادح. ومنهم الإمام السيوطي الذي ترجم لنفسه في كتابه حسن المحاضرة، وكذلك فعل الغزالي وابن سينا وابن خلدون ولسان الدين الخطيب وأسامة بن منقذ وغيرهم. ومعلوم أنّ السيرةَ ترجمة مطوَّلة بينما الترجمةَ سيرةٌ مختصرة، والسيرة الذاتية هي ما يُسطِّرها الكاتب عن نفسه بينما السيرة الغيريّة هي ما يكتبها الكاتب عن غيره.

ولعلَّ خير ما يُبدأ به في قراءة السِّير، هو سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فالمعرفة سبيل الحُبّ، والاتّباع لا يكون إلّا على معرفةٍ وبيِّنة، ولا أحقّ بالحبّ وأجدر بالاتّباع من حبيب الرحمن وخاتم الرسل والأنبياء؛ وفي هذا أُثِر عن سيدنا سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قوله: «كنا نعلِّم أولادنا سيرة الرسول ومغازيه كما كنا نعلَّمهم القرآن». وإذْ تسعفني الذاكرة فتقول بأنّ كتاب الشيخ محمد الخضري (نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين) كان سبيلي الأول للاطلاع على هذه السيرة العطرة. فإنها لن تخونني حين تقرّ بأنّ أوّل سيرة ذاتية قرأتها،

كانت (الأيام) لطه حسين، وعندها أَطلعْتُ معلِّم اللغة العربية على انطباعاتي التي سطّرتها بعيْد القراءة؛ فصفّق بحرارة، وطلب منّي قراءة ما سطّرته على مسامع الطلّاب في الفصل، وكان هذا إيذانا بمزيد مِن التقارب مع هذا اللون مِن الأدب العالي المقام. وبعدها كان كتاب (رجال حول الرسول) الذي تَرجم فيه مؤلِّفُه خالد محمد خالد لِستِّين صحابيا، وأَحسبه من أمْتع ما قرأت في التراجم؛ لِما لمسْته من عذوبة الأسلوب ورقّة الطرح وحرارة الروح، حتى صار زمنا، هو إهدائي المفضَّل لَمن تمرّ به مناسبة تستحقّ الإهداء؛ كزواج صديق أو تهنئة بتفوّق أو ما شابه. وهو ما ينسحب على ترجمته للخلفاء الخمسة (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز)، وعلى سيرته الذاتية التي سطّرها تحت عنوان (قصتي مع الحياة). وقريب من تلك العذوبة والرقّة والحرارة، ترجمة الشيخ البوطي لوالده في كتابه (هذا والدي)، والتي تفيض بالمودّة والبرّ والروحانيّة العالية، فضلًا عن أسلوبه الذي يضعه ضمن الثلّة الفصيحة التي لا تخطئ سهامُ حروفها قلوبَ المعاني وأكبادَها. وكذلك ما سطّره الأستاذ عمر التلمساني عن الفاروق عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ في كتابه (شهيد المحراب).

وقد طالعتُ مؤخّرا إحدى كتب دار الهلال بعنوان (سير ذاتية عربية)، وبه إطلالة على السير الذاتية لثمان شخصيات من الطبقة العالية في التاريخ والسياسة والفلسفة والدِّين. وكتابا آخَر بعنوان (عندما كان الكبار تلامذة)؛ وهو كتاب موجز، يسلّط الضوء على إحدى وعشرين شخصية مشهورة حال تلمذتهم. وثالثا بعنوان (مذكرات الأدباء) لمؤلّفه محمد الجوادي، والذي ألمح فيه إلى سبع سير ذاتية سطّرها أدباء من العصر الحديث، وذلك في أسلوب سلس غابت عنه الرمزية التي اشتُهر به الجوادي أو أبو التاريخ كما يُلقَّب على منصات التواصل الاجتماعي. وبالتأكيد هناك مَن حذا هذا الحذْو المختصَر الذكي، الذي يرقص على نغم العصر السريع، ويلبي احتياجات اللاهثين في ميدان الثقافة والفكر، ولا مندوحة في القول بأنّ النّاشِد بجدّ لا يَعدم ضالّته.

ويُعدُّ الأفاضل علي الطنطاوي وأنور الجندي وأبو الحسن الندوي ومحمد المجذوب أكثر مَن جلست إلى موائدهم في أدب التراجم والسِّير، إضافة إلى العقّاد وأنيس منصور وأحمد شلبي، وغيرهم. هذا ويَلزم لِمَن يتصدَّى لكتابة هذا النوع من الأدب؛ أن يكون على معرفة تامّة بالمترجَم له؛ إمَّا عن معاشرة وكتَب

-وهو الأفضل- أو عن رواية وكُتب. مع امتلاك اللغة الأدبيّة الآسِرة، والتّحلِّي بالدقّة والأمانة، والتوفُّر على غرض نبيل ونيّة صالحة مِن وراء تلك الترجمة.

وفي دلالة على التأثير البالغ الذي يمكن أن تتركه تلك الفئة من الكتب، ذكر الأديب أحمد العلاونة، أنّ كِتاب (الأعلام) للأديب والمؤرِّخ خير الدين الزِّرِكْلي، وهو التاج بين كتب التراجم قاطبة؛ كان العنوان الأبرز في توجيه اهتمامه وتركيز جهده على هذه النوعيّة من الكتب، سواء بقراءتها أو التعليق عليها أو التأليف فيها، حتى صدر له أكثر من عشرة كتب في هذا المجال.

١٤- كُتب التطوير الذاتي

كما للخلية نواة، وللبناء لَبنات؛ فإنّ ذواتنا وأنفسنا هي نوَى هذا الكون ولبناته، إذْ منها يبدأ التغيير وإليها ينتهي، وعليها لا على البيئة مدار نهضتنا وتقدّمنا؛ فالاستجابة للمؤثِّر هي التي تُعطي للمؤثِّر قوّته، والتفاعل مع البيئة هو الذي يحدِّد دورها ويرسم لها إطارها. وفي هذا ذَكرت دراسة أُجريت في جامعة هارفارد أن ٩٣٪ من نجاح الإنسان يكمن في ذاته، وعلى هذه الدراسة بنى بعضُهم قانونا يُدعى (٩٠-١٠)، وبه يُعلِّقون ٩٠٪ من نجاحات الإنسان برقبة الشخص نفسه، بينما فقط ١٠٪ مِن النجاح يُرجِعونه إلى البيئة المحيطة.

ومِن هذا المنطلق جاءت أهمية المطالعة في كتب التنمية البشرية، وجاءت نصيحة المفكِّر عبد الكريم بكار بقوله: «من المهم أن نطّلع على بعض الكتب التي تساعدنا على تنظيم شأننا الشخصي، وإدارة إمكاناتنا الخاصّة، حيث إنّ التقدّم الحضاري الحادث الآن؛ يتيح للناس فرصا عظيمة لا تتطلّب المال بمقدار تطلُّبها للمعرفة والكفاية الشخصيّة».

والملاحَظ أنّ هذه النوعية من الكتب قد شاعت ولاقت إقبالا ورواجا؛ حتى احتفت بها دور النشر، وخصّصت لها المكتبات ركنا خاصا، واتجهت العديد من الأقلام إلى الكتابة فيها من واقع تجاربهم وخبراتهم. ولَم يكن هذا الشيوع والذيوع؛ إلّا للحاجة الملِحّة إلى تلك النوعية من الكتب التي تخاطب كلّ شرائح المجتمع، وتلمس مشكلاتنا العملية والواقعية، وتتناول أقرب شيء إلينا وأعزّ وأثمن ما فينا وهي النفس. وكذلك لِما تهدف إليه من زيادة المهارات واكتشاف القدرات وتفجير الطاقات، ولِما ترمِي إليه مِن تحقيق النجاح الذي يصبو إليه كلّ شخص، والقبض على التميُّز الذي يحلم به الجميع، مع الاقتراب مِن شاطئ السعادة التي أَعْيت الباحثين عنها.

وتتحرّك مضامين هذه الكتب ضمن الدوائر الثلاث التي يتقلّب فيها المرء ليل نهار، وهي علاقة الإنسان بربه وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره؛ فتعمل على التنمية الإيمانية والمهنية والأسرية والاجتماعية والشخصية والاقتصادية والصحية، وتمس الأضلاع الأربعة لمربع التغيير (البدني-الروحي-الفكري-الشعوري)، وتدفع باتجاه الفاعليّة والإيجابيّة، وتؤسِّس لعلاقات سليمة وصحيحة مع الزوج والأولاد والأصدقاء والجيران وزملاء العمل وغيرهم.

وقد فتح الغرب الباب أمام هذا النوع من الكتب، أو بالأحرى أماط اللثام عنه وأَطَّره، حتى برز فيه أعلام تُرجِمت كتبُهم إلى العربية وأَحدثت دويّا هائلا؛ أمثال الأكاديمي الأمريكي المتخصِّص في علم النفس ستيفن كوفي بكتابه الأشهر (العادات السبع للأشخاص الأكثر فاعلية)، والذي نُشر قبل نحو ثلاثين عاما، وتُرجم إلى ما يقرب من أربعين لغة، وبِيعت منه ملايين النسخ حول العالم، وتَأمّلَه أيمن أسعد عبده بكتاب عنوانه (التغيير من الداخل)، على غرار ما فعله الشيخ محمد الغزالي إزاء كتاب ديل كارنيجي (دع القلق وابدأ الحياة). ومعلوم أنّ ديل كارنيجي هو علَم آخر في مجال التنمية البشرية، وله في ذلك مؤلَّفات عدّة تناولت فنّ التعامل مع الناس، وكسب الأصدقاء، وتحقيق الأهداف، وفنّ القيادة، وإتقان الخطابة، والاستمتاع بالحياة. ولا نغفل أنتوني روبنز بكُتبه التي تتحدّث عن الخطوات العملاقة التي يجب اتخاذها، وعن طاقاتنا اللامحدودة، وعن إيقاظ العملاق الذي بداخلنا.

أمّا على الساحل العربي فيُعدّ إبراهيم الفقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رائده بامتياز، بعدما وضع على عاتقه -كما قال- إيصال التنمية البشرية لكلّ العالم العربي والإسلامي

في أي مكان في العالم، وهو ما فعله عبر المحاضرات والبرامج والدورات التدريبية، وكذلك الكتب التي بلغت نحو خمسة عشر كتابا؛ وتناول فيها إدارة الوقت، والعمل الجماعي، ومفاتيح النجاح، وسحر القيادة، والبرمجة اللغوية العصبية، وخدمة العملاء، وغيرها من موضوعات التنمية البشريّة. ولا نغفل هنا جهودَ آخَرين كثُر أسهموا ومازالوا في هذا المضمار؛ أمثال طارق سويدان، وصلاح الراشد، وغيرهم. ولعلّ كتاب (لا تحزن) لمؤلِّفه عائض القرني والذي تُرجم إلى لغات عدّة وبِيع منه ملايين النسخ، ينتمي إلى هذا المجال، بما يبثّه مِن روح التفاؤل والرضا وتقدير الذات. ولا يَخلو الأمر طبعا مِن بعض المتسلِّقين الذين ركبوا الموجة؛ فاستغلّوها تجاريا، وأضرُّوا بها فكريّا وثقافيّا، على قاعدة أنّ الشرّ لم يترك للخير بابًا إلّا طرقه.

١٥- كُتب الأطفال

مِن البديهي أن لكلّ مرحلة عمرية خصائصها واحتياجاتها التي تمتاز بها، وبديهي أيضًا أنّ لكلّ مرحلة كِتابها الذي يحترم هذه الخصوصية ويلبّي تلك الاحتياجات. وكما لكلِّ جوف غذاؤه، حتى لَيُسقِم اللحمُ الرضيع ولا يَسدّ الحليبُ جوعة الكبير؛ فإنّ كتبَ الكبار تُعجز الصغار وتُثقل كاهلهم، بينما كتب الأطفال لا تُغني للكبار عقلا ولا تُنضج لهم حسّا.

ونظرًا لما تُمثّله الطفولة مِن قاعدة المستقبل؛ فقد تَوجّه الاهتمام إلى الكتابة للأطفال دون سنّ المراهقة منذ القِدم، فوُلِد أوّل كتاب للطفل قبل أكثر مِن خمسمائة عام (١٤٨٤م)، ثمّ ازدهرت تلك الكتابات في القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر، حتى غدا اليوم هنالك دور نشر ومكتبات وكُتّاب متخصِّصين في هذا النوع من الكتابة. وذلك بغرض الترويح عن الطفل وتنمية الخيال، وبغْية التعليم وإتقان اللغة واستكْشاف الطبيعة، وبهدف اكتساب المعارف وتَبنّي

السلوكيات الإيجابية والتدريب على مشاركة الآخَر والإعداد لمجابهة الحياة، بما يعني أنّ الغرض تعليمي وتربوي واجتماعي وترويحي.

والواقع أنّ الكتابة للطفل ليست سهلة كما يظنّ بعضهم، إذْ إنَّ متطلّباتها أشمل، ومسؤوليّاتها أخطر؛ فالطفل قاصر عن التمييز بين الحقائق والأراجيف، وعاجز عن الحُكم على ما يُعرض عليه من أفكار وآراء، فيَقبل بالكلّ دون الجزء، ويصدِّق دون شكّ، ويُسلِّم دون أدنى اعتراض، علاوة على أنّ تلك الأفكار التي تَشرَّبها في صغره، تسري فيه مجرى الدماء من العروق، فتبقى عالقة في ذهنه وناشبة في لا وعْيه، حتى لَتنمو معه وتكبر دون أن تزايله.

هذا ويُراعَى في كتب الأطفال أسلوب الحكْي والسرْد، ويتوجّب استعمال لغة بسيطة مكتوبة بحروف كبيرة ومشْكولة، مع تحميلها بقدر كبير من المعلومات في إطار مِن التشويق والإثارة. ولا بدّ مِن استدعاء الحيوانات إلى المشهد على غرار قصص كليلة ودمنة الشهيرة، والاستعمال الكثيف لِلَّون والصورة، ومراعاة الفروق الجنسية بين الذكور الذين تستهويهم قصص المغامرات والبطولة، وبين الإناث اللائي يَمِلن أكثر إلى الحكايات الرومانسية والعاطفية. ولهذا؛ يتوجَّب

على الآباء والأمّهات أن يتخيّروا الكُتب لأطفالهم بعناية، ولا يركَنوا إلى الكتب المترجَمة التي لا تُعير اهتماما لخصوصيتنا الثقافية والأخلاقية. مسترشِدين في ذلك بسؤال أهل الخبرة، وواضِعين في الحسبان تلك الدراسات والأبحاث التي دلَّت على أنّ الأطفال بوجه عام؛ يفضّلون الكُتب التي تعكس تقاليد وثقافة المجتمع من حولهم، وتلك التي تُحرّضهم على الإبداع وتستثير خيالهم. كما يميلون إلى القصص ذات الحبكة المركزيّة الواحدة والنّهايات السعيدة، وتلك التي تحكي تاريخ الأجداد وعظمتهم. وربّما بعض هذه المواصفات، إضافة إلى الكم الهائل من المغامرات والأساطير والخيال الذي تعجّ به سلسلة هاري بوتر بأجزائها السبعة؛ هو ما جعلها الأكثر مبيعا في تاريخ الكتب قاطبة، وصعد بالروائية البريطانية جي كي رولنج إلى قمّة الشهرة والثراء.

ولأنَّ مَن يقرأ في المهد يقرأ على الدوام، فقد أكّدت الكاتبة الأمريكية ماري ليونهاردت على لزوميّة القراءة للطفل، وسجَّلت تجربتها القِرائيّة إبّان طفولتها قائلة: «ما زلتُ أتذكّر السعادة التي شعرتُ بها وأنا في سنّ العاشرة من عمري عندما اكتشفتُ في مكتبة جدّتي مجموعة مِن الكتب مثل قصص (البطة العجيبة)

و (جليسة الاطفال)، وهي بعيدة كلّ البعد عن أن تكون كتبا جيدة، لكن مثل هذه الكتب تجذب الأطفال وتحبّب إليهم القراءة، وسوف يأتي وقت يتعب فيه الأطفال من قراءة الكتب الفكاهية والقصص الخيالية، لكنهم حينها يكونوا قد تعلّموا القراءة بشكل جيد. وفي هذه المرحلة تناسبهم القصص المسلسلة المصوَّرة، وغيرها من القصص لتنمية مهارات سرعة القراءة والفهم، فالأطفال يتعجّلون في القراءة ليعرفوا ماذا سيحدث في القصة، وهم يتابعون القراءة بانتباه وعقل متفتّح، وهذه مِن أسس مهارات القراءة الممتازة».

أمّا الكاتب أنيس منصور فروَى لحظة لقائه الأوّل مع كتب الأطفال وعدَّد مواصفاتها القياسية التي يمكن البناء على أمثالها، فقال: «كان أعظم اكتشاف في طفولتي أن وجدتُ روايات الجيب، الكتب صغيرة ولها أغلفة ملونة، ويمكن وضعها في جيبك، وقراءتها وأنت ماش أو نائم وفي أي وقت وعلى أي وضع، وموضوعاتها حكايات مثيرة ممتعة ولا تشبع منها، بل أنت متلهف عليها وعلى المزيد منها، ومعها عرفت المتعة والتسلية والرغبة المؤكّدة في القراءة». ولا عجب هنا أن تجد محدِّثا كبيرا كالشيخ الألباني يبدأ حياة المطالعة بالقصص والحكايات؛

فقد ذكر أنّ أوّل ما طالعه من الكتب؛ كانت القصص العربية كالظاهر وعنترة والملك سيف وما إليها، ثمّ القصص البوليسية المترجَمة كأرسين لوبين وغيرها، هذا قبل أن يدلف إلى القراءات التاريخية والعلوم الشرعيّة.

١٦- الكُتب المُترجَمة

أن نقرأ بلغة ثانية يعني أن نُولد مرّتيْن ونحيا حياتيْن؛ إذْ تتّسع ثقافتنا وتصل إلى آماد ما كنّا لنصل إليها بدون هذه اللغة الثانية، كما نتمكّن من التواصل الوظيفي مع أطراف الجماعة الإنسانية، ذات الخالِق الواحد والأصل الواحد والأب الواحد والأمّ الواحدة، بعد أن شطرتْها اللغات العديدة إلى ألْسن تتراطن وثقافات تتناطح وتتناحر. أضِف إلى ذلك أنَّ ما يُكتب ويُطبع ويُنشر باللغة العربية، ليس إلّا نقطة في محيط شاسع، يَرمي فيه العالَم بمؤلَّفاته ومطبوعاته على مدار الدقيقة والثانية، ويكفي أن نعلم أنّ العالَم يَكتب بخمسمائة لغة، وأنّ ثلثي الإنتاج الفكري العالمي يَصدُر بلغات خمسة هي: الإنجليزية والروسية والإسبانية والألمانية والفرنسية، وأنَّ اللغة الإنجليزية هي لغة التواصل الأولى عالميًا... بما يعني أنَّ قارئ العربية النّهِم إنّما يسبح على ساحل الفكر لا في بحره ويغوص في رمال العِلم لا في أعماقه، وأنّ مَن يقتصر في قراءته على العربية سيكون كمَن يكتفي بشمّ الطعام وتذوّق الشراب وارتداء ياقة الثياب!

ليس هذا فقط؛ فمعرفة اللغات الأجنبية يمكِّننا من كشف زيف بعض الكتّاب الذين يستغلّون جهل القرّاء بتلك اللغات، فيتورّطون في السرقات الأدبية التي تتخطّى الأفكار باعتبارها ملكيّة عامّة يجوز فيها توارد الخواطر ووقْع الحافر على الحافر، وتصل إلى النصوص والأشعار بطريقة القص واللصق التي لا يحار في كشفها نصف لبيب، و ليت الأمر اقتصر على كتّاب مغمورين يبحثون عن جرعة ضوء وكِسرة شهرة، ولكنّه طال كتّابا كبارا أمثال المازني الذي اتهمه صديقه شكري بذلك، وأدونيس المتّهَم في كتابه (أفق الحداثة وحداثة النمط).

ولو دقَّقنا في سِير المفكّرين والعلماء لَمَا وجدناهم إلّا على دراية تامّة بلغة أو أكثر غير لغتهم الأمّ، بل إنَّ بعضَهم تَعلَّم هذه اللغات في سنٍّ اعُتبر التعليمُ فيه كالرسم على الماء والنفْخ في الهواء؛ فالأديب والشاعر الألماني جوتة تعلّم اللغة العربية في عقده السادس، والزعيم سعد زغلول عمد إلى دراسة اللغة الألمانية في ستينيات عمره على إثر اجتياح هتلر لأوروبا مؤذنا بصدارة العالم آنذاك. وقد سجّل الشاعر العراقي فاضل الغزاوي تجربته في التحدّث بأكثر مِن لغة وأثر ذلك على لغته الأمّ التي يكتب بها قائلًا: «بعد عيْشي في ألمانيا وأسفاري إلى بلدان

كثيرة حول العالم، أدركتُ أنّ إتقان المرء لِلُّغات الأخرى يجعل لغته الأمّ التي يكتب بها أكثر دقّة ورهافة، وربّما ساعده ذلك أيضًا في امتلاك لغة منقّاة من الحشو والفضفضة البلاغيّة». ولله درّ الشّاعر صفي الدين الحلّي الذي رغّب في تعلُّم اللغات بقوله:

بِقدْرِ لُغاتِ المَرءِ يَكثُر نفعُه فتِلكَ لهُ عندَ الملمّاتِ أعوانُ
تَهافَتْ على حِفْظِ اللّغاتِ مُجاهِدًا فكلُّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ

بالطبع لا ننكر هنا دور حركة الترجمة التي تناقلتْها الأمم منذ القدم، وأدّت وظيفة اجتماعية تقاربَت بمقتضاها الشعوب، ووظيفة معرفيّة عبرت عليها أفواج المعارف وقوافل الحضارات؛ فترَجم العربُ في القرن الثاني الهجري عن اليونان والترك والفرس والهنود، عبر دار الحكمة التي أنشأها هارون الرشيد وازدهرت في عهد ابنه المأمون. ثمّ أعاد رفاعة الطهطاوي الكَرَّة، عبر موجة جديدة قاد سفينَها قبل أقلّ مِن مائتي عام مضت، وذلك حين أنشأ مدرسة الألسن عام ١٨٣٥م، قبل أن يسدَّد رمْيه ويبارك خطوه أقلام حذقت الترجمة أمثال المازني والمنفلوطي وجبرا إبراهيم وأنيس منصور وغيرهم. ولا نغفل أيضًا الدور الحالي

لكتائب المترجِمين ودُور النشر التي كرَّست جهدَها لنقل المعارف والعلوم، من خلال ترجمة أمّات الكتب والمؤلَّفات الأجنبية إلى لغتنا العربية؛ إذْ لولاهم لَمَا نما إلى علمنا أمثال تولستوي وشكسبير وجورج أورويل وبابلو نيرودا. ومعلوم أنَّ الماء يتحدّر مِن أعلى إلى أسفل، وأنّ الحاجة إلى الترجمة تزداد في الأمم الأقلّ تحضّرا عنها في الأمم الأكثر تقدّمًا وتحضّرًا.. ومع هذا يبقى الكتاب المُترجَم فرعًا عن أصل ورافدًا مِن نهر؛ وشتّان بين مَن يشرب الماء من نبعه الزلال، ومَن يشربه بعد أن مرّ في أنابيب الترجمة التي تَضيع فيها بكارة الكلمة وروح الشِّعر وأصالة الفكرة؛ حتى لَتبدو الكلمات كثوب ملبوس وطعام ممضوغ وهواء مزفور، وهو ما لا يَستسيغه طامحٌ للمجد وساعٍ إلى التميّز. فضلًا عن أنّنا في ذيل الركب العلمي، وبعيدين كلّ البعد عن مواقد وأفران الخبز الفكري، وبالتالي لن تصلنا الفكرة والمعلومة في ثوب لغتنا الأمّ إلّا بعد ردح من الزمن، ولن تصل -هذا إن وصلت- إلّا وهي تترنّح وتترنّم قائلة: «فات الميعاد»، هذا على افتراض أنها ستسلَم من شبهات التحريف والتصحيف والتجريد التي يمكن أن تنتاب كلّ نص منقول تَناولتْه أيد غير أمينة ولا نزيهة ولا حاذقة.

وللتدليل على ما تفعله الترجمة من مسخ لبعض الكتب؛ أسوق تجربة الكاتب أيمن سعيد عبده مع كتاب ستيفن كوفي (العادات السبع للأشخاص الأكثر فاعلية) بقوله: «لمّا ظهرت الترجمة العربية للكتاب، اقتنيتُها وقرأتها مرّات عديدة دون أن أشعر نحوها بالجاذبية التي شعرتها حال قراءة الطبعة الإنجليزية؛ ذلك أني شعرتُ بأنّ الترجمة كانت ترجمة حرفية(١) وخالية من أي روح. بدأ ذلك من عنوان الكتاب الذي تُرجم على أنه (العادات السبع للقادة الإداريين)، وهو تحويل غريب للمعاني العالية والمبادئ الشاملة في الكتاب الأصلي ووضعها في قالب مادّي تجاري، وهذا ظلم للكتاب والكاتب، فضلًا عن التحريف الظاهر لعنوان الكتاب باللغة الأصلية». ولعلّ هذا النوع من الترجمة القميئة التي يقتل فيها المترجِم نَصَّيْن بجرّة قلم واحد، ويضحِّي فيها بالأمّ والجنين معا، هي ما وصفها الأديب محمد عنبر بقوله: «مِن المترجمين مَن يمزّق اللغة التي ينقل منها، ليرقِّع اللغة التي ينقل إليها، فيترك إحداهما عارية تتوارى، ويترك الأخرى -وهي كاسية- أشدّ تواريا».

(١) عن مواصفات الترجمة الأمينة، قال المترجم السوري خالد الجبيلي: «الأمانة في الترجمة؛ تتطلب نقل النص من حيث الروح والمعنى بأمانة وبشكل كامل، إلى درجة أن يشعر قارئ النص الأصلي وقارئ النص المترجَم بانهما أمام نص واحد لكن بلغتين مختلفتين، وأنهما يجدان المتعة نفسها وتنتابهما المشاعر ذاتها».

هذا وينبغي لَمَن يبدأ في القراءة بلغة أجنبية ثمّ يتعثّر في كلمة لا يُحير لها معنى، أن يتجنّب القفز إلى المعجم بحثا عن معناها، لأنّ ذلك ممّا يقطع تسلسل القراءة ويُحيلها إلى قراءة مهلهَلة رديئة، قليلة النفع وثقيلة الحمل، بل الأفضل أن يُجهد أحدُنا نفسَه في محاولة لفهم المعنى عبر السياق، أو يعمد إلى تجميع الكلمات ذات المدلولات الصعبة والبحث عنها جملة بعد انتهاء شوط القراءة.

وعلى طريقة القدماء في الاستطراد، أعود بالذاكرة إلى نحو أربعين عامًا خلَت، أي أيام الدراسة الجامعية، وذلك حين زرتُ صديقا، وعثرتُ في زاوية شقّته على كُتب مغبّرة، بدا أنها تشكو الهجر والإهمال منذ أمد بعيد، وكان من بينها كتاب مترجَم بعنوان (آثرتُ الحرية) لفكتور كرافتشنكو، والذي فضح فيه الدبلوماسي الروسي نظامَ ستالين القمعي، بعد تمكّنه من الهرب إلى أمريكا، وأَحدث دويا هائلا آنذاك. ولمّا أبديْت رغبتي في استعارة الكتاب، لم يتردّد الزميل في منحي إيّاه ملكا لا استعارة، وربّما شكرني في سرّه لِتخلّصه منه. ومع أنّ الكتاب صدر في عام ١٩٤٦م وتُرجم إلى العربية في عام ١٩٤٨م، إلّا أنه يُعدّ من الكتب النفيسة، ولا زال باق لديّ إلى الآن، ولكنه يتربّع على رفّ لا يقبع في زاوية، ومعزّزًا مكرّمًا لا مهجورًا منبوذًا.

١٧ - الأكثر مَبيعًا

مع تناسُل الفضائيات كالفطر البري، وفي خضمّ ثورة الاتصالات التي تسوق الناس بعصا الإنترنت إلى أودية الهواتف الذكية وحقول التواصل الاجتماعي؛ أصبح مِن السهل إحداث حملات دعائية كثيفة تجعل مِن القزم عملاقا ومِن الفأر أسدًا ونعامة. وهو ما دخله الكِتاب بامتياز حين تحوّل من إبداع رصين يأتيه الناس ولا يأتيهم، إلى سلعة تجارية لسان حالها يقول: أَعطِني دعاية أعطيك كتابا أكثر مبيعا. إذْ تعمل الدعاية عمل مكبِّر الصوت الذي يُحوِّل الهمس إلى ضجيج، وتفعل فعل العدسة المكبِّرة القادرة على إلباس النملة ثوب الفيل. أضِف إلى ذلك أنَّ أيَّ شخص مشهور في مجال التمثيل أو الغناء أو السياسة أو الرياضة أو حتى الرقص؛ بإمكانه أن يكتب كتابًا أو حتى يستأجر ما يُسمَّى بالكاتب الشبح ليكتب له، وعندها ستجد كتابه في قائمة الأكثر مبيعا والأوسع انتشارا. بل إنّ المغمور أيضًا يستطيع أن يدخل تلك القائمة إذا حقَّق ما يطلبه

المستمعون؛ فكتَب بلغة الشارع، وتَناول موضوعات تعجّ بالسخرية والإثارة والجدل، ولم يُلقِ بالا للمألوف مِن الأعراف والتقاليد والآداب والمقدّسات، ودهس بقلمه عتبة ثالوث الجنس والدين والسياسة. فضلًا عن الوهم الذي يصطنعه بعض الناشرين، حين يسوِّقون لكتاب في طبْعته العاشرة، ثمَّ تكتشف أنّ كلَّ طبعة لا تتعدّى بضع مئات!

وبالعودة إلى الجذور، نجد أن تلك الصيحة بدأت في الولايات المتحدة الأمريكية مع نهاية القرن التاسع عشر، وتزامنت مع ظهور دور النشر الخاصة، وتعزَّزت بتحويل الكتب إلى أعمال سينمائية وإذاعية وتليفزيونية، أو حصولها على جوائز محلية ودولية، أو ترجمتها إلى أيّ من اللغات الأجنبية. ناهيك عن أنّ الكتب كالبشر، لها حظوظ تخطّها يد المقادير بلا علّة ولا سبب.

هكذا برزت ظاهرة الكُتب الأكثر مبيعا، وصارت مسطرة مزيّفة تُقاس بها الكتب، وعنوانا رائجا يتقاطر عليه القرّاء في المعارض، ويلحوّن في طلبه مِن المكتبات التي ساهمت في اللعبة وخصَّصت لتلك الكتب رفّا مميّزا يتصدّر الواجهة. ولا مجال هنا للسؤال عن التقييم الموضوعي الذي يفحص الكتاب

بالمجهر ويُدقِّقه تدقيق الصائغ في المجوهرات؛ فالمقياس هو الطفرة في حجم المبيعات خلال فترة زمنية محددة، والمعيار هو الكمّ أكثر من الكيف، والأفضلية لبريق الأسماء لا وهج الكلمات. وخُذ على ذلك مثالا؛ الكتاب الفضائحي الذي تعرَّضت فيه اعتماد خورشيد لفساد السياسة وعهر الفنّ، من خلال شخص صلاح نصر مدير المخابرات في العهد الناصري المنكوب؛ فقد أحدث الكتاب ضجة هائلة، ونفدت نسخُه بمجرد نشرها في عام ١٩٨٨م، وطُبع ستّ طبعات في غضون ثلاثة أشهر، قبل أن يُسحب من الأسواق ويُمنع تداوله بحكم قضائي، وساعتها كنت طالبا مقيما في المدينة الجامعية، ولا أزال أذكر كيف كان الكتاب يُتداول بين غرفة وأخرى بأسبقيّة الحجز!

وقد رصد عبد الله الغذامي هذه الظاهرة في كتابه (اليد واللسان) وعلَّق عليها بقوله: «والحقّ أن ظاهرة الكتب الأكثر مَبيعا في الغرب ليست علامة على القراءة الجادّة، ولكنها علامة على المكاسب الماديّة وعلى الاستهلاك السطحي للكتاب، وتلك النوعيّة من الكتب هي كتب ساذجة وبسيطة وليست كتبا في المعرفة ولا في الثقافة العليا ولا في الثقافة الجادة، وهي إلى الاستهلاك وصناديق

القمامة أسرع منها إلى العقول، وكثيرًا ما يترك الناس هذا النوع من الكتب على كراسي الانتظار في المطارات وعلى مقاعد الطائرات والقطارات للتخلص منها بعد التسلي بها لساعات. وهي كتب تُباع عادة في أكشاك المطارات ومحطات السفر بعامة، وتصاحب الجرائد اليومية في مواقع بيعها، أي أنها كتب يومية كالجرائد اليومية، ولغتها ومستواها هي لغة الصحافة ومستوى الصحافة، وهذه مسألة لابد من الأخذ بها وقت المقارنة، لكيلا نخلط بين الجادّ والبسيط».

وهذا يعني أنَّ الكتاب الأكثر مبيعًا والأوسع انتشارًا، ليس بالضرورة هو الأجدر بالشّراء والأليق بالقراءة، وإلّا لكانت المواقع الإباحية التي تأتي في صدارة المواقع الإلكترونية، مِن حيث قوائم البحث وعدد الزوار، هي الأفضل والأليق والأجدر! وهنا، ينبغي أن ننتبه إلى معيار الجودة في الكتاب؛ مِن حيث الأفكار التي تَبني العقول، والقِيم التي تُؤسِّس للفضيلة، والمعاني التي تَغرس روح الأمل والعمل. وهي الثلاثية النبيلة التي يحرص عليها كلّ كاتب يتمثَّل الملَكيْن ينسخان ما يُسطِّر، ويتخيّلهما يُودِعان كلّ حرف ضمن صحائف أعماله؛ فيحمل في وجدانه ضميرًا يقظًا وعقلًا راشدًا وقلمًا نقيًا، ويَسير بالقارئ سيْر

الشَّفوق وسط دروب الحياة الصعبة؛ فيَعزف على وتره، ويضرب بدفّه ليعالجه علاج الطبيب الحاذق ويعيد ترتيبه كمهندس خبير، ولِيمنحه الثقة والتفاؤل ويُزيد في إيمانه ويقينه.

١٨ - الكُتب الهابطة

لا عجب أن تجد بين الكتب ما يمكن وصفه بأنه دون المستوى أو تافهٌ أو هابط، فالزهْر والشوْك يتجاوران في الرياض، والخيْر والشرّ يتسابقان في الحياة كفرسَي رهان، وغلمان إبليس لم يتركوا حبلا إلّا ورقصوا عليه رقصة الإغواء والإفساد. ولكن العجب كلّ العجب، مِن الإقبال على هذه النوعيّة من الكتب، والذي يؤشِّر فيما يؤشّر، على فساد الذائقة وتدنِّي العقل وضعف روح المسؤولية. وهو ما برّر للكاتب الفرنسي فاليري لاربو اعتبار قراءة هذه الكتب رذيلة من الرذائل التي لا يعاقِب عليها القانون؛ وعلَّل ذلك بأنّ أصحابها يلجؤون إليها بوصفها مخدِّرا يُغيبِّهم عن الواقع، لا كتابا يحسِّن من واقعهم الرديء ويأخذ بيدهم إلى الأرقى والأجمل.

ولأنَّ المثَل يقول: إذا عُرف السبب بطل العجَب؛ فإنَّ علينا أن نقرأ ما سطّره الناشر محمد عدنان سالم، في معرض حديثه عن الدوافع والأسباب التي

تقف وراء هذا الإقبال بقوله: «الواقع أنّ كثيرًا مِن القرّاء لا يرون للقراءة هدفا وراء تزْجية وقت ميت، أو دفْع سآمة عارضة، أو جلْب نوم بعد سهاد، ممّا حدا بعض الناشرين إلى استغلال هذه الظاهرة لتقديم كتب هابطة، ومعلومات مبتذلة عن غرائب العالم، وعجائب الدنيا، وعن الألغاز والسّحر والشعوذة والجريمة. ومن المؤسف أنّ نشْر مثل هذه الكتب يشكّل استثمارا ناجحا، بينما الأعمال الجادّة والكتابات المؤصَّلة، لا تلقى ما تستحقّه من الاهتمام، ونشرها يعتبر مشروعا مثبِّطا يؤدِّي إلى الخسارة. إنّ القراءة غذاء الفكر، ومَثل القارئ الذي يفضّل الكتب السهلة والقراءة الخفيفة، كمن يختار لغذائه المقبِّلات والمأكولات الخفيفة التي لا تقيم له أودا ولا تبني له جسدا».

ثمّ نعرج على ما ساقه المفكِّر عبد الكريم بكار مِن أسباب أخرى، بقوله: «لقد ولَّد عصرُ السرعة في نفوس كثير من الناس نوعا من الملل والضجر، والنزوع إلى الهروب من بذل الجهد على القراءة المتأنّية العميقة، ودفَع بكثير من الشباب نحو البحث عن الكتب السهلة التي يمكن للمرء أن يقرأها وهو مستلقٍ في سريره، لكنهم سرعان ما يكتشفون أنّ ما استفادوه من قراءاتهم

ضحل للغاية، وهذا إذا لم نقل: إنّ بعض الكتب قد فُهم فهما سيئا، وبعضها لم ينوِّر قارئه، وإنّما أَورثه الخبال!»

وهنا علينا أن لا نحتجّ بمقولة العقّاد: «ليس هناك كتاب أقرأه إلّا وأستفد منه شيئا جديدا، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، فأتعلّم ما هي التفاهة، وكيف يكتب التافهون؟ وفيم يفكّرون؟»...

إذْ مَن منّا يمتلك مناعة العقاد ضد الفيروسات والفطريات والبكتيريا التي تحتويها صفحات الكتب التافهة؟

ومَن مِنّا يملك الحس النقدي الذي امتلكه العقّاد وفنّد به الكثير من الشبهات الفكرية التي يمكن أن تُودي بالأغرار في مقتبل القراءة وبداوة التحصيل؟

ومَن منّا يضمن عدم الهزيمة أمام كتاب كهذا الذي وصفه الشاعر أحمد محرم[١] بقوله:

ففي كلّ سطرٍ منه حتفٌ مفاجئ وفي كلّ حرفٍ منه جيشٌ مهاجم؟

(١) جاء هذا البيت وصفا لكِتاب (قاسم أمين) بخصوص تحرير المرأة.

وإذا تمعنّا في الكوارث التي تجنيها المجتمعات من وراء سقوط الوعي، وفي الحرائق التي يشعلها هبوط الفكر؛ أدركنا أنّ الأمر جدّ لا هزل فيه، وأنّ الحاجةَ ملحّة لنُسلم آذانَنا وعقولَنا إلى ما نبَّه عليه راغب السرجاني بقوله: «الكثير من الشباب الذين يقضون وقتا كبيرا في القراءة لا يُحسنون اختيار المادّة التي يقرؤونها؛ فمنهم مَن يُضيّع الساعات كلّ يوم في قراءة عشرات الصفحات من أخبار الرياضة، أو أخبار الفن، أو قراءة القصص العاطفية والروايات الغرامية والألغاز البوليسية...وماذا بعد كلّ هذه القراءات؟ لا شيء!! وهذا أمر في غاية الخطورة، فإذا كان للقراءة هذه الأهمية الكبرى، فإنَّ المادة التي يجب أن نقرأها هي أيضًا مِن الأهمية بمكان».

ولو تأمّلنا دورة هذه الكتب الهابطة لعلمنا أنّ المسؤولية ثلاثية؛ يتحمّلها المؤلِّف الذي تجاهل أنّه باحث عن الحقّ والحقيقة، فتجرّد مِن سلاحَي الإخلاص والاجتهاد، وارتضى لقلمه أن يكون دون المستوى العلمي واللغوي المأمول، مستغلّا في ذلك بياض الورق ونعومته، فضلًا عن سِلميّته التي لا ترفض ولا تجادل ولا تعارض. ويتحمّلها النّاشر؛ الذي افتقد عنصري الثقافة والتخصّص،

فطعن الكتاب في ماهيّته وكيفيّته، وفرّط في حقّ القارئ الذي اكتسبه بموجب ما نزفه من مال وأنفقه من وقت وجهد. ويتحمّلها كذلك القارئ؛ الذي نزَّه سمعَه عن رديء القول وبصرَه عن قبيح المنظر ولسانَه عن بذئ الكلِم، ولكنه لم ينزّه عقلَه عن رديء وقبيح وبذيء الكتب، وهو بهذا ظالم لنفسه من أوسع أبواب الظلم؛ فأوّل الإنصاف إنصاف المرء نفسَه، وأعلى مقامات الإحسان إحسان المرء إلى عقله وقلبه وروحه، ومعرفة القارئ بما لا ينبغي له قراءته، هو بذات أهمية معرفته بما ينبغي أن يقرأه.

ولا أقلّ هنا مِن تحية إجلال واحترام إلى الأمريكي الشهير (لاغوارديا)، والذي أصدر جريدة أسبوعية سمّاها (الزهرة الصغيرة)، ولكنّها جابهت مصاعب مالية كبيرة، أوْدت بها إلى حافة الإفلاس والإغلاق، وفي خضم محنتها جاءه عقد مغرٍ من إحدى دور الطباعة، للترويج لكتاب طبيّ يحوي معلومات غير موثوق بها ومشكوك في أهليّتها العلمية، وبرغم أنّ العقد كان كفيلًا بانتشال الجريدة من وهدتها، إلّا أنّ الرجل رفض وفضّل إغلاق الجريدة، وعندما عارضه المدير المالي بشدّة، سأله: إذا مرض ولدُك هل تطبّق عليه هذه النصائح الواردة في

الكتاب؟ قال: لا، فقال (لاغوارديا): إذا كان الكتاب لا يَصلح لولدك، فإنه لا يَصلح لأولاد قرّاء جريدتنا.

والواقع أنّ النّحل لا يحطّ إلّا على الأزهار، والقارئ الجيّد -كما قال هنري ميللر- سوف ينجذب إلى الكتب الجيّدة، وسوف يكتشف ما هو المُلهِم أو المُثمِر، أو فقط ما هو المُمتع. ناهيك عن أنّ الكتاب الجيّد يقود إلى كتب جيدة؛ تارة باقتباس رائع منها بين السطور، وتارة أخرى بالإحالة إليها في المراجع، أو الاستشهاد بها في هامش.. ولنكن على ثقة بأنّ ما يَحتوي قيمة وسحرا وجمالا وحكمة لا يُمكن أن يَضيع أو يُنسى؛ فالعملة الزائفة عوْرتها بادية، والعملة الجيّدة فوق القمّة متوَّجة، وصدق الجليل العظيم إذْ يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(١)].

(١) سورة الرعد الآية: (١٧).

١٩- الصفحات المَنسيَّة

لو مددتَ يدك إلى رفوف مكتبتك، وتناولتَ أيّ كتاب، لوجدْتَه يتألَّف عادة من غلاف خارجي؛ يتمدّد في باحته عنوانُ الكتاب واسم المؤلِّف ودار النشر بخطوط موشّاة بارزة، ويُصنَّع من ورق مقوّى[(١)] لِحفظه من تناوب الأيدي وصيانته من وقْع أقدام الزمان. ثمّ تأتي صفحة الغلاف الداخلي وتُسمَّى صفحة العنوان، ويليها الإهداء، فالمقدِّمة، فقائمة المحتويات التي قد تُؤخَّر في الكتب المعاصِرة فيُذيَّل بها الكتاب، لتصل بعد ذلك إلى متْن الكتاب بفصوله وأبوابه، قبل أن تنتهي إلى الفهارس والملاحِق.

وكثيرًا ما يمرّ أحدُنا على الفهارس -إن وُجدت- مرور الكرام، فلا سلام ولا كلام، عِلما بأنَّ الفهارس للكتاب كالسيرة الذاتيّة للإنسان. وهي فهارس

(١) في الطبعات الشعبية تُطبع الكتب بغلاف ورقي خفيف؛ بغرض ضغط النفقات، وبيع الكتاب بسعر زهيد. ومن الغريب والشاذ وجود مجموعة من الكتب مغلفة بجلد الإنسان، وموزعة في مكتبة جامعة هارفارد وجامعة براون ومتحف موتر! إلى جانب مجموعة أخرى مغلفة بجلود الاغنام والخنازير!

وليست فهرسا واحدًا كما يعتقد الكثير؛ ففيها فهرس للأعلام التي ورَدت في ثنايا الكتاب، وفيها فهرس للآيات وآخَر للأحاديث وثالث للبلدان ورابع للأشعار وخامس للكلمات المفتاحية التي تناثرت هنا وهناك، وللكاتب أن يزيد في الفهارس كيفما اتفق؛ وفي حال قراءتها يمكننا مطالعة الكتاب جزئيا، والوقوف على موضوعه والحكْم عليه، دون عناء تصفّح الكتاب بأكمله. ومع أنّ الكتب التراثية كثيرًا ما اعْتنَت بهذا الأمر، وورثه عنها الكُتّاب الغربيّون؛ حتى لتجد الكِتاب ذا المائتي صفحة تحتلّ الفهارس فيه العشرين والثلاثين صفحة؛ فإنَّ الكُتب المعاصرة، غير الأكاديمية، وبدافع التوفير الذي تمارسه دور النشر أحيانًا، تلجأ إلى الاكتفاء بفهرس المحتويات دون بقية الفهارس، باعتبارها سقْط متاع لا تهمّ القارئ العادي.

هذا فضلًا عن فهرس المصادر التي هي بمثابة الأصول والأمّهات، وفهرس المراجع التي تُعدّ بنات الأصول وفروع شجرتها؛ ولا يَظنَّن قارئ أنَّ المراجع التي يُوردها الكاتب في نهاية كتابه بالعشرات والمئات قد قرأها سطْرا سطْرا، خاصّة حينما يُوردها مفصَّلة لا مُجتزَأة، فيسجِّل الموسوعات ودوائر المعارف، و

يُحصي القواميس والمعاجم والأطالس وربّما البيليوغرافيات، وغيرها؛ وإنّما هي للكاتب بمثابة المُستشار الذي يُسأل بين الفينة والأخرى فيُجيب، وبمثابة المُفتي الذي يُستفتَى فلا يَمتنع، وذلك لِما بها مِن شمول وتنظيم وسعة؛ إذْ غالبا ما يقوم بها اللفيف من الكتَّاب ومراكز الأبحاث، وتنهض بها المؤسّسات لا الأفراد. ولعلّ في الاطلاع على عناوين هذه المصادر والمراجع، ما يُحفِّز على اقتنائها ومطالعتها، إضافة إلى الدراية بالجديد منها والنادر فيها. ومعلوم أنّ الموسوعات والقواميس والأطالس تُعدّ العُمدة وسط الكتب؛ وذلك لأنها طويلة المفعول فلا تصدأ بمرو الزمن، وذات قيمة مضافَة فلا تتآكل بفعل عوامل التعرية، ويُراعى فيها أقصى درجات الدقّة فتتمتع بالموثوقية العالية.

وغنيٌّ عن القول، أنّ البيليوغرافيا قوائم موسَّعة للمؤلَّفات، ومنها العامّة التي يختلط فيها شرق الكُتب بغرْبها، ومنها المتخصِّصة في فرع محدّد من فروع المعرفة، وهي وإن كانت لا تهمّ القارئ العادي إلّا أنها القرص الصلب لطبقة الكتّاب، والذاكرة الفولاذيّة لدور النشر وأصحاب المكتبات والعلماء، ويُعتبر كتاب (الفهرست) لابن النديم أشهر البيليوغرافات العربية القديمة.

وإذا كانت الفهارس مِن الصفحات المَنسيّة التي يُهملها الكثير مِن القرّاء،

فكذلك صفحة الإهداء التى تتصدّر الكتب؛ إذْ إنّ قليلِين هم مَن يتوقَّفوا عندها ويتفحّصوها بأناة، رغم أنّ الكاتب قد تَوقَّف عندها مليّا؛ فقدح ذهنَه وحكّ ذقنه وعرك شحمة أذنه؛ سواء مِن حيث اختيار المُهدَى إليه، أو من حيث الصياغة. ولا أقصد هنا الإهداءات الكلاسيكية التي تحمل معاني الحبّ والوفاء والعرفان بالجميل؛ لأب، أو أمّ، أو ولد، أو زوجة، أو مُعلِّم، أو صديق، أو حتى لمكان وزمان وأشياء. ولكنِّي أعني الإهداءات المتميّزة التي تقطر حكمة وبلاغة وطرافة، وتُبرِز مَعْلما مِن معالم شخصية كاتبها، وتُشكّل عتبة ذهبية للنصّ ومفتاحا سحريا للكِتاب ووردة على صدر كلماته.

ومِن هذه الإهداءات التي تلمس جدار العاطفة وتختصر الكتاب في كُلَيْمات لا كلمات، ما كتبه المنفلوطي في مقدّمة كتابه (العَبرات) قائلًا: «الأشقياء في الدنيا كثير، وليس في استطاعة بائس مثلي أن يمحو شيئا مِن بؤسهم وشقائهم، فلا أقلّ مِن أن أسكب بين أيديهم هذه العبَرات، علّهم يجدون في بكائي عليهم تعزية وسلوى»[(١)]. وكذلك الإهداء الحالِم المُدهِش للروائية غادة السمّان في روايتها (كابوس بيروت) حين كتبَت: «أُهدي هذه الرواية، إلى عُمّال المطبعة

(١) من العجيب أنّ المازني جار على المنفلوطي، واتكأ على هذا الإهداء، فوصف أدب المنفلوطي بأنّه من النوع الناعم الأنثوي الذي يقتل الرجولة!!

الذين يَصفُّون في هذه اللحظة حروفَها رغم زوبعة الصواريخ والقنابل، وهم يعرفون أنّ الكِتاب لن يحمل أسماءهم». وكذلك إهداء الكاتب أدهم شرقاوي في كتابه (كشّ ملك)، والذي يحكي في كلمات موجزة قصّة واقعيّة تفتح شهيّتك على التهام صفحات الكتاب، وذلك حين كتب قائلًا: «إلى مدرِّس اللغة العربيّة، الذي قذف دفتر التعبير في وجهي، وقال: ستموت قبل أن تكتب جملة مفيدة!». وكذا الإهداء القصير الماكر الذي غمز به طه حسين الكسالى والمُعوِّقين في كتابه (مِن لغْو الصيف) فقال: «إلى الذين لا يعملون ويؤذيهم أن يعمل الآخَرون». أمّا الطرافة؛ فتجدها في إهداء كتاب (مذكرات سمين سابق) للسمين سابقا الإعلامي تركي الدخيل، وقال فيه:» إلى الميزان بأنواعه، الإلكتروني منه وذي المؤشّر الأحمر! أيها الصامد أمام أوزان البشر، يامَن تتحمّل البدين منهم والنحيف، يامَن تصبر على ثقل دمهم قبل ثقل أجسادهم».

وبالإضافة إلى الفهارس والإهداءات، نجد التقديمات التي يخطّها بنان المشاهير أو أصحاب الباع في موضوع الكتاب، وتكون بمثابة تزكية للمؤلِّف وتوطئة للكِتاب، وهو تقليد وافد من الغرب انتهجه كثير من الكُتّاب المعاصرين

حتى شاع وراج. ولا شكّ أنّ بعضًا من تلك التقديمات تتحلى بالموضوعية، وتنأى عن المدح والتقريظ والإطراء، وتتضمّن مادة فكرية وأدبية، وبهذا تصبح جديرة بالمرور عليها مِن قِبل القارئ، وتُظلم إن صارت إحدى الصفحات المنسيّة.

المفتاح الرابع:

نجوم في سماء

القراءة

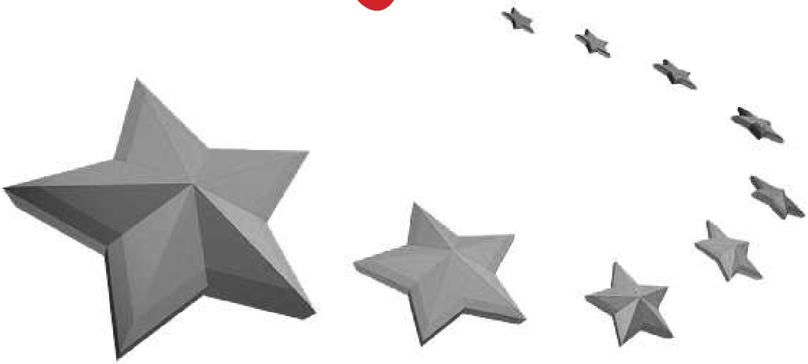

١- الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ)

إمامُ النثر العربي بلا منازع، وأحد العشرة المبشَّرين بالبلاغة. وُلد بمدرسة النحو الأولى (البصرة) لأبويْن فقيريْن، وما لبث أن بسط عليه اليُتمُ رداءَه القاتم، فجمع بذلك بين مأساتي الفقْر واليُتم، فضلًا عن الدّمامة التي سبقتْهما وتَبدَّت في نتوء عينيْن خلَعت عليه لقب الجاحظ والحَدَقي، والتي ربّما تعود إلى إصابته بفرط نشاط الغدّة الدرقية.

تَعلّم المبادئ الأولى في القراءة بكُتّاب بلْدته (كنانة)، وارتحل إلى البادية ليتعلّم أصول اللغة ويلتقط أخبارَ العرب وأشعارَهم وأمثالَهم وطرائفَهم، ثمّ اتصل بأكابر عصره من البلغاء وأرباب الرأي والفكر، كالأصمعي والأخفش

والنظَّام وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم، فحاز بذلك فنون الأدب والتاريخ واللغة. كما انشغل بالدِّين، ولكنَّه تفلْسف فيه، وحكَّم العقلَ في ما لا يقدر عليه وما لم يُخلق له، فتَرأَّس بذلك إحدى فرق المعتزلة التي عُرفت باسمه. وقد وصفه ثابت بن قرّة بأنّه شيخ الأدب ولسان العرب. بينما حجز له بعضُهم كرسيّا وسط العلماء؛ فنَسبوا إليه اكتشاف مسام تنفّسية في الجلد، وعَدُّوه المؤسّس الأوّل لعِلم الغرائز وليس (بافلوف) الروسي، بناء على مشاهداته وآرائه التي سطّرها في كتاب (الحيوان) ذي الأربعة أجزاء، بل ويُحسب له أنه سطّر العلم بيراع الأدب؛ فرطّب جفاف المادة العلمية وجنّب قارءَها السآمة والملالة. وقد سُئل عنه الراوية (أبو العيناء): ليت شعري أيّ شيء كان الجاحظ يُحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن!.. بما يعني أنّه كان بحرَ بن بحر لا عمرو بن بحر.

كان مُولَعا بطلب العِلم منذ صباه؛ ففي الوقت الذي كانت أمّه تحضّه على الذّهاب إلى السوق ليبيع ويبتاع، وتطمح في أن يتعقَّل وينشغل بالدرهم والدينار؛ كان يحيد إلى حِلق العِلم والدرْس، حتى إنّه عاد يومًا وطلب غداءَه،

فجاءته أمّه بطبق تعلوه كراريس، فقال: ما هذا؟ قالت: هذا الذي تجيء به! كما كان يَكتري -أي يَستأجر- دكاكينَ الورّاقين ليبيت فيها ويَطّلع على ما بها من دُرر وجواهر، ولا يقع في يده كتاب إلّا استوفى قراءته كائنا ما كان، بل وقضى نحبَه بين رفوف مكتبته التي انهالت عليه، بينما هو عليل يطالِع بنصفِ بدنٍ مفلوج ونصفٍ آخَر مُنقرَس، فلُقّب بدفين الكتب[١] وشهيد القراءة. وذلك بعد أن ترك وراءه مؤلَّفات في شتى فروع العِلم والأدب؛ فناهزت المائة وخمسين كتابا، واشتُهر منها (البيان والتبيين) و(البخلاء) و(الحيوان) و(المحاسن والأضداد) و(كتاب المعلِّمين)، وما زالت تلك الكتب -رغم تباعد الأيام- تحتلّ واجهةَ المكتبات وتستحوذ على لبّ القرّاء ويُنصح بها طلّابُ اللغة والأدب، وفيها قال الوزير الأديب (ابن العميد): «إنّ كتب الجاحظ تُعلِّم العقلَ أوّلا والأدبَ ثانيا»، بل إنه كان إذا مرّ به أحدٌ ممَّن يدّعون العلم والأدب، سأله عن كتب الجاحظ، فإن وجده مطالعا لها وغارفا من بحرها، أجازه وقلّده مرتبة سامية.

وقد بلغ مِن انشغاله بالعِلم والمعرفة حدّا يَعجب له الحالُّ والمرتحِل، إذْ ذُكِر

(١) إذا ذُكر (دفين الكتب) ذُكر (ابن الكتب)، وهو الإمام السيوطي، وذلك لأنَّ أباه طلب من أمّه أن تأتيه بكتاب من المكتبة، فداهمها ألم المخاض، وولدتْه بين الكتب، ولكنه عندما كبر صنّف نحو ٦٠٠ مصنفا ولُقب بأبي الكتب!

أنّه نسي كُنيتَه ثلاثة أيام، إلى أن ذهب وسأل أهلَه: يرحمكم الله، بمَن أُكنّى؟... فقِيل له: بأبي عثمان! أمّا فضله على طلّاب العِلم؛ فيُجاوِز الأسماع والأبصار، ويتخطّى الزمان والمكان، وفيه حُكِي أنَّ بعضَ المشايخ الأقْدمِين، لقي في بعض قرى النبط فتى فصيح اللهجة حسَن البيان، فسأله عن سبب فصاحته، مع لكنة أهل جلدته، فأجاب الفتى قائلًا: كنت أعمد في كلّ يوم إلى خمسين ورقة من كُتب الجاحظ، فأرفع بها صوتي في قراءتها، فما مرّ لي إلّا زمان قصير حتى صرتُ إلى ما ترى...

ولا شكّ أنّه استفاد من الاستقرار والازدهار الذي خيَّم على العصر العباسي في فترة قوّته، خاصة بعدما استقدمه الخليفة المأمون إلى مدينة السلام (بغداد) وولّاه رئاسة ديوان الإنشاء، فوشّى كتبَه بأسماء الخلفاء والوزراء، ونال من وراء ذلك الآلاف من الدنانير التي نجا بها من متلازِمة الفكر والفقر؛ إذْ كفته مؤونتَه وفرَّغته للإبداع والفكر، وربّما لهذا رأى الحياة بعين التفاؤل وفاضت كتاباتُه بالدعابة وخفّة الروح. وقد حدَّث بتلك الغنائم التي جناها مِن

وراء كُتبه قائلًا: «أهديتُ كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديتُ كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي داؤد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديتُ كتاب الزرع والنخيل إلى إبراهيم بن عباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد». ومعلوم أنه وُلد في خلافة المهدي، وتُوفِّي في خلافة المهتدي بالله، بما يعني أنه عايش اثنا عشر خليفة عبّاسيًا.

وقد أجاد محمد كرد علي حين ترجم له مرَّتيْن؛ إحداهما مطوَّلة في ثنايا كتابه (أمراء البيان)، وثانية مختصَرة في معرض حديثه عن (كنوز الأجداد)، وفيها أَوصى (كرد) كلَّ طالب علم يريد الجمع بين البلاغة والعلم؛ أن يقرأ بتدبُّر كلّ ما أبقتْه الأيّام مِن كُتب الجاحظ، فيردّدها كلّ عام، ليظلّ على صلة بالكمال المطلَق من الآداب التي تصلح لكلّ عصر وتَحلو مهما تقادَم العهدُ بواضعها.

ولأنّه أفضل مَن وصف الكِتاب وقرَّظه، فلا تكاد تجد كتابا يتحدّث عن القراءة والكتابة، إلّا وفيه اقتباس من بعض وصْفه البديع المُسهَب في قيمة

الكِتاب وفائدته والترغيب في شرائه واقتنائه، وهاك مِن هذا قوله: «الإنسان لا يعلَم حتى يكثر سماعه، ولا بد أن تكون كُتبه أكثر من سماعه، ولا يَعلم ولا يَجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده مِن الإنفاق من مال عدوّه، ومَن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتاب ألذّ عنده مِن عشق القيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤْثر اتخاذ الكُتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤَمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسه».

ولا غرو أن يَحسده الكاتب سلامة موسى؛ فيتمنَّى أن يُعمَّر مثله قرنًا كما عُمِّر، ويودّ لو قضى نحبَه بين الكتب كما قضى، ولكن هيهات هيهات... فالأمنيات لا تُحاك على مقاس الأقدار، والأقدار لا تَستأذن الأمنيات؛ فقد قُبض موسى على سريره داخل المستشفى قبل أن يدخل عامه السبعين، بعد أن داهمتْه أزمة قلبية استلّت روحَه وكتبَت سطرَه الأخير.

٢- ابن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ)

هو إمام بغداد المُربِّي وواعظها البليغ وعالِمها المُتفنِّن[١]؛ لا تكاد تخلو مكتبة، مِن إحدى كتبه التي أحصاها أحدُ الباحثين فذكَر أنها تربُو على خمسمئة وعشرين كتابا؛ سواء في التفسير ككتابه (زاد المسير في علم التفسير)، أو في الحديث ككتابه (جامع المسانيد بألخص الأسانيد)، أو في التاريخ ككتابه (المنتظم في تاريخ الأمم والملوك)، أو في السيرة ككتابه (صفة الصفوة)، عدا عن كتابه الشهير (تلبيس إبليس)، وغيره.

وقد عوّد نفسَه منذ نعومة أظفاره على الجدّ، وساقها بعصا الاجتهاد، بعد أن ألَزمها بستان العِلم وروضة القراءة؛ فالعشرين دينارا التي ورثها عن أبيه أنفقها كلّها في شراء الكتب، وفي الوقت الذي كان يلهو فيه أقرانُه على شواطئ دجلة، كان يجلس على نهر عيسى القريب من بيته، ومعه خبز جاف إدامه الماء، ويظلّ يقرأ ويحفظ، مُستعينًا على ذلك بذهن متوهّج وحافظة ألمعيّة، حتى حاز مِن الفنون ألوانًا ومن العلوم أفنانًا.

(١) هكذا لقّبه الباحث عبد العزيز الغزّولي في معرض ترجمته له.

وتطبيقا لقناعته التي سار عليها، وورَّثها لَمن بعده مِن أولادِه ومُريديه ومُحبِّيه؛ بأنّ الاطلاع على الكتب هو سبيل طالب الكمال في طلب العلم، وأنّه لا يخلو كتاب من فائدة؛ فقد قرأ كثيرًا في ميراث الحكمة اليونانية، إلى جانب كُتب مَن سبقوه مِن أئمّة المسلمين وأعلامهم؛ أمثال الغزالي وابن حنبل والحسن البصري. وقد آتت هذه القراءةُ الغزيرة أُكلَها؛ فصنّف كثيرًا، حتى قال فيه الحافظ الذهبي: «ما علمتُ أنّ أحدا من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل»، ولعلّ هذا راجِع إلى اعتقاده الراسخ بأنَّ التصنيف أبْقى أثرا وأعمّ نفعا مِن التعليم بالمشافهة. ومن عجائب مرويّاته؛ أنّ بعضَهم أكّد في حضرته على شرط استخدام حروف الهجاء كلّها، حتى يكون الكلام تاما وتكون الخطبة بليغة ومؤثِّرة، فدحض ابنُ الجوزي ذلك عملا لا قولا؛ إذْ شمّر عن ساق البيان وشدّ قوسَ الفصاحة؛ وألَّف ثلاثين خطبة، أوّلها يخلو من حرف الألف، وثانيها يخلو من حرف الباء، وثالثها يخلو من حرف التاء، وهكذا إلى أن أَتمّ حروف الهجاء، ثمّ زاد عليها خطبتيْن؛ تخلو إحداهما من الهمزة، وتخلو الأخيرة وهي -تمام الثلاثين- مِن حرف المدّ! في دلالة على تمكّنه من اللغة، وتضلُّعه في البلاغة، وزعامته في الوعظ والخطابة.

وقد تَرجم لنفسه في كتابه الماتع (صيد الخاطر) قائلًا:» ما أشبعُ مِن مطالعة الكُتب، وإذا رأيتُ كتابا لم أَره فكأني وقعْت على كنز، ولقد نظرتُ في بيت الكُتب الموقوفة في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد. ولو قلت أني طالعتُ عشرين ألف مجلّد، كان أكثر، وأنا بعد في الطلب. فاستفدت بالنظر فيها مِن ملاحظة سِير القوم، وقدْر هِممهم وحِفظهم وعبادتهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه مَن لم يطالع، حتى صرت أَستزْري ما الناس فيه وأَحتقر هِمم الطلّاب«. وقد حقّق الشيخ علي الطنطاوي هذا الكتاب بعدما أُعجب به وفُتِن بعنوانه، ثمّ سطّر ذلك الإعجاب في مقدّمة الكتاب المحقَّق قائلًا: »كنت أعمل في بغداد نحو ١٩٣٦م أدرِّس العلوم الشرعية في الأعظمية، وأقيم فيها منفردا، فكنت إذا طال علي الليل وأوحشت الوحدة-أفزع إلى مكتبة الكلية، أستعير منها الكتاب بعد الكتاب، وكان فيما استعرت منها كتاب بلغ من إعجابي به أن استبقيته عندي إلى أن فارقت الكلية، أقرأ فيه فلا أملّ القراءة فيه، ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتعظ بها أو فائدة أستفيدها أو طرفة آنس بها، وكان الكتاب: صيد الخاطر لابن الجوزي، وفي هذا الاسم -أي العنوان- توفيق

عجيب، ذلك أن الخواطر لا تفتأ تمرّ على الذهن كأنها الطيور التي تجوز سماء الحقل، تراها لحظة ثم تفتقدها، فكأنك ما رأيتها، فإذا أنت اصطدتها وقيّدتها ملكْتها أبدا. لذلك جعل المؤلِّف هذا الكتاب قيدا لصيد الخاطر، فكان الاسم نفسه نفحة من نفحات العبقرية».

والحقّ أنَّ ابن الجوزي لم يكن ليصل إلى تلك المرتبة العالية؛ إلّا بمزية شهد له بها الجميع، وهي حسن استغلال الوقت، وذلك بإعراضه عمّا اعتاده الناس مِن كثرة الزيارات وتضييع الأوقات في أحاديث لا تَخلو من غيْبة ولا تخرج عن القيل والقال، وكان له في ذلك طريقة فريدة حكاها قائلًا: «لما رأيت أنّ الزمان أشرف شيء، والواجب انتهازه بفعل الخير، كرهت ذلك، وبقيت بين أمرَيْن: إن أنكرت عليهم وقعَت وحشة لموضع قطع المألوف، وإن تقبَّلته منهم ضاع الزمان، فصرت أدافع اللقاء جهدي، فإذا غُلِبت قصَّرت في الكلام، لأتعجَّل الفراق، ثمّ أعددْتُ أعمالا -لا تمنع من المحادثة- لأوقات لقائهم؛ لئلّا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت للقائهم قطْع الكاغد وبرْي الأقلام وحزْم الدفاتر، فإنّ

هذه الأشياء لابدّ منها، ولا تحتاج إلى فكر وحضور قلب، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم؛ لئلّا يضيع شيء من وقتي».

وكما عبر نهرَ اليُتم وهو ابن ثلاث، فقد خاض بحر الابتلاء في آخر عُمره؛ إذْ حبسه الخليفة (الناصر) بوشاية من أحد وزرائه، ودام حبْسه خمس سنين، لتكتمل لديه ثلاثية المجْد التي اجتازها الكثيرون عبر خطّ الزمن الممتدّ، وهي: (اليُتم، السجن، الطموح). ويُذكر أنّ جلّ مكتبته آلت إلى ابن له عاق يُدعى أبو القاسم، فباعها بالبخس كبيع يوسف إلى امرأة العزيز!

٣- يحيى بن شرف النّووي (٦٣١-٦٧٦هـ)

فقيهٌ حافظٌ لُغويٌّ ورِع، وُصف بأنه عالِم الزهّاد وزاهد العلماء، ومدحه الإمام ابن كثير بقوله: «هو الشيخ الإمام، العلّامة الحافظ، الفقيه النبيل، مُحرِّر المذهب -يقصد المذهب الشافعي- ومُهذِّبه، وضابطه ومُرتِّبه، أحد العبّاد والعلماء والزهّاد». وقد عاش في القرن السابع الهجري؛ فعاصر شطرا مِن الدولة الأيوبية وشطرا مِن الدولة المملوكية، ولُقِّب بالنوويّ -أو النواوي- نسبة إلى قريته نوى؛ التي تقع في النطاق الجغرافي لمحافظة درعا بسورية، ولا تبعد كثيرًا عن الحدود السوريّة الفلسطينيّة. وفي الوقت الذي كُنّي فيه بأبي زكريا، على سنّة أهل زمانه في استحباب الكُنية، حتى ولو لم يعقِّب المرءُ ذريّةً مِن صلبه؛ فإنّه كره لقب (محيي الدين) الذي خلعه عليه بعض معاصريه، على اعتبار أنّ دين الله حيّ لا يموت، وأنه يُحيينا ولا نُحْييه.

وقد ظلّ نهمه للعلم طوال فترات حياته مثار العجب ومضرب المثَل؛ حتى إنّه وهو ابن عشر سنين، كان الصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، فيهرب منهم،

ويبكي؛ إيثارا للعِلم على اللعب وتعلُّقا بالمجد عن اللهو، هذا قبل أن يرتحل إلى دمشق بناء على نصيحة الشيخ (المراكشي) لأبيه، ويسكن المدرسة الرواحيّة الملاصقة للجامع الأموي، الذي كان موئل العِلم ومرتحَل العلماء آنذاك. وقد سجّل شيخ المؤرِّخين (الذهبي) بعضا مِن حاله في طلب العلم فقال: «وضُرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلا ونهارا، وهجْره النوم إلّا عن غلَبة، وضبْط أوقاته بلزوم الدرس، أو الكتابة، أو المطالعة، أو التردّد على الشيوخ». كما التقطت سطورُ التاريخ صورة تفصيليّة ليومٍ مِن أيام قراءته، ورسمت لوحة قلمية لكيفية تحصيله، فقالت: «كان يقرأ كلّ يوم اثني عشر درسا: درسيْن في كتاب الوسيط، وثالثا في كتاب المهذَّب، ودرسا في كتاب الجمع بين الصحيحيْن، ودرسا في صحيح مسلم، ودرسا في كتاب اللمع لابن جني في النحو، ودرسا في كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة، ودرسا في التصريف، ودرسا في أصول الفقه تارة في اللمع لأبي إسحاق وتارة في المنتخب للفخر الرازي، ودرسا في أسماء الرجال، ودرسا في أصول الدين». وهذه كلها كتب مشهورة في الفقه واللغة التاريخ، ويعرفها أصحاب الباع في العلوم النقليّة، كما يؤشّر ذلك على

أهمية مدارسة العِلم بطريقة التلقِّي والمشافهة، على اعتبار أنّ مذاكرة حاذق في الفنِّ ساعة-كما قال النووي في شرح صحيح مسلم- أنفع من المطالعة والحفظ ساعات بل أيامًا.

ومِن الطريف أنّ دراسة الطبّ جالت بخاطره؛ ربّما تأثُّرا بما قاله الإمام الشافعي: « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطبّ»، أو ثورة على احتكار أهل الكتاب من اليهود والنصارى لممارسته، أو رغبة في الجمع بين طبّ الأبدان وطبّ الأديان؛ فأعدّ للأمر عدَّته؛ واشترى كتاب القانون في الطبّ لابن سينا، وبدأ بمطالعته. ولكنّه عدل عن ذلك، بعدما رأى إظلام قلبه وتبدُّل حاله، فباع الكتاب مِن فوره، وعاد لسيرته الأولى.

وبرغم أنَّ الموتَ قطف زهرتَه في الخامسة والأربعين، ولم يبدأ التأليف إلّا في سن الثلاثين؛ إلّا أنّه بجدِّه واجتهاده بزّ أقرانَه بل وشيوخَه، فزرع في خمس عشرة سنة شجرة عِلميّة مباركة قوامها خمسين كتابا، أَينعت في علوم الفقه والحديث واللغة، وظلّت وستظلّ تثمر إلى يوم تجفّ فيه الأقلام وتُطوَى الصحف؛ ويَكفيه في ذلك كتاب (رياض الصالحين) الذي ما خلت منه رفوف مكتبة ولا محراب، ولا طاب حديثٌ إلّا بتقليب صفحاته والنّهْل من مَعينه، حتى طُبع بلغات عدّة،

وقِيل إنه أكثر الكتب طباعة في تاريخ الإسلام بعد المصحف الشريف، إذْ ضمّ اثنيْن وأربعين من صِحاح الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. إضافة إلى كتابَيْه (الأذكار) و(الأربعين النووية)، واللذيْن سار بهما الركبان، ولهج بهما الصبيان والشبّان والشيوخ، حتى قِيل في كتاب الأذكار: «بِـعِ الدارَ واشْترِ الأذكار».

هذا عدا عن مؤلَّفاته الأخرى العديدة التي قِيل إنها لو قُسِّمت على أيام عمره القصير؛ لكان نصيب الواحد منها أربعة كراريس. ولا سِرّ في ذلك إلّا لأنه تبتّل في محراب العِلم؛ فلم يتزوّج. وزهَد في متاع الدنيا؛ فرضِي منها بثوب يَستره وكسرة خبز تقيم صلبه وأربعة جدران تؤويه؛ حتى أنه تعفَّف عن أخْذ راتبه إبّان تولّيه مشيخة دار الحديث، وكان يوجّهه لشراء الأملاك والكُتب ويوقفها على خزانة الدار وأملاكها. وفي هذا رُوِي أنَّ أخاه زاره مِن نوى، فلم يقْو على تناول طعامه البسيط المتقشِّف، ومضى إلى السوق فابتاع لحما مشويّا وحلوى، وقال له: كلْ، فأبى؛ خشية أن يأكل كثيرًا فينام كثيرًا ويضيع وقته سدى.

وقد حكَى عن نفسه، أنّه بقي سنتيْن لم يضع فيهما جنبَه على الأرض، أي أنّه كان لا يقرأ الكتب فقط، بل يفترشها حتى في منامه، دلالة على شدّة ملازمته

للأقلام والقراطيس، ويكفيك في ذلك أن تعلم؛ أنّه طالع كتاب (الوسيط في المذهب) للإمام أبي حامد الغزالي ٤٠٠ مرّة! وحفظ كتاب (التنبيه) في الفقه الشافعي لمؤلِّفه أبي اسحاق الشيزاوي في نحو أربعة أشهر ونصف، ثمّ استغلّ بقيّة العام في حفظ كتاب (المهذَّب) لذات المؤلِّف، قبل أن يُقدِم على شرحه فيما بعد عبر كتاب أسماه (المجموع)! وكان في ذَهابه وإيابه؛ يكرر في ذهنه ما يحفظ، أو يفكّر في حلّ معضلة وتوضيح مسألة!

أمّا الدافع إلى ذلك؛ فهو اعتقاده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنّ الاشتغال بالعِلم أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات، وأنّ العالِمَ أرفع مقاما وأسمى درجة من العابد، وأنّ العِلم أشرف الأشياء لأنّه عمل القلوب وسعْي العقول، وهو ما فصّله في مقدِّمة إحدى كتبه قائلًا: «والحاصل أنهم متّفِقون على أنّ الاشتغال بالعِلم أفضل مِن الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله: أنّ نفعَ العلم يعمّ صاحبَه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به. ولأنّ العلم مصحِّح، فغيره من العبادات مفتقِر إليه، ولا ينعكس. ولأنّ العلماءَ ورثة الأنبياء، ولا يُوصف المتعبِّدون بذلك. ولأنّ العابدَ تابعٌ للعالِم مقتدٍ به مقلِّد له في عبادته وغيرها، وواجب عليه طاعته، ولا ينعكس. ولأنّ

العِلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها. ولأنّ العِلم صفة الله تعالى. ولأنّ العِلم فرض كفاية».

وكما لبّى مِن قبل نداءَ العِلم وارتحل مِن نوى إلى دمشق؛ فقد ناداه مناد الموت في عام ٦٧٦هـ، وغادرها بعد أن ردّ الكُتب المستعارة، وودّع شيوخَه الذين سبقوه تحت الثرى وأصحابَه الثاوين فوق الثرى، وزار بيت المقدس والخليل، ثمّ قفل إلى حضن والده في نوى، ليقضي فيها نحبه إثر مرض ألمّ به، وليلحق به والدُه بعد تسعة أعوام.

ولعلّ في هذه الإطلالة السريعة، بعض استجابة لِما قاله (الشمس النواحي) حين امتدح الإمامَ بقوله:

يمِّم حِمى النـووي ولذْ بعلومِه وأَنِـخ بـروضـتـه تـفـزْ بحقائقه

واصْرِف لها ساعاتِ وقتك ترتقِي درجـا إلى منهاجه ودقـائـقـه»

٤- شافع بن علي العسقلاني (٦٤٩-٧٣٠هـ)

شاعر ومؤرّخ مصري، نشأ في بيت علم ودين، ولُقِّب بناصر الدين، وذلك على عادة زمانه في الإكثار من الألقاب والاشتهار بها دون الأسماء. وقد عاش في عصر المماليك البحرية الأتراك، الذين حكموا مصر والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية لمدّة جاوزت القرن من الزمان، وفيها تَولّى ديوان الإنشاء زمن السلطان المنصور قلاوون، والذي يُخاطِب الحاكمُ مِن خلاله الشعبَ والولاةَ في مختلف الأمصار، ويُحتِّم على مُنتسِبيه الإلمام التام بفنون اللغة والأدب والتاريخ والفقه. وقد تولّاه، وفي الديوان مَن هو أسنّ منه، في دلالة على طول باعه في النثر وعلوّ كعبه في النظْم وبلوغه حدّ الإتقان في جمال الخطّ. وفي هذا وصفه المؤرِّخ صلاح الدين الصفدي بقوله: «الشيخ الإمام العالِم المفيد القدوة، جامع شمل الأدب، وقبلة أهل السعي في تحصيله والدأب. البليغ الذي أثار أوابد الكلِم من مظانّ البلاغة، وأَبرَز عقائلَ المعاني تتهادى في تيجان ألفاظه، فجمَع بين صناعة السحر والصياغة».

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُغرَما بالكتب جَمَّاعا لها، حتى خلَّف وراءه عشرين خزانة؛ مَلْأى بالنفيس والثمين مِن ذخائر الكتب، وشاهدةً على هذا التّولُّه والغرام. كما أَثمر هذا الشغف مُصنّفات عدّة صاغها بقلمه؛ فقاربَت الثلاثين في العدد، وتَنوعّت في الموضوع؛ إذ اشتملَت على الشِّعر والتراجم والتاريخ، ومنها كتابه (الفضل المأثور من مسيرة الملك المنصور) والذي ترجم فيه للسلطان قلاوون، وأرّخ لنحو ستين عامًا من عُمر الدولة المملوكية البحرية التي دحرت التتار وقضت على فلول الصليبيين. وكان لا يَبخل على شراء الكتب بنفيس المال، رغم أنه لم يكن من طبقة الأثرياء المترفين، ولمّا لامه بعضُهم على كثرة إنفاقه فيها؛ نظَم أبياتا قال فيها:

وما شغَفي بالكتُب إلّا لأنّها تُسامرني من غير غيّ ولا ضجر
وأَحْسن مِن ذا أنّها في صحبتي تُجنّب تكليفي وتُقنع بالنظر

وفي عُمر الثلاثين، أُصيب خلال مشاركته في معركة حمص الثانية التي دارت بين الجيش المصري والجيش المغولي سنة ٦٨٠هـ، فنشَب سهمٌ في دماغه، وابتُلي على أثره بالعمى لِخمسين سنة بقيت مِن عُمره، وهو ما حرمه من القراءة

وأثار الشجَن في نفسه، فعبّر عن ذلك بشعر يفيض بالأسى والحسرة قائلًا:

أَضحَى وجودي برغمي في الورى عدَمًا   إذْ ليس لي فيهمُ وِردٌ ولا صدرُ
عدِمتُ عيني ومالي فيهمُ أثر   فهل وجودٌ ولا عينٌ ولا أثرُ

وقد ذكَر ابن حجر في (الدرر الكامنة)؛ أنّ شافعا الكفيف، كان إذا لمس كتابا من مكتبته، يقول هذا الكتاب قد ملكْته في الوقت الفلاني، وإذا طُلب منه شيء منها، قام إليها فتناول بغْيته دون مساعدة مِن أحد! وشبيه به (علي بن الخضر الآمدي)، والذي كان يتّجر في الكتب، ولمّا عمي، لم يكن يَخفى عليه منها شيء، بل كان إذا طُلب منه المجلّد الأوّل مثلا مِن أحد الكتب قام وأخرجه دون خطأ، وكان يمسّ الكتاب فيقول: هذا يشتمل على كذا وكذا فلا يُخطئ، وإن كان الكتاب بخطّيْن قال هو بخطّيْن، وإن كان بقلم أخفّ مِن الآخَر قال ذلك ولم يجاوزه الصواب!! وهو ما يُنسب إليه اختراع القراءة بطريقة اللمس في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي (ت ١٣١٤م)، أي قبل خمسمائة عام من الفرنسي (برايل) الذي دشّنها في عام ١٧٨٧م، إذْ كان (الآمدي) يأخذ قطعة من الورق الخفيف، ويقوم بفتلها على هيئة حروف الهجاء، ثمّ يلصقها على طرف غلاف الكتاب مِن الداخل، ليلمسها بيده عند البيع، ويحدّد عن طريق تلك الحروف

البارزة سعر الكتاب. ومعلوم أنَّ الكتب آنذاك كانت كلّها مخطوطة لا مطبوعة، وكان سعر الكتاب يتوقّف على جودة خطّ النّاسخ وشهرته، وعلى سمعة المؤلِّف وحذقه، وكذلك على ما إذا كان الكتاب ينتمي إلى فئة (كتب العظماء) أم لا، وكُتب العظماء هي تلك الكتب التي تُنسب ملكيتها إلى عظيم من عظماء عصره كالأمير والوزير أو ما شابه.

ويبدو أنّ زوجة (شافع) قد ضاقت بها الحياة وعضّها الفقرُ بعد وفاته، وذلك على غرار أغلب المفكِّرين الذين شغلهم الفكر عن المال، فلم يُخلِّفوا لِذويهم إلّا عِلما يَعجز عن شراء الخبز، ومُصنَّفات لا يَعترف بها البقّال أو اللحّام. ولمَّا كانت الزوجة على دراية بأثمان كلّ كتاب ضمن المكتبة، فقد شرعَت في بيعها واحدًا تلو الآخَر، وبقيت تتعيّش مِن عائدها لمدة تسعة أعوام، في دلالة على الكمّ الهائل والنفيس من الكتب التي ورثتْها.

٥- ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ)

بحْر لا ساحل له، وكنز لا نظير له؛ لُقِّب بشيخ الإسلام، واشتُهِر بابن تيمية[١]، ووُصف بأنه حامِل لواء السنّة وحامِي حِمى الشريعة. وصل اللهُ به حبلَ سلطان العلماء (العز بن عبد السلام) الذي تُوفِّي في العام السابق على مولده، وخلّده التاريخُ بحروف مِن ضياء وكلمات من ذهب؛ وذلك لأنه جمَع بين الصبر واليقين فتَقلّد الإمامة في الدِّين، ثمَّ حارب الجمود والبدع التي فشَت في عصره، وجاهد التتارَ بالحسام والقلم واللسان، وصدح بكلمة الحقّ دون محاباة ولا وجل، ودفَع الضريبة كاملة؛ فتكالب عليه الخصوم والحسّاد، و سُجِن بمصر والشام. ولعلّ أقسى ما عاناه في سجنه الأخير بقلعة دمشق، هو السطو على ما لديه من الكتب والأوراق والدواة والقلم، ومنْعه من الكتب والمطالعة؛ إذْ حُمِلت كتبُه إلى خزانة الكتب بالعادلية، وكانت نحو ستين مجلدا، وأربع عشرة ربطة من الكراريس؛ فنظر فيها القضاة والفقهاء وتفرَّقوها فيما بينهم! وعندها

(١) في سبب شهرته بابن تيمية؛ قيل إنّ جدّه لأمّه، ذهب إلى الحج وامرأته حامل، ولدى مروره بدرب تيماء رأى طفلة خرجت من خبائها، فلما رجع إلى موطنه حران، ووجد امرأته ولدت بنتا، قال لها يا تيمية، فلقِّبت بذلك. وفي رواية أخرى، قيل إنّ جدّه هذا كانت أمّه تُسمَّى تيمية، فنُسب إليها وعُرف هو وأسرته من بعده بها.

عكف على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فكان يختم في كلّ عشرة أيام ختْمة، حتى ختم القرآنَ إحدى وثمانين مرّة مدّة إقامته بالقلعة وحتى وفاته.

وقد زهد في ملذّات الدنيا طعامًا وكساء وبعالا؛ فارتأى اللذة كلّ اللذة في نشر العلم وتدريسه، وترفّع عن المنصب والجاه؛ فرفض منصب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ، وكُتب له القبول في السماء والتوفيق في الأرض؛ حتى ذَكر معاصروه بأنَّ الله ألان له العِلمَ كما ألان الحديدَ لنبي الله داوود، وفي هذا وصفه الحافظ (ابن الهادي) بقوله: «لا تكاد نفسه تشبع من العلم، ولا تروَى من المطالعة، ولا تملّ من الاشتغال، ولا تكلّ من البحث». وقد شُغِف بالعِلم منذ فجر عُمره إلى مغربه، ومَلأ به بياضَ نهاره وسوادَ ليله؛ فكان يشقّ على نفسه أن تفارقه القراءة مهما بلغ به الخطْب، إذْ ارتآها دواء يَستشفِي به المرء، وعلاجا يَبرأ بها الإنسان ويتداوى؛ فحين مرض وأمره الطبيب بالراحة وترْك المطالعة، ضرب بالتعليمات عرض الحائط، وكانت حجّته أنَّ صحة الإنسان تتسامى بالحالة النفسية المطمئنّة وبالفرح، وأنَّ القراءةَ تمنحه هذا التسامِي وتغدق عليه بتلك الطمأنينة.

وممَّا رُوي عنه في صباه؛ أنّ والدَه طلب منه التجهّز للخروج في نزهة مع باقي أفراد الأسرة، فتعلّل وامتنع رغم إلحاح أبيه، ولمّا عاتبه على ذلك بعد العودة، صارحه بأنه ما اشتهى التخلّف عنهم إلّا ليحفظ كتاب (جَنّة المَناظر وجُنّة المُناظِر)، ولمّا اختبره أبوه وتأكّد مِن حفظه له، قرّت به عينُه وأكبَره.. وربّما دعا له بمثْل دعاء الخليفة (المأمون) حين رأى ولده يطالع كتابا، فقال: الحمد لله الذي رزقني مِن الذريّة مَن يرى بعين عقله أكثر ممّا يرى بعين وجهه. كما حكى شيخُه الذي تولى تعليمه القرآن، أنّ ابن تيمية الأب أوعز إليه أن يشوّق ولده لتعلّم كتاب الله، فيمنحه أربعين درهما كلّ شهر تعهّد الأب بدفعها دوريا، وما إن بدأ الشيخ بتنفيذ وصية الأب حتى امتنع الصبي ابن تيمية عن قبول المبلغ قائلًا: إني عاهدت الله على أن لا آخذ على القرآن أجرا!

وعلى الرغم من هذا الغرام الشديد بالكتب؛ فقد عُرِف عنه الجُود بها، وكان لا يَردّ أحدا يسأله شيئا منها؛ لإيمانه العميق بأنّه ما ينبغي أن يُمنع العِلم ممَّن يطلبه.. وفي هذا رُوي أنّ رجلا جاءه يومًا، وسأله كتابا يَنتفِع به، فأمره أن يختار من المكتبة ما يشاء، وإذْ بالرجل يلمح بين الكتب مصحفا ثمينا كان الشيخ قد اشتراه بدراهم كثيرة، ثمّ بادر بأخْذه ومضى. ولمّا لام الحضورُ الشيخَ على

ذلك، قال: لا يَحسُن بي أن أمنعه بعد ما سأله، دعوه فلينْتفع به. ويبدو أنّ الحافظ ابن حجر (٧٧٣-٨٥٢هـ) قد اقتدى به في ذلك، فالاقتداء ضرب من ضروب الحبّ؛ إذْ كان لا يردّ طالبا مقيما كان أو مسافرا، حتى فقد مِن كتبه الكثير، بل وربّما بِيعت في السوق فيشتريها، أو بقيت عند المستعير ينتفع بها إلى أن يرثها خلَفُه فيبيعوها!

والحقيقة أنّ الإمام -رحمه الله- انتفع أيّما انتفاع بذكائه الوقّاد، وحافظته الواعية، وسرعته في المطالعة، ودرايته باللغتيْن التركية واللاتينية إلى جانب العربية، فحفظ القرآن وحاز العلومَ والفنون، ثمّ خاض غمار التدريس والإفتاء، وصنّف مئات المُجلّدات التي ازدانت بها المكتبة الإسلامية، وأضْحت مرجعا لطلّاب العلم وحُجّة للعلماء، ويكفيك في ذلك سِفره في الفتاوى والذي طُبع في سبعة وثلاثين مجلّدا! وهو ما حكاه السخاوي في (الجواهر والدرر) عن القاضي شمس الدين بن الديري حين قال: «سمعتُ الشيخ علاء الدين البسطامي -ببيت المقدس- يقول وقد سأله: هل رأيتَ الشيخ تقي الدين بن تيمية؛ فقال: نعم. قلتُ: كيف كانت صفته؟ فقال: هل رأيتَ قبة الصخرة؟ قلتُ: نعم. قال: كان كقبة الصخرة مُلِأ كتبا لها لسان ينطق!!»

وهنا لا نغفل تأثير النشأة الصالحة ودور الأسرة المبارَكة الطيّبة، على اعتبار أنّ المرء ابن بيئته ونتاج مجتمعه قبل أن يكون حصيلة جيناته، إذْ كان -رحمه الله- سليل بيت عِلم كابرا عن كابر؛ فجدّه (عبد السلام) كان حسنةَ زمانه في الفقه والتفسير والحديث، وكان إذا دخل الخلاء يقول لابنه عبد الرحمن: اقرأ في هذه الكتاب، وارفع صوتك حتى أسمع»! أمّا والده (عبد الحليم) فكان إماما ومحقِّقا، وتولَّى مشيخة دار الحديث، وعندما هَجَّرهم التتَر قسْرا من بلاد حرّان إلى دمشق -وكان ابن تيمية آنئذ ابن ستّ سنين- وضَع كُتبه التي يمتلكها على عجلة يَجرّها بيديه لعدم توفّر الدوابّ، هذا رغم طول المسافة ووعورة الطريق ووطأة الخوف! وقد وصف الإمامُ الذهبي أباه بأنّه نجمٌ اختفى بين نور القمر، في إشارة إلى الجدّ (عبد السلام)، وبين ضوء الشمس، في إشارة إلى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. وصدق قول الحقّ جلّ وعلا: «والبلد الطيّب يَخرج نباتُه بإذن ربّه»[١]؛

(١) سورة الأعراف الآية:٥٨.

٦-ابن القيّم (٦٩١-٧٥١هـ)

هو الإمام الموسوعي محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الدمشقي؛ كنْيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين وابن القيِّم أو ابن قيِّم الجَوزيّة، كما أُطلق عليه شيخ الإسلام الثاني. وُلد في دمشق، وتَربّى في بيت عِلم؛ إذْ كان أبوه قَيِّما أي ناظرا ومديرا للمدرسة الجوْزية، والتي كانت أعظم مدارس الحنابلة بدمشق، ويعود فضل بنائها إلى (محيي الدين يوسف)، وهو الابن الأصغر للعلّامة ابن الجوزي. ومِن هنا يأتي الخلْط بين العلَّامتيْن (ابن قيِّم الجوزية) و (ابن الجوزي)، رغم ما بينهما في عداد الزمن مِن قرنيْن تقريبا. وجدير بالذكر أنّ هذه المدرسة التاريخية العريقة، قد نالها لهيب الثورة السورية، فأُحرِقت في أوّلها بِيد أعوان الظلمة الذين حرَّقوا الأخضر واليابس، وهدّموا البلاد على رؤوس العباد!

درس الفقه والحديث والأصول واللغة والفرائض علي أيدي كبار شيوخ [١] عصره بدمشق؛ التي كانت حاضرة العلم، وموئل العلماء الفارّين من بطش

(١) يُذكَر أنّ أحد أشياخ الإمام، كانت امرأة تُدعى (فاطمة بنت جوهر)، وكانت من علماء الحديث في زمانها.

التتار الذي عمّ سائر أقطار المسلمين آنذاك، فضمّت مدارس وقْفيّة رعتْها أموال المحسنين مِن الأعيان والأغنياء، وخُصِّص منها مدارس للفقه وأخرى للحديث وأخرى للتفسير، وغيرها من العلوم الشرعية، وذلك على شروط الواقف من حيث عدد الطلاب ونوع العلم الذي يُدرَس. على أنّ مدرسته وجامعته، كانت في مُلازمته لشيخه (ابن تيمية) على مدار ستة عشر عامًا (٧١٢-٧٢٨هـ)، فغرف مِن عِلمه واقتدى بأخلاقه؛ إذْ كان أخصّ تلاميذه وأَنجب مُريديه وأكبر مُحبّيه، حتى اعتبره بعضُهم امتدادا علميا وفقهيا له بعد رحيله. وكما قطف الورد فقد آذاه بعض الشوك، حيث حُبس مع إمامه وشيخه ابن تيمية إبّان سجنه الأخير بقلعة دمشق، بل أُهين وعُذّب، وطِيف به على جمل مضروبا بالعصيّ! ولم يُفرج عنه إلّا في سنة وفاة شيخه (٧٢٨هـ). كما صُودرت كتبه وتعرَّضت للإتلاف مع كتب شيخه، بإيعاز من المبتدِعة والمقلِّدة الذين شانهم حملةُ الشيخيْن على ممارساتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة. وكعادة أصحاب الهمم العالية؛ ارتحل في طلب العلم إلى مصر ومكّة والقدس وطرابلس، وجمع بين شرف العلم والعبادة فكان عالمِا ربّانيا، وكان إذا صلّى الصبحَ مكث في مصلّاه حتى ترتفع الشمس،

ويقول: هذه غدوتي وبدونها تنهار قواي. كما قرن العِلم بالعمل والتعليم؛ فربّى أجيالًا وعلَّم كبارًا على شاكلة ابن رجب، وابن كثير، والفيروز آبادي. إضافة إلى ابنه البكر (عبد الله)؛ الذي خلَفه في التدريس بعد رحيله، واشتُهر بحافظة فذّة مكّنتْه -على سبيل المثال لا الحصْر- من استظهار سورة الأعراف -وهي إحدى السبْع الطّوال- في يوميْن لا غير!

ولإيمانه العميق بأنَّ إضاعة الوقت أشدّ من الموت، وأنّ الكِتاب خزانة العِلم ورأس مال العالِم، وأنّه لابدّ للسالك مِن همّة تُسيِّره وتُرقِّيه وعِلم يُبصِّره ويَهديه؛ فقد آلى على نفسه أن يكون قارئا نهما، وألْزمها بأن تلمّ بكثيرٍ من علوم عصره إلمام المتبحِّر، وكان له ما أراد؛ إذْ حاز ثقافة واسعة قلّ أن تجد لها نظيرا، خاصة في ظلّ عصر المماليك الذين عمَدوا إلى إنشاء المدارس وتشجيع العِلم وتوقير العلماء والتقرّب إليهم. وعلى الرغم من اشتغاله بالتدريس والتعليم والفتاوى؛ إلّا أنَّ المكتبة الإسلامية شاهدة على باعه الطويل في التصنيف والتأليف، حتى لا يخلو كتاب مِن اقتباس له أو نقْل منه أو استشهاد به؛ فقد ألَّف ما يقرب مِن ثمانية وتسعين مؤلَّفا؛ في علوم القرآن، والحديث، والسيرة،

والعقيدة، والتصوّف (السلوك)، والأَصلَيْن (أصول الدين وأصول الفقه)، معظمها عبارة عن مجلَّدات في أجزاء، وبعضها ألّفه أثناء سفره وترحاله دون مرجع سوى ذاكرة مِن لحم ودم! هذا عدا عن ولوجه باب التأليف الطبي بكتابه (الطب النبوي)، ونظْمه لنونيّته الشهيرة التي جاءت في ستة آلاف بيت تقريبا، وانتصر فيها لأهل السنّة والجماعة بردِّه على تأويلات الفرق الباطلة! وهو ما حدا بالمؤرِّخين لاعتباره مِن مجدّدي القرن الثامن الهجري.

وقد أسف الشيخ أبو الحسن الندوي -وغيره- مِن أنّ الإمام لم يحظ في كتب التراجم المشهورة إلّا بصفحات قليلة لا تشفي الغليل، هذا رغم حياته المفعَمة بالعطاء والإصلاح، فقال: «وممّا يبعث على الدهشة والاستغراب، أن التاريخ لا يتحدث عن سيرة ابن القيم إلّا بإيجاز، والمعتمَد في ذلك هو ما ذكره تلميذه النابغة الشهير الحافظ(١) ابن رجب الحنبلي في كتابه (طبقات الحنابلة)».

ثمّ مدح كتاب (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء والشافي)، وذكَر فضلَه عليه

(١) ذكر العلماءُ أنّ مراتب أهل الحديث خمسة؛ تبدأ بالطالب وهو المبتدئ، ثمّ المحدِّث وهو مَن تحمّل الرواية واعتنى بالدراية، ثمّ الحافظ وهو مَن حفظ الكثير من الأحاديث بمتنها وإسنادها، ثمّ الحجّة وهو مَن حفظ أغلب الأحاديث، ثمّ الحاكم وهو مَن ألمّ وأجاد بجميع الأحاديث.

في الحضانة الخُلُقية والتماسك الديني. وعَدّ كتابه في السيرة والفقه (زاد المعاد في هدي خير العباد)مكتبةً بذاته فقال: «بدأت أطالع –وأنا في سن المراهقة الفكرية–كتبا غير مرتبطة بالمنهج الدراسي، فاستهللْت مطالعتي بكتاب زاد المعاد لابن القيّم، فحلّ منّي محلّا عظيمًا، وكأنّه مكتبتي ورفيقي في السفر ومشرفي وأستاذي، وبدا لي كممثِّل بارع عظيم للمكتبة الدينية العامرة».. والعجيب أنَّ هذا الكتاب، والذي طُبع في خمسة أجزاء وطبَعته المكتبة العصريّة في تسعة أجزاء؛ ألّفه ابن القيم في مدّة شهر فقط، وذلك أثناء سفره للحج، ودون الاستعانة بمكتبته ومراجعه! وقد اشتُهر الكتاب واختُصر وشُرح غير ذات مرّة، بل إنَّ عنوانه استُهلك؛ فتسمّت به المواقع الكترونية، وكذلك الكتب؛ مثل كتاب زاد المعاد للمجلسي وهو معمَّم شيعي، وكتاب زاد المعاد لميخائيل نعيمة وهو كتاب أدبي.

ويُذكر أنّ الإمام شمس الدين، كان يحفظ مسند الإمام أحمد بن حنبل والذي يحتوي على أربعين ألف حديث منها عشرة آلاف مكرّرة، كما أحصى الشيخ بكر أبو زيد الكتب التي أتى الإمام على ذكرها بين سطور مطبوعاته، فكانت (٥٦٩) كتابًا، ممَّا يعني أنّه طالعها كلّها، وأنها لم تكن إلّا جزءا من مكتبته

الكبيرة التي آل أغلبها إلى ابن أخيه اسماعيل بن زين الدين، وقال عنها ابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة): «كان مغرَما بجمع الكتب؛ فحصّل منها ما لا يُحصر، حتى كان أولادُه يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا، سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم».

٧-أبراهام لنكولن (١٨٠٩-١٨٦٥م)

رجلٌ فارِع القامة والقيمة، وبطل احترقَت بدايتُه فأشرقَت نهايتُه؛ قدِم من أحراش الغابة إلى سدّة الرئاسة، ومِن بساطة الأكواخ إلى أبّهة القصور، ومن الفقر والعُسر إلى اليَسار واليُسر؛ فحمل الرقم ١٦ بين رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، وعُدّ المؤسِّس الثاني لها بعد المؤسّس الأوّل جورج واشنطن؛ على اعتبار أنّ واشنطن أقام البنيان، بينما هيّأت له الأقدارُ صيانةَ هذا البنيان من الانهيار؛ حين حافظ على الوحدة الأمريكية، وقضى على النزعة الانفصالية الجنوبية، إثر حرب أهلية دامت أربع سنوات (١٨٦١-١٨٦٥م)، وراح ضحيتها ستمائة ألف شخص من مجموع السكان الذي لم يزد آنذاك على عشرة ملايين؛ وذلك تطبيقا لإيمانه بأنّ البيت المنقسِم لا يمكن أن تقوم له قائمة. كما

لُقِّب بمحرّر العبيد ومسيح أمريكا؛ إذْ أطلق صيحته المدويّة بأنّ الرقّ ظلم صارخ وجريمة قومية فادحة، ثمّ استخدم سلطاته الرئاسية وأقرّ قانونًا في عام ١٨٦٣م يزيح عن كاهل الرقيق ذلّ الرقّ وأوضار العبوديّة.

ولم يكن ذلك كذلك، إلّا بعد أن امتحنتْه الأيام وأذاقتْه من الكؤوس المُرّ والحارّ؛ فسكن الأكواخ التي صُنعت من جذوع الأشجار، ولبس جلود الحيوانات البرية التي تعيَّشوا على صيدها وأكْل لحومها، وفلَح الأرض وقطَع الأخشاب مع أبيه في غابات ولاية كنتاكي بالشرق الأمريكي المطلّ على المحيط الأطلنطي، وتاجَر في الحانوت بمقابل زهيد في ولاية ألينوي الواقعة في الغرب المشرِف على المحيط الهادي. كما عمل موظفا في البريد، واشتغل بالمحاماة، ويمَّم وجهَه صوب السياسة التي صعد سلَّمها درجة درجة من خلال الانخراط في الحزب الجمهوري؛ ليحفر فيها مجدَه ويترك على جبينها بصمتَه، قبل أن تُهديه رصاصة في مؤخّرة رأسه، فيفارق على أثرها الحياة، ويُحرَم مِن إكمال ولايته الرئاسية الثانية، ويصبح أول رئيس أمريكي يُقتل غِيلة، محقِّقا بذلك نبوءةً أَسرَّ بها إلى صديقه المحامي (هرندن) حين قال: «إنّي لأخشى أنّ نهايتي ستأتي على صورة مرعبة».

وبرغم أنّه لم ينل حظّه من التعليم الرسمي، حيث ذهب إلى المدرسة على فترات قصيرة متقطِّعة بلغت في مجموعها اثني عشر شهرا لا غير؛ إلّا أنّه آمن أنّ العبقرية الشامخة تحتقر الطرقَ التي داستْها الأقدام مِن قبل، وتبحث عن مواطنَ لم تُكشف بعد، وتظمأ وتتحرّق إلى ما يميّزها عن غيرها؛ فأعدّ لذلك عدّتَه، وثقّف نفسَه ثقافة عالية عبر قراءاته الكثيفة، إذْ كان لا يسمع بوجود كتاب عند أحد مِن الناس إلّا ذهب إليه وقرأه، حتى قيل إنّه قرأ كلّ الكتب الموجودة في دائرة قطرها خمسين ميلا حول كوخه، أي زهاء خمسين كيلو مترا!

وفي هذا تشعَّبت مجالات مطالعاته؛ فقرأ في الدِّين، وطالع تاريخ العالَم، وتَتبَّع مسيرة أمريكا ونشأتها، وفُتن بتراجم وسِير العظماء الأوائل كواشنطن وجيفرسون، وقرأ الروايات، وهام بشعر شكسبير، واطَّلع على فلسفة كانت ولوك وفخت، بل ومرّ على علوم النبات والحيوان والكهرباء، فضلًا عن كتب القانون التي ذرَعها وحرَثها أنَّى وجدها. هذا على الرغم من ضيق ذات اليد، وشُحّ الكُتب والأوراق والأقلام والمكتبات؛ وهو ما عوَّضه باستعارة الكتب التي كانت سبيله الأوّل إلى القراءة، أمّا الكتابة فقد هيّأ لها سطحا خشبيا يكتب

عليه بطرف عود محترِق، وما إنْ يمتلئ السطح، حتى يقشره بسكين، فيزيل به الكتابة القديمة ويجعله صالحا لجولة جديدة من الكتابة!

وكان في صباه يسابق البكور نحو الغابة؛ على كتفه فأس تقطع وحبل يحطب وقوس يصيد، بينما في جيبه كتاب يحرِّره من مخبئه بين الفينة والفينة، فيقرأ فيه بصوت عال، حتى ليسخر منه أقرانُه في العمل، على عادة التافهين تجاه النابغين. وما إن يفرغ من عمله، حتى يختلي بنفسه، ويسند ظهره إلى جدار الكوخ الخلفي؛ فيقرأ حتى تغيب الشمس ويجنّ الليل، ثمّ ينتقل إلى داخل الكوخ ليمضي أمسيته في القراءة على ضوء نار الموقد، وهكذا دواليك. ولم يكن الكتاب لِيفارق يده إبّان فترة عمله بالحانوت، فيقرأ حين يضنّ عليه الزبائن بالقدوم، ويقرأ حين يتوافد عليه المُبتاعون؛ حتى ليزن السكر أو الدقيق بيد، بينما يده الأخرى ممسكة بكتاب لا يرفع عينه عنه! كما استغلّ عمله كساع للبريد؛ فكان يقرأ الجرائد قبل أن يُوصلها لأصحابها.

وعن شغفه بالكتب والقراءة؛ صدِّق أو لا تصدِّق؛ أنه ارتضى لنفسه أن يعمل أجيرا لمدة ثلاثة أيام في حقل الذرة لدى جاره، نظير تملُّك كتاب عن مُلهمه

جورج واشنطن. وأنه مشى ستة أميال (حوالي عشرة كيلو مترات) ليستعير كتابا عن قواعد اللغة مِن صاحب له، وأنه مكث أسبوعين يعاون فلاحا لا لشيء إلّا لأنه عثر لديه على كتاب في القانون فأراد أن يُطالعه.. ولهذا كان يردّد دائما: «إنّ كل ما أريد معرفته موجود في الكتب، وخير صديق لي هو مَن يقرضني كتابا أقرأه». وقد لازمه هذا الشغف القِرائي طيلة عمره؛ فذكَرت زوجتُه–على شاكلة زوجة سقراط–أنه لا وزن له في البيت؛ إذْ لا يفعل شيئا سوى أن يدفِّئ نفسه ويقرأ! كما ذكَّره أحدُ زملائه في عضوية الكونجرس؛ بأنّه رآه يومًا يسير في الطريق، ويحمل على كتفه كتبا ضخمة ربطَها في منديل أحمر كبير، بعد أن استعارها مِن مكتبة المحكمة العليا، وبدا له يومها وكأنه بائع متجوّل، أو عامل بريد، وأضاف أنه لولا معرفته به؛ ما صدَّق أنّ هذا السائر عضوٌ في الكونجرس!

وقد أغدقَت عليه القراءةُ، فوهبتْه الثقافة والفصاحة ويقظة الضمير، وكانت تلك الثلاثيةُ رأسَ ماله؛ الذي جمع حوله القلوب، وقاده إلى النجاح في عرين المحاماة، وأخذ بيده إلى قمّة الشهرة في أروقة السياسة؛ وفي ذلك روَتْ وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت في مذكّراتها، أنّ (لنكولن) مرّ ذات

يوم بخنزير يحاول دون نجاح تحرير نفسه من مستنقع للوحل، فتوقّف للحظة تتقاذفه العاطفة على الخنزير وخوفه من اتساخ بدلته الجديدة بالوحل، ثمّ تابع طريقه. وبعد اجتياز ميلَيْن تقريبا، قفل عائدا، إذْ لم يستطع التوقف عن التفكير في الحيوان ومحنته. فمدّ بعض الألواح الخشبية وأخرج الخنزير غير آبه باتساخ ملابسه، وعندما سُئل لماذا فعل ما فعل للخنزير؟ قال (لنكولن): لَم أفعل ذلك للخنزير، بل فعلته لأزيل الألم الذي يعتمل في ذهني. كما أُثر عنه قوله: «إذا لم تستطِع أن تكون أمينًا وأنت محام، فخيْرٌ لك أن تكون أمينا وألّا تكون محاميا».

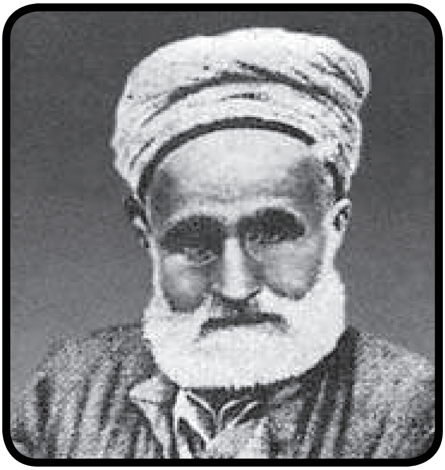

٨- طاهر الجزائري (١٨٥٢-١٩٢٠م)

جزائري الأصل، سوري الموطن؛ سمّاه شيخُ والده طاهرا، ودعا له أبوه بالطهارة مِن كلّ رجس، ففُتِّحت أبواب السماء لدعوته، وكان اسما على مسمّى، بعدما اجتمع له سلامة الفطرة وصلاح البيئة وحُسن التربية وشرف السعْي.

نشأ في حِجر والده العالِم والفقيه؛ فتلقّى على يديه علوم اللغة ومبادئ الشريعة، ثمّ التحق بالمدرسة في جوار الجامع الأموي، فنهل من العلم التجريبي، وأتقن العديد من اللغات الشرقية والغربية؛ كالفارسية والتركية والفرنسية. ولم يَفُته الجلوس بين يدي كبار شيوخ عصره، حتى غدا خزانة عِلم متنقِّلة ودائرة معارف سَيّارة، متشبِّها في ذلك بكبار علماء الإسلام الذين تبحَّروا في أكثر من

عِلم واستوعبوا جملة من المعارف، إلى حدّ أنّه كان باستطاعته تأليف كتاب في أيام معدودات.

وحين حلّ الضعف بالدولة العثمانية وشارفَت على السقوط في زمانه، أخذ على عاتقه إصلاح حال أمّة منكسِرة؛ فعمل بالتدريس ووصل فيه شأوا عاليا؛ إذْ صار مفتشًا عامًا للتعليم الابتدائي، ثمّ مفتشًا عامًا للمعارف في الولايات السورية بكاملها. ومن خلال ذلك، نهض بالتعليم وحارب الجهل؛ فأنشأ المدارس، وحثّ الآباء على الدفع بأولادهم إليها، وقنّن البرامج التعليمية، ووضَع المناهج الدراسيّة اللازمة لكلّ مرحلة، وحارب في سبيل إنشاء أوّل مدرسة لتعليم البنات في دمشق، مستعينا في كلّ ذلك بمساعدة والي سورية آنذاك (مدحت باشا).

كما انبرى للبدعة؛ فنافح عن ثوابت الإسلام وعلمائه الأجلّاء، واتّخذ في ذلك حيلة، إذْ ارتأى أنّ النغمة السائدة تنفر مِن ابن تيمية وتُهرطِق كتبه! مع أنها لباب الشريعة وبمثابة الحرب الضروس على البدع والضلالات! فكان أنْ عمَد إلى نسخ هذه الكتب وإرسالها مع مَن يبيعها في سوق الورّاقين بأثمان زهيدة.

أضف إلى ذلك أنه كان حريصًا على تعميق صلاته بالمستشرقين وأهل الكتاب وغيرهم من المخالفين والمعارضين، بغْية هدايتهم أو تحييدهم أو التخفيف من غلوائهم.

وكان أنْ أدرك بفطنته حاجة مجتمعَه إلى ثورة فكريّة لا ماديّة؛ فاهتمّ بالثقافة واعتنى بالمخطوطات النادرة؛ وإليه يعود كلّ الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية بدمشق بعدما ابتاع لها نفائس الكتب والمخطوطات، ولتكون بذلك أوّل مكتبة عامة في تاريخ دمشق الحديث، ثمّ أسّس المكتبة الخالدية بالقدس، وشغل وظيفة المفتّش العام على دور الكتب العامة في عام ١٨٩٨م. كما أَعلى مِن قيمة العلم؛ وانفتح على علوم عصره دعوة وتطبيقا؛ فأعطى للقلم حقّه، وألّف وصنّف نحو عشرين مصنَّفا، منها (الجواهر الكلامية في العقائد الإسلاميّة) و (بديع التلخيص) و (توجيه النظر إلى أصول الأثر). ثمّ ارتحل وراء العِلم والدعوة؛ فحطّ في الحجاز وفلسطين ومصر وتركيا وفرنسا.. وبهذا كان شعلة نشاط في مجالات عدّة، وخلَّف آثارا بارزة على الأصعدة الدينية والتربوية والعلمية والاجتماعية والسياسية، حتى وصفه الشيخ علي الطنطاوي بأنه باعث

نهضة ومعلِّم جيل، بينما وصفه الأستاذ أبو غدّة بأنه عالِم متقِن ومحدِّث متمكِّن وفقيه بارع ومؤرِّخ واع ولُغوي ضليع وحَبر في القرآن والقراءات. أمّا الكاتب الإسلامي محبّ الدين الخطيب؛ والذي يُعدّ ابنه الروحي، فقد قال فيه: «مِن هذا الشيخ عرفتُ إسلامي وعروبتي».

وقد هام الشيخُ منذ نشأته بالكتب، وعمل على جمعها وشرائها من خلال مصروفه القليل وهو بعدُ في ميعة الصبا وريعان الشباب؛ فاقتنى مع مضيّ الزمن مكتبة نفيسة بلغت بضعة آلاف مجلّد معظمها من المخطوطات التي تُوزن بمثاقيل الذهب، وفي هذا دليل على تعظيم العِلم وسموّ العقل وشرف النفس. كما اشتُهر بولعه الشديد بالقراءة؛ حتى كان فراشه دوما مُحاطا بسياج من الكتب، وكان إذا استحسن كتابا طالعه أكثر من مرّة، وكان-كما روى الشيخ علي الطنطاوي- يتّخذ من جيوب الجُبّة مكتبة، ففي جيب كتاب مخطوط، وفي جيب رسالة، وفي جيب أوراق ودفاتر! وكأنه من سلالة الإمام أبي داوود الذي دأب على تفصيل ملابسه على نحو يكون فيه أحد الأكمام واسعا ليحمل فيه الكتب!

وكان إذا دخل عليه أحدُ الثقلاء من حيث لا يعلم ولا يشعر، دفع إليه كتابًا

وقال: خُذ هذا فاقرأه، حتى لا يشغله عن مطالعاته وتصانيفه. وكان ممَّن يطبقون المثل القائل: «اتّخِذْ مِن الليل جملا تُدرِكْ»؛ فيقرأ في هدْأة الليل، ولا ينام إلّا حين تصحو الشمس؛ مستفيدا من كوْنه عزبا بلا زوج ولا ولد، ومنفِّذا بذلك وصيّة المنذِر لابنه النعمان، والتي قال فيه: «يا بنيّ، أُحبُّ لك النظر في الأدب بالليل، فإنّ القلب بالنهار طائر، وبالليل ساكن، فكلّما أَوْعيتَ فيه شيئا علقه».

وفي شهادة على عمق وسعة قراءاته؛ وصفه تلميذُه محمد كرد علي في كتابه (كنوز الأجداد) بقوله: «قرأ جميع ما طالَت يدُه إليه من الكتب العربية التي طُبعت في الشرق والغرب، أمّا المخطوطات التي طالعها ولخّصها في كنانيشه وجزّازاته فتُعد بالمئات، وقلَّ أن يدانيه أحدٌ في علم الكتب ووصفها ومؤلِّفيها وأماكن وجودها وما عرض لها، ولطالما رحل من بلد إلى بلد بعيد ليطّلع على مخطوط حُفظ في بعض الخزائن الخاصة».

ولأنّ كلّ إصلاح لابدّ له من ضريبة وكلّ نجاح لابدّ له من أعداء؛ فقد ضاقت الشامُ بالرجل، وضجّت من دعواته الإصلاحيّة التعليميّة زمن السلطان عبد الحميد، بل وجرّدته من وظائفه واتّهمتْه بالخيانة الوطنية هو ومَن معه مِن

العلماء والمصلحين الذين دأبوا على الاجتماع كلّ جمعة فيما عُرف بحلقة دمشق الكبرى، بغرض تدارس الأحوال العلمية والفكرية والسياسية في البلاد. وعندها نزح إلى مصر في عام ١٩٠٧م، وبقي بها إلى قبيل وفاته بشهر واحد، ودبّر فيها عيْشَه بأن شرع يبيع كتبَه وذخائرَ مخطوطاته التي نقل أكثرَها من دمشق إبّان رحيله، متعفِّفا عن طلب المساعدة، ورافضا الوساطة التيمورية لدى مقام الخديوية بغرض تخصيص معاش له، وضاربا المثل على ما يجب أن يتصف به العلماء مِن إباء الأمراء وزهد العبّاد. وكان يأبى بيع مخطوطاته إلى مكتبة المتحف البريطاني رغم إغرائه بأثمان غالية، ويفضِّل بيعها بنصف الثمن إلى دار الكتب المصرية! كما كان يقصر بيع المخطوطات على المكتبات العامة، ولا يبيعها لأفراد؛ لئلّا تصير غنيمة باردة إلى بلاد أخرى، ولكيلا يتفرّق التراث بين أنياب اللئام. أمَّا ما تركه وراءه في دمشق من بقية مكتبته، فقد أهداه إلى الخزانة الظاهرية في دمشق، والتي نُقلت مخطوطاتها مؤخّرا، فاستقرّت بمكتبة الأسد.

ولعلّ خيْر تعبير عن فلسفة الشيخ في الحياة، هي نصيحته لأصحابه قائلًا:

«تَعلّموا كلّ ما تيسّر لكم تعلّمه، ولو لغة مالطة، فقد يجيء زمان تحتاجون إليها، وإيّاكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كلّه نافع، والمرء يتعلّم ما حَسنت به الحياة. والعِلم أنشودة المتعلِّم أينما وجده تعلَّمَه». وهو ما طبّقه على أرض الواقع؛ حين جمع بين العِلم المنقول والمعقول، ثمّ شرع يعالج روحَ الأمّة وقلبَها بصحيح المنقول، ويداوي جسدَها وأعضاءَها بسليم المعقول.

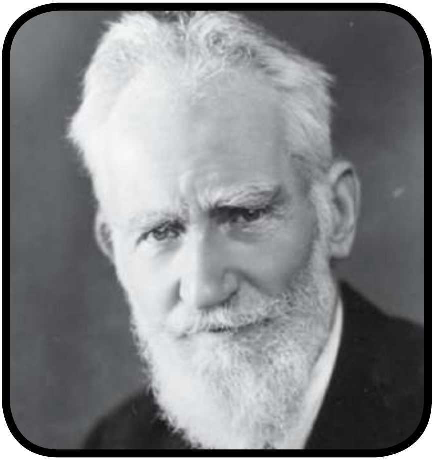

٩- جورج برنارد شو (١٨٥٦-١٩٥٠م)

أديب أيرلندا الأبْرز، وساخر بريطانيا الأشْهر، وأحد النجوم الذين حفروا أسماءهم في رواق جائزة نوبل. اشتراكيٌّ حتى النخاع، وصديقُ الحيوانات الحميم الذي حرَّم على نفسه أكْل اللحوم بدعوى أنَّ الصديق لا يأكل أصدقاءَه! وأكبرُ المنصفين لنبي الرحمة -صلى الله عليه وسلم- ضمن أدباء الغرب، حيث لقّبه بمنقذ البشريّة؛ هذا رغم نشأته في وسط مسيحي بروتستانتي، وإيمانه بأنه ليس هناك سوى دين واحد ولكن بمئات النسخ! كما كان عدوا للحرب وداعية سلام، فأدان الاستعمار الإنجليزي، ووصف أمريكا بأنها أمّة قروية تسعة وتسعون في المائة من سكانها أغبياء بله، ورفض لفترة طويلة زيارتها؛ حتى لا

يرى سخرية القدر بوجود تمثال الحرية في بلد يَمتهن الإنسانَ أينما كان. وقد طلب منه صحفي أن يُعرِّف نفسَه في كلمات، وذلك في بدء مشواره الأدبي، فقال بسخريته المعهودة: «أنا رجل أعزب، أيرلندي، نباتي، كذاب، دجّال، اشتراكي ومحاضر مولع بالموسيقى، أُنكِر إنكارا شديدا المركز الذي تحتله المرأة في حضارتنا، وأُؤمن بالفنّ إيمانا جادا».

ومع أنّ الفقر أعياه، والتفكّك الأسري أَشقاه، ولم ينل حظّه من التعليم المدرسي إلّا خمسة أعوام؛ إلّا أنّه أيقن أنّ الإنسان الفاضل هو مَن يعطِي الحياة أكثر ممّا يأخذ، وآمن بأنّ الناجح في الحياة هو مَن يسعى للبحث عن الظروف التي يريدها وإن لم يجدها يصنعها لنفسه، واقتنع بأنّ القوّة التي تعين الإنسان على أن يقف وحده جديرة بأن تُنال حتى ولو كان ثمنها فترات طويلة من الوحدة المريرة؛ فشمَّر عن ساعديْه وألقى حبله على غاربه، ثمّ اتّخذ من القراءة الحُرّة قاعدة لبناء حياته التي قاربَت القرن، ومنطلقا لفتوحاته الأدبية التي جاوزَت الزمان والمكان، إلى الحدّ الذي عدّه بعض النقاد العمودَ الثاني للأدب الإنجليزي بعد شكسبير. ولِيبرهن بذلك على صدق اعتقاده بأنّ المدارس -على حدّ قوله-

ليست إلّا سجونا ومعتقلات، وأنها تملأ العقول بحشو المعارف التي تؤذي مرتاديها في نموِّهم الثقافي!

وقد تعرَّفه الكاتب سلامة موسى في لندن مطلع القرن التاسع عشر، ووصفه بأنه فارع الطول، نحيف القدّ، تُجلِّل وجهَه لحية صهباء كأنها لهب من نار، أطلقها ليستر بها آثار الجدري الذي أصابه وهو صغير وترك ندوبا في وجهه. ثمّ سطّر سيرته في كتابٍ لقَّبه فيه بأديب الأفكار، وذكَر أنّ (شو) في سنّي الامتصاص الثقافي –والتي حدّدها فيما بين العشرين والثلاثين– قد قرأ ألوانا من العلوم والآداب والتاريخ والأديان لا يكاد يتصورها العقل، وأنه كان يقصد كلّ صباح إلى مكتبة المتحف البريطاني التي تضمّ أكثر من أربعة ملايين كتاب، فيختار من بينها ويقرأ ليربِّي شخصيته الأدبية. وكذلك ترجم له(العقاد) وذكر بأنه لا حصر لِما قرأه (شو) من آداب عصره وآداب سائر العصور. أمّا (ديل كارنيجي) فقد عدّه أحد الخالدين، وذكَر أنه في صغره وعندما بلغ مِن العمر سبع سنوات فقط كان يقرأ لشكسبير! مع أنّ كتابات شكسبير تتميز بالعمق ويَحار فيها الكبار، وعندما وصل إلى الثانية عشرة كان متشبِّعا بكتابات بيرون

وديكنز وديماس، وفي سن الثامنة عشرة قرأ ستوارت ميل وهربرت سبنسر.

أضِف إلى ذلك ما قاله (شو)عن نفسه بأنه وُلد قارئا، ولا يذكر اليوم الذي كان لا يحسن فيه القراءة. وما ورد على لسان مساعدته؛ بأنه كان مغرما باقتناء المعاجم، وما إن يظهر معجم جديد في إحدى اللغات العديدة التي كان يجيدها، حتى يشتريه ويقرأ فيه كما يقرأ أحدُنا كتابا عاديا.

وبالطبع كانت هذه القراءات الدّؤوبة والمتشعِّبة، إضافة إلى أسفاره التي طوف فيها العالم وزار روسيا والهند وجنوب إفريقيا ونيوزيلاندا وأمريكا؛ هي التي وسَّعَت مداركه، وأَطلقَت العِنان لخياله، وجنَّبته نصف المعرفة التي قال بأنها أخطر من الجهل؛ فحلّق بذلك عاليا في سماء التأليف المسرحي والنقد الأدبي والسرد الروائي والكتابات السياسية، وخلّف للمكتبة العالميّة أربعين مؤلّفا؛ منها (مقالات في الاشتراكيّة الفابية) و(جان دارك) و(بيوت الأرامل) و(الإنسان والسوبرمان)، وغيرها. وقد أغدقت عليه تلك الكتابات فغمرتْه بالمال وطوّقته بالغنى بعد فقر، حتى أصبح يتقاضى أكبر الأجور بين المؤلّفين؛ إذْ بلغ أجره جنيها عن كلّ كلمة يكتبها في مقالة، وترك لورثته نحو نصف المليون من الجنيهات، وهي ثروة طائلة بمقياس زمانها.

ومِن عجيب ما يُروَى عن ارتباطه بالقراءة؛ أنه كان إذا ارتدى ملابسه تَخلَّلها بالقراءة؛ فيلبس القميص ثمّ يقرأ هنيهة، ويلبس البنطال ثمّ يقرأ لحظات، ويلبس ربطة العنق ثمّ يعاود القراءة، وهكذا إلى أن ينتهي، وكذلك يفعل عند خلع ملابسه! والواقع أنّ حياة الرجل برمّتها زاخرة بالعجائب التي ملأ بها الدنيا وشغل النّاس، ومرجع ذلك إلى إيمانه بأنّ العقلانيين يتغيّرون مع العالم مِن حولهم بين غير العقلانيين هم مَن يغيّرون العالم ويحرزون كافة التقدّمات؛ ولذا نجده تمنَّع في تسلُّمه الجائزة المالية الضخمة (سبعة آلاف جنيه) التي منحتْها له مؤسّسة نوبل في عام ١٩٢٥م تقديرا لإبداعاته في مجال الأدب، واصفا إيّاها بطوق نجاة يُلقَى لشخص يقف على البرّ! وعاش مع زوجته ٣٥ عامًا دون أن يقربها مقاربة الأزواج؛ بحجة أنّ حبَّه لها أكبر من أن يشتهيها! وأَوصى[١] بأن يُحرق جثمانه بعد وفاته، ويُخلط برماد زوجته التي أُحرقت قبله واحتُفظ برمادها في زجاجة، ثمّ يُنثر المخلوط في حديقة منزلهما! وأقام نصبا تذكاريا لخادمته التي ماتت قبله في حديقة البيت! وكان الخدم لا يشافهونه بل يكاتبونه بما يريدون ويجيبهم كتابة! وأوقف ربع مليون جنيه من تركته لإصلاح حروف الهجاء

(١) جميل هذا المثل البولوني الذي يقول: «وصية الميت مرآة حياته».

في اللغة الإنجليزية! فضلًا عن عدائه للطبّ والدواء، ودعوته إلى الاستشفاء بالطبيعة لا بالأطباء!

وضمن طرائفه العديدة التي يمرِّر فيها رسائل بالغة الدّلالة، أنّه توجّه يومًا إلى إحدى مكتبات بيع الكتب المستعمَلة، فوقع نظرُه على أحد مؤلَّفاته المسرحية، ولمّا تصفّحه هاله أنّ هذه النسخة كان قد أهداها إلى صديق له وكتب عليها بخط يده: « إلى مَن يقدِّر الكلمة حقّ قدرها، إلى الصديق العزيز، مع أحرّ تحيات برناردشو». فما كان منه إلّا أن اشترى هذه النسخة وكتب تحت الإهداء الأوّل: «برناردشو يجدّد تحياته الحارة إلى الصديق العزيز الذي يقدِّر الكلمة حقّ قدرها»، ثمّ أرسل النسخة بالبريد المسجّل على عنوان ذاك الصديق.

١٠-محمد فريد وجدي (١٨٧٨-١٩٥٤م)

رائد مِن كتيبة الإصلاح في النصف الأوّل من القرن العشرين، والذي يُعدّ وبحقّ أشدّ القرون مأساوية ودموية في تاريخ العالَم الحديث. تركي الأصل مصري المولد إسلامي الوطن، نشأ وترعرع في بيت عزّ وجاه، وسلك مسلكًا ذاتيّا في التعلُّم، ثمّ نزّه قلمه عن التكسُّب والتّزلُّف، وقصد به حماية بيضة الإسلام وردّ سهام العادين؛ فصنّف وألّف في سبيل إصلاح الدنيا بالدين، حتى وصفه العقّاد بأنه فريد عصره، وسطّره التاريخ ضمن صفحاته الوضيئة مفكرًا وفيلسوفا قلّ أن يجود الزمانُ بمثله.

ولأنّه لم ينل من التعليم النظامي إلّا الشهادة الابتدائية، فقد التحق- رغبا

لا رهَبا- بجامعة التعليم الحرّ التي اتّخذ فيها مِن الكتاب أستاذَه الأوحد، وعكف يقرأ في الصباح ويُعيد القراءة في المساء، ويفتح عينيه على بياض الأوراق في النهار ويغمضها على ظلمة المداد في الليل، ويقرأ في كلّ موضوع أكثر من كتاب، مدفوعا في ذلك بنهمه الشديد للمعرفة، ومستعينا بمكتبة والده العامرة بشتّى فنون العلوم العقليّة والنقليّة، ومتسلِّحًا بحذقه للغة العربية، وإتقانه للفرنسية التي أَسلمت له عِنانَها قراءة وكتابة؛ فاطّلع بذلك على علوم الشرق والغرب، وصار موسوعيًا مُستنيرًا يملك الحجّة ويفنّد بالدليل ويكتب في كلّ فنّ.

وربّما كانت العاصفة الفكرية التي اجتاحته إبّان يفاعته، فزعزعت يقينَه وكدّرت روحَه، دافعه الحثيث إلى البحث العصامي، وإلى القراءة الجادّة المتعمِّقة في المعارف الكونية والاجتماعية والتاريخية والدينية والنفسية، إيمانا منه بأنّ الحقيقة بنت البحث، خاصة بعد أن آب بخفّي حنيْن، حين التمس شمسَ الحقيقة لدى العلماء الرسميين الذين دأبوا على ارتياد مجالس أبيه! هذا بالإضافة إلى تلك الرسالة السامية التي وهب نفسَه لها، وذاك الهدف النبيل الذي وضعه نصب عينيه، حين رأى شبهات المستشرقين وأراجيف المغرضين تسرِي بين

المسلمين سريان النار في الهشيم.. فبقدر سموّ الرسالة ووضوح الهدف؛ تَعظم الهمّة وتَهون الصّعاب.

وعن رحلته القِرائية حكى قائلًا: «صرتُ لا أرتاح لرأي واحد يتضمّنه كتاب، وجعلت أتناول بالقراءة والدرس جميع الكتب الدينية والكونية والاجتماعية، وسائر ما يتعلّق منها بعلم النفس، وأَكْببْت على ذلك عدّة سنين، فاكتسبْت علما غزيرا، واتسع أمامي نطاق الحياة، وجال نظري في الكائنات جولات أفادتني فيما أتناوله من البحث والدرس، حتى صرت لا أَقنعُ بفكرة دون أن أعني بتمحيصها ودرسها، معتمدا في ذلك على تجاربي الذهنية التي مرّت بي طوال السنين».

وقد أَثمر هذا الجدّ وتلك الروح، عن مؤلَّفه الأول (الفلسفة الحقّة) وهو بعد دون العشرين! ثمّ كتابه (المدنيّة والإسلام) والذي سطره بالفرنسيّة ومدحه المنصفون شرقا وغربا. لتنهمر بعدها -وقبلها- مقالاتُه الصحفية التي ضمّنها جريدتي الحياة والدستور اللتيْن أنشأهما؛ وسجل فيهما مواقفه السياسية والوطنية، وتبنَّى من خلالهما دعوته إلى الجامعة الإسلامية. عدا عن إسهاماته

في بقية الجرائد والمجلّات السيّارة آنذاك، ومنها مجلة الأزهر التي أدارها ورأس تحريرها لمدّة قاربت العشرين عاما، وقوّم بها المعوجّ وأرشد الضالّ. كما توالَت مؤلّفاتُه الإسلامية والتاريخية؛ والتي تُرجم بعضُها إلى لغات أجنبية عدّة، وصار بعضُها مقرَّرا دراسيا للطلّاب في المدارس والمعاهد.

ولعلّ أعظم مؤلّفاته، هي (دائرة معارف القرن العشرين)؛ والتي أرَّخت لأوّل وأضخم دائرة معارف عربية؛ إذْ قام عليها بمفرده! واستغرق إعدادها ثمان سنوات! وجاءت في عشر مجلّدات ضمَّت ما يقرب من تسعة آلاف صفحة! واحتوَت على فصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم العقلية والنقلية، وتراجم المشاهير، وحشد من الفوائد التي يحتاجها الإنسان في سائر أحواله المعيشيّة! ولهذا استُقبلت استقبال الفاتحين، وطُبعت طبعات عدّة، واعتُبرت عملا خارقا بمقاييس عصرها.

أضِف إلى ذلك كتابه (صفوة العرفان في تفسير القرآن)؛ وفيه سنَّ سنَّة حسنة تبعه فيها غيرُه، وكان فيها السابق وغيرُه لاحق؛ فسطّر معاني المفردات والمعنى الإجمالي للآيات بعبارة ميسّرة، ودوَّنها على حاشية المصحف بعدد

صفحاته، وقد ذكَر أنه صنَّفه لنفسه أوّلا على حاشية مصحفه ليكون له مرجعا، ثمَّ نشره لَمَّا ارتأى حاجة الناس إليه ماسة.

ومِن حسنات تلميذه الوفيّ النجيب محمد رجب البيومي؛ أنه جمع بعضا من مقالاته ورتّبها وشذّبها ونشرها في كتابه(مناقشات وردود)، فأثرى بذلك مكتبتنا الإسلامية. ثمّ زاد فترجم له مطوّلا ضمن سلسلة أعلام المسلمين؛ وذكر -ضمن ما ذكر- أنه كان يمرض المرض الشديد، فيَقرأ وهو على فراش المرض مقالا متعسِّفا يهاجم مبدأ من مبادئ الدِّين، فيأمر أن يُحمل إليه مكتبُه الصغير مع القلم والورق، ليردّ على المقال فور قراءته، وهو في ذات الجلسة على فراش المرض، حتى لتشفق عليه زوجتُه، فيقول لها في ابتسام: تلك رسالة، وأنا لا أزال حيّا لم أمت، فلا بدّ من القيام بها.

ولكلّ تلك المآثر التي لا ينكرها إلّا جاحد، ولا يَذكر فضلَها إلّا فاضل؛ فقد كتب عنه فضيلة شيخ الأزهر عبد الحليم محمود قائلًا: «أسبغ اللهُ شآبيب رحمته على فريد وجدي، فقد كان أمّة وحده...كان يعيش في شبه عزلة، ولكن قلمه كان يصول ويجول في كثير من المعارك الفكرية، وكان -لا تجاهه الإسلامي- يتعرّض كثيرًا لهجوم عنيف من المادِّيين والملحدين»، ولعلّ الشيخ يشير بذلك،

إلى ردوده على شبهات أثارها (جوستاف لوبون) و (هـ. ج. ويلز) فيما يخصّ الإسلام والنبوّة والقرآن، وإلى ردوده على قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة، وعلى طه حسين في طرحه بخصوص الشعر الجاهلي، وعلى خالد محمد خالد فيما يخصّ كتابه مِن هنا نبدأ .

أمّا زكي مبارك؛ فقد أبان عن سليقة الرجل التي اتّسمت بالأدب الجمّ عند الردّ على معارضيه، حتى لو جادلوه بالتي هي أقبح لا بالتي هي أحسن، فقال: «الأستاذ محمد فريد مِن ألين الكتّاب قلما، فهو لا يجادل إلّا بالتي هي أحسن، ولا نرى في كتابته جملة واحدة تحمل معنى من معاني العنف، وقد جادلْته مرّات على صفحات البلاغ، فكان لطيفا رقيقا، أمّا أنا فكنت أتلطّف وأترفّق، والفرق بعيد مَن يرقّ ويلطف بالطبع، ومَن يتكلّف الرفق واللطف»...والحقّ أنّه لا يُتوقَّع إلّا ذلك مِن وجيه فريد، بلغ به السموّ الخلقي والتواضع الإنساني، أن يُبجِّل خادمَه إلى حدّ أنّه كان ينتصب له واقفا عند دخوله عليه!

١١-مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧م)

علَم من أعلام الأدب العربي الحديث، آمن بأنّ اللغة للدّين كالأساس للبنيان؛ فعَدّ نفسه رسولا لُغويا، وذاد عن عرينها سبعا وثلاثين سنة. كما جحد الفصام النكِد بين الدّين والحياة؛ فجمع بين الدِّين والأدب، وضرَب بسهم وافر في مضمار الأدب الإسلامي؛ حتى صار أديب الإسلام الأوّل في عصره...

سوريّ الأصل، مصريّ المولد، إسلامي الموطن؛ إذ اعتقد أنّ كلَّ بقعة تخفق فيها راية الإسلام هي له وطن. بدأ مشواره الأدبي بنظْم الشّعر، وطبع ديوانه الأول (ديوان الرافعي) في ثلاثة أجزاء، أعوام ١٩٠٦،١٩٠٤،١٩٠٣م؛

فأجاد وهو بعدُ يافع، حتى ظنّ الأديبُ إبراهيم اليازجي أنه شِعر منحول لا يَصدر مِن شاب في عشرينيّات عمره، وذلك عندما أهداه الرافعي نسخة من الديوان ليَستأنس برأيه، على اعتبار أنّ اليازجي كان يُعدّ آنذاك قلادة الأدب العربي ودرّة تاجه. ثمّ ارتأى في النثر ميدانا أرحب وأطْوع؛ فسطَّر المقالة وأبدع فيها عبر صفحات الجرائد والمجلات الذائعة الصيت، لا سيّما (الرسالة) لصاحبها أحمد حسن الزيات والتي عُرفت بالرصانة والالتزام، حتى أَثرى المكتبة العربية بمؤلَّفات بلغ تعدادها ثلاثة عشر مؤلَّفا، حسبما ورد في صدْر الجزء الأوّل من كتابه وحي القلم[١]؛ والذي يُعدّ آخِر مؤلّفاته وأشهرها بأجزائه الثلاثة، علاوة على كتاب تاريخ آداب العرب بجزأيه، واللذان أُلحق بهما ثالث بعد وفاته، وامتدحه الأمير شكيب أرسلان بقوله: «لو كان هذا الكتاب خطا محجوبا في بيت حرام إخراجه منه لاستحق أن يُحجّ إليه، ولو عُكف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار لكان جديرا بأن يُعكف عليه». وكذلك ديوانه

(١) فكّر الرافعي في تسمية هذا الكتاب (الأدبيات)، ثمّ عدَل عنه إلى (قول معروف)، ثم غيَّره إلى (الورقات)، قبل أن يستقر على العنوان الذي نُشر به وهو (وحي القلم). في دلالة على الحيرة البالغة التي يعانيها المؤلِّف في اختيار عناوين كتبه.

الشعري (النظرات) والذي يخلط بعضُهم بينه وبين (النظرات) للمنفلوطي؛ وهو كتاب نثري، يقع في ثلاثة أجزاء، وجمع فيه المنفلوطي ما نشره في جريدة المؤيّد من فصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص. ناهيك عن فلسفة الحب والجمال التي شغف بها، وسكبتْها يراعتهُ في مؤلّفات ثلاثة هي رسائل الأحزان وأوراق الورد والسحاب الأحمر.

ولا غرو أن تفرَّدت تلك المؤلَّفات مَبنى ومَعنى، وجمعت بين قوّة البيان وعمق الفكر وحرارة الحِسّ وأصالة التراث؛ فذاعت إبّان حياته، وراجت بعد رحيله، حتى تناقلتْها الأجيال بالحمْد والقبول، وتناولتْها الأقلام بالثناء والتمجيد؛ فكانت ومازالت حديثا يُؤثَر، وحكمة تُروَى، وفرائد تُحفَظ. وما ذلك إلّا لأنّه سطر تلك المؤلّفات بيراع الروح ومداد القلب وعرق القراءة، ويكفي أن نعلم أنّه لمّا همّ بكتابة مقاله (السموّ الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغة النبوية)، وهو صدْر الجزء الثالث من كتابه (وحي القلم)؛ قرأ كتاب (صحيح البخاري) كاملا، قراءة درس وتمحيص في بضعة عشر يومًا، ليبني عليه مقالته! ولمّا طُلب منه كتابة نقد أدبي لأحد دواوين الأمير شوقي؛ عكف

يحرثه أربعة أيام بلياليها، قبل أن يخط مقالته في أربعة أخرى، وينقِّحها في يوميْن آخَرين!.. وهو ما بوّأه الريادة الأدبية؛ فكان رافعيّ الاسم رفيع المقام، حتى لقّبه شيخ العروبة (أحمد زكي) بشكسبير العرب، ووصفه الأمير شكيب أرسلان بأنّه إمام الأدب وحجّة العرب، وقال عنه الزعيم مصطفى كامل بأنه الحكمة العالية مَصوغة في أجمل قالب من البيان، كما اعتبره بعضُ النقّاد جاحظ عصره، وعدُّوه جديرا بعمادة الأدب التي طار بها غريمه طه حسين.

وقد نشأ (أبو السّامي)[1] في بيت عِلم ودين، وتَتلْمذ على يد أبيه الذي تعهَّده حتى حفظ القرآن -أو بعضا منه- وجوَّده وهو في العاشرة من عمره، ثمّ التحق بالمدرسة، ولكنه لم يتحصّل منها سوى على الشهادة الابتدائية، إذْ داهمتْه حمّى التيفود التي ألْزمتْه الفراش شهورا؛ ثمّ أسقمَت أعصابه، وأَبت إلّا أن تتركه حبيس الصوت وقِر الأُذن، فكان كلًّا على أُذن غيره، يُحدِّث الناسَ ولا يَسمعهم، ويُشافهونه فيكاتبهم!

(١) هكذا كانت كنية الرافعي، بعدما سمَّى ابنَه البكر (محمود سامي الرافعي)، وجاءت تسميته بهذا الاسم إعجابا وتقديرا للشاعر محمود سامي البارودي، والذي ارتأى فيه الرافعي قدوتَه الشعرية. وعلى هذا النهج سار تلميذه أبو ريه، الذي سمَّى ابنه مصطفى صادق تيمّنا بالرافعي، وسمّى ابنه الآخر شكيب إعجابا بأمير البيان شكيب أرسلان.

ولأنّ رُبّ ضارّة نافعة، ورَبُّ الخير لا يأتي إلّا بالخير؛ فقد هيّأ له هذا الظرف الصحي الانسلاخ عن دنيا الناس إلى دنيا القراءة، فانكبّ على مكتبة والده الزاخرة بكتب الأدب والفقه واللغة والتهمها التهاما، وعرج على مكتبة الجامع الأحمدي بمدينة طنطا وفعل بها فعلته الأولى، وأدار الدائرة على مكتبة القصبي التي حفلت بفرائد العلوم والفنون ونوادر المخطوطات والمطبوعات، ثمّ تعلَّم الفرنسية وجاب من خلالها دروب الأدب الغربي وفلسفته وعلومه، فجمع بذلك بين الحُسنييْن (الأدب العربي والأدب الغربي)، هذا قبل أن يباغته القدَر في عقر داره، فيعتصر فؤادَه بأزمة قلبية لم يُحِرْ لها ردًا ولم يَسطَع منها فِكاكا.

وفي تَرجمته التي سطّرها صفيُّه وخليلُه الأديب محمد سعيد العريان، كتب عن أحواله مع القراءة قائلًا: «كان يقرأ كلّ يوم ثماني ساعات متواصلة، تمتد في أكثر لياليه من المغرب إلى منتصف الليل، وكان إذا زاره زائر في مكتبته؛ جلس قليلا يُحيِّيه ويستمع لما يقوله، ثمّ لا يلبث أن يتناول كتابا ممّا بين يديه ويقول لمحدِّثه: تعال نقرأ. وفي القهوة والقطار والديوان، لا تجده إلّا وفي يده كتاب، وكان في أوّل عهده بالوظيفة يسافر من طنطا إلى المنصورة كلّ يوم ويعود، فيأخذ

معه في الذَّهاب والإياب مَلازِم مِن أيّ كتاب ليقرأها في الطريق، وفي القطار بين طنطا وطلخا، استظهر كتابَ نهج البلاغة في خُطب الإمام علي، وكان لم يبلغ العشرين بعد». بل إنّه كان إذا أراد الكتابة وجلس لها وتهيّأ، استفتح بالقراءة في إحدى كتب التراث، لمدة يستروح فيها نصاعةَ وأصالةَ وفتوّةَ العربية الأولى؛ وكانت حجّته أنّه يطمح أن يحلّق بأسلوبه في نفس هذا الجوّ العربي الأصيل.

أمّا عن مكتبته التي كانت بيته وحياته؛ فقد رسم لها (العريان) صورة بديعة جعلتْها مَرأى العيْن ومَلمس اليد بقوله: «كان يجلس خلف مكتب تكاد الكُتب فوقه تحجبه عن عينَي محدِّثه، وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحَمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام، تطلّ من بين صفحاتها قصاصات تنبئك أنّ قارئها لم يفرغ منها بعد، أو أن له عند بعض موضوعاتها وقفات سيعود إليها، وعلى حيطان الغرفة أصونة الكتب المتراصة لا يبدو مِن خلفها لون الجدار».

وقد أحسن الأديب محمود أبو ريّه، حين حسر اللثام عن وصْفة الرافعي القرائية لَمن أراد أن يلمّ بالأدب إلمام العارفين، وذلك ضمن ما نشره من رسائل الرافعي الخاصة إليه في الفترة من ١٩١٢ إلى ١٩٣٤م، والتي خاطبه فيها بقوله:

«عليك بقراءة كتب المعاني قبل كتب الألفاظ، وادرس ما تصل إليه يدك من كتب الاجتماع والفلسفة الأدبية في لغة أوروبية أو فيما عُرِّب منها. واصرف همّك من كتب الأدب العربي إلى كليلة ودمنة والأغاني ورسائل الجاحظ وكتابيْه الحيوان والبيان والتبيين، وتفقّهْ في البلاغة بكتاب المثل السائر، ثمّ عليك بحفظ الكثير من ألفاظ كتاب نجعة الرائد لليازجي والألفاظ الكتابية للهمذاني، وبالمطالعة في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي والعقد الفريد لابن عبد ربِّه وكتاب زهر الآداب الذي بهامشه». ثمّ ختم بوصية جامعة لكلّ قارئ، ينصحه فيها بالصبر ويبشّره بالمجد، فقال: «إن دأبتَ في القراءة والبحث، وأهملتَ أمر الزمن طال أم قصر، انتهى بك الزمن إلى يوم يكون تاريخا لمجدك، وثوابا لجدّك».

ودَعْ عنك هنا كوْن الرجل عاش متبسِّطًا، حتى لا يراه الناظر إلّا أحد العوامّ الذين غصّت بهم الحياة ولفظتهم في طرقاتها ومقاهيها وحوانيتها؛ فيكفيه من دنياه أنّه عاش جنديا في كتيبة حُماة اللغة والعقيدة، ووطَّن نفسه على العزّة والشرف، وآمن بأنّ الثقة بالله أزكى أمل والتوكّل عليه أوفى عمل؛ فلا داهَن سلطة وارتضى أن تكون البصلة تفاحة، ولا جَبُن عن مجابهة كبار عصره فسَلّم

لهم بأنّ التفاحة بصلة، ولعل ردّه على طه حسين والعقّاد عبر كتابيْه (المعركة) و (على السفُّود)، شاهديْن على ذلك.

ودَعْ عنك أيضًا كوْن الدنيا لم تَجُد عليه إلّا بوظيفة كاتب في محكمة، ولم تشيِّعه عند وفاته إلّا بحفنة من الموظفين والجيران، ولم تمنحه جائزة أو وساما، ولم تُشيِّد له نُصبا أو تمثالا؛ فالعظماء تَشرف بهم الجوائز والأوسمة، وتخلِّدهم الأعمالُ لا الأحجار، وخيْر الخلود ما حظي بالقبول من ربِّ الوجود.

١٢- العقّاد (١٨٨٩-١٩٦٤م)

هرَمٌ يطاول أهرامات مصر الثلاثة، ولكنّه من ثقافة وفكر لا مِن حجَر وتاريخ. وعملاق ليس بطوله الفارع فحسب، ولكن بإسهامه الوافر في ميدان الحرف. جمع بين ثقافة الأديب وحنكة المفكِّر وحكمة الفيلسوف ومنهجيّة العالِم؛ فكتب الشِّعرَ وكاد طه حسين أن يُقلّده الإمارة التي خلت بموت شوقي، وكتب القصة فرشّحه نجيب محفوظ لنيل جائزة نوبل في الآداب، وكَتب في السياسة فتهاوت أمام قلمه حكومات ورحلت وزارات، وكَتب في التراجِم فخلّدتْه العبقريات، وربَّى أجيالا فوصفه أنيس منصور بأنه جامعة؛ وذلك حين قال:

«عندما انتقلتُ من المنصورة إلى القاهرة انتقلتُ إلى جامعتيْن في وقت واحد: جامعة القاهرة، وجامعة العقاد». كما كانت رؤاه وأفكاره محلّ بحث الرسائل الجامعية، والدراسات الأكاديمية، وكتابات المستشرقين، حتى صار كالمثل السائر يعرفه العالِم والجاهل.

وقد حباه الله قدرة عقلية فذّة؛ مكّنتْه من الكتابة في شتى الأجناس حتى لقَّبه سعد زغلول بالكاتب الجبّار، ومنحتْه تذكرة الورود على كلّ الأمواه حتى وصل بقلمه إلى عقر دار إبليس الذي لم يَسلَم منه وسطَّر فيه كتابا. ولم يكن ذلك كذلك إلّا لأنّه قرأ رأسيا إلى أنْ ورمت منه الحروف، وقرأ أفقيا إلى أنْ استغاثت صنوف العلوم؛ وفي هذا روَى أنّ أحدَ الأدباء زاره، فوجد على مكتبه بعض المجلّدات في غرائز الحشرات، فسأله مستغرِبا؟ ما لك أنت والحشرات يا أستاذ؟ إنك تكتب في الأدب وما إليه، فأيّة علاقة للحشرات بالشِّعر والنقد والاجتماع؟

ولهذا -وغيره- كان جديرا بعضوية مجلس النواب ثمّ مجلس الشيوخ إبّان العهد الملكي، وكذلك عضوية المجلس الأعلى للفنون والآداب، وعضوية المجامع اللغوية بالقاهرة ودمشق وبغداد. كما مُنح جائزة الدولة التقديرية في

الآداب، وكرّمته جامعة القاهرة فأهدتْه درجة الدكتوراه الفخرية التي رفضها طالبا –على سبيل التهكّم– من الدكاترة الذين سيمنحونه الجائزة أن يتقدّموا إليه ليقوم بفحص مؤهّلاتهم! عدا عن متحف يحمل اسمَه ويضمّ مقتنياتِه في مدينة الشمس والدّفء والتراث (أسوان)، وشارعٍ يخلِّد ذكراه في قاهرة المعزّ، ومسلسل يروي قصة حياته من المهْد إلى اللحْد. والواقع أنّه كان معتزا بنفسه إلى أقصى مدى، ويراها فوق كلِّ جائزة وتكريم؛ لإيمانه العميق بأنّ الأدب والثقافة رسالة مقدّسة، يحقّ لصاحبها أن يُصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية، بل بين أرفع المقامات الإنسانيّة بغير استثناء، وهذا ما جعله حادّ السيف تجاه مَن ينتقص مِن قدره وعنيد الرأي قبالة مَن ينتقده.. وفي هذا نظَم قائلًا:

«خلعتُ اسمي على الدنيا ورسْمي،،،فلا أنعِي رحيلي أو مقامِي»

وبرغم تَوقُّف قطارُ دراسته عند المرحلة الابتدائية، إلّا أنّ قطار حلمه واصل السيْر دون كلل نحو نبوءة الشيخ محمد عبده له بأن يكون كاتبا؛ فاتّخذ مِن القراءة جامعة له، وكان أوّل ما وقعَت عليه يده من كتب الأدب كتاب المستطرَف في كل فنّ مستظرَف للأبشيهي، ومِن الشعر ديوان البهاء زهير، ومِن

القصص ألف ليلة وليلة، ومِن دوائر المعارف دائرة البستاني، ومن الصحف صحيفة الأستاذ للنديم. هذا قبل أن يتبتّل في محراب مكتبته التي ضمَّت بين رفوفها أكثر من ثلاثين ألف كتاب؛ جمعها مِن قسمة ليست ضيزى إبّان عمله المؤقّت في وزارة الأوقاف، حين اقتص ثلث راتبه للكتب، تاركا الثلُث الثاني لسكنه والثلُث الثالث لطعامه، وقد آلت تلك المكتبة بعد ثلاثة أرباع قرن عُمُرِه، إلى دار الكتب المصرية في شطرها الأكبر، وإلى قصر الثقافة بمحلّ مولده بأسوان في قِسمها الأقلّ. كما كان يحرص في سبيل ذلك على العزلة الملهِمة؛ حتى لَيقضي الأيام في بيته على حِدة، ولا مؤنِس لوحدته سوى الكتاب والقلم، إضافة إلى كلبه الأليف (بيجو) الذي مدحه نثْرا ورثاه نظْما! وبذلك كان أساتذته ليسوا إلّا كُتبا سطّرتْها القرائح وخطّتْها الأنامل، وكانوا كما وصفهم بقوله: «كانوا جميعا مؤلِّفين مشهود لهم برسوخ القدم في صناعة التأليف، أُقِرّ منهم مَن أشاء، وأُعرِض عمَّن أشاء، وأَطلبهم حين أريد وحيث أريد»...وفي هذا وصَفه صديقه المازني بأنه بحر بلا انتهاء، وأنه يقضم الكتب قضم الأسود ويهضمها هضْم النّعام! بينما وصفه عبد الحليم منتصر بأنه أمّة وحده في مجال المعرفة والثقافة والأدب.

ومع أنّه جال ببصره وعقله في كلّ أنواع العلوم والمعارف؛ فقرأ –على حدّ قوله–كلّ ما وقع في يده من الكتب الأدبيّة والدينيّة، وقرأ في مناقب الصالحين الذي يمشون فوق الماء، وعن الأولياء الذين يُسخِّرون الريح ولا بالنار يحترقون؛ إلّا أنّه كان يُفضِّل مطالعة كتب فلسفة الدين، وكتب التاريخ العام والتاريخ الطبيعي، وتراجم العظماء ودواوين الشعر، فيقدِّمها على غيرها من القراءات، وكانت حجّته في ذلك؛ أنّ العلاقة بين هذه القراءات متينة، وإن كانت تفترق في الظاهر، إذْ تؤدِّي جميعا إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان؛ فكُتُب الفلسفة الدينية تُبيِّن إلى أي حدّ تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت، وكُتب التاريخ الطبيعي تبحث في أشكال الحياة المختلفة وأنواعها المتعدِّدة، وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة، والشِّعر هو ترجمان العواطف. وقد كان في قراءاته كلها متبحِّرا لا يقف على الساحل، وعميقا لا يقنع بالقشور، وحرّا يعقل بعقله ويشعر بشعوره، ومجتهدا يسبح صوب الحقائق والماهيات.

ولأنّه عَدَّ الوظيفة ضرْبا من ضروب الرِقّ؛ فلم تَثبُت له قدم في وظيفة، بل تفرّغ للأدب الذي عقد عليه قرانه وأنجب منه الكُتب، واستعاض به عن السفر

الذي قلّ ارتياده له؛ حيث جال العالَمَ مِن على كرسيّه أمام مكتبه وعبْر كُتبه. ويبدو أنّ السجنَ قدَر العظماء المحتوم وصديق المفكِّرين الصدوق؛ فبعد أن خاض غمار السياسة الوفديّة والسعديّة على مدار ربع قرن، إذْ بها تحرقه بنارها، وتزجّ به خلف القضبان عام ١٩٣٠م، بتهمة العيب في الذات الملكيّة، فقضاها تسعا في رحم السجن كالجنين في بطن أمه، مبرهنا على أنّ الرجال مواقف لا شوارب، وأنّ المثقَّف يرأس السلطة لا يرقص لها. وفي الوقت الذي تعذّر عليه الكتابة أثناءها؛ إذْ كان دخول الجمل في سمّ الخياط أيْسر من دخول الأقلام والأوراق إلى عقر محبسه؛ فإنّ القراءة كانت عصاه التي هشّ بها على محنته، وسرّاءه التي واجه بها ضرّاءَه، وعن ذلك سطّر في كتابه (عالَم السدود والقيود) قائلًا: «وقد وقع اختياري عندما وصلني إعلان دعوة التحقيق على كتابيْن في التاريخ والأدب، وهما مختصر تاريخ العالم للمصلح الإنجليزي هـ. ج. ويلز، وسيرة بيرون للكاتب الفرنسي أندريه موروا، فليس أَحبّ إلى الإنسان مِن أن يعوِّض حركة الجسم إذا فقدها بحركة الخيال، وليس أقرب إلى المعقول مِن أن يلتمس في عالم القراءة ما يعزّ عليه في عالم الواقع، وأي قراءة أليق بالسجين

على هذا الاعتبار من تاريخٍ يصاحب به حركة الإنسانية بأسرها، أو من سيرة رجل قضى حياته جامحا بين رحلات الخيال والسياحة والهوى والمغامرة؟».. ثمّ اكتشف أنّ للكتاب في السجن فائدة أخرى غير القراءة؛ وهي الاستخارة، إذْ كان القارئ السجين يفتح الكتاب على الصفحة اليُمنى، ثمّ يعدّ سبعة أسطر، ويقرأ ما يصادفه في السطر السابع، فإن كان في كلماته بُشرى وفرج؛ صدَّق واستبشر، وإن كان نكبة وحزنا، أمّن وتكدّر!

وفي تعلُّقه بكتبه ونكَده لفقدها، روَى أنيس منصور في مرويّاته التي لا تنفَد؛ أنّ العقّاد تقدّم بكتابه (التفكير فريضة إسلامية) مخطوطا إلى إحدى المؤسّسات الإسلامية الكبرى، ولمّا علم بفقده حزن حزنا شديدا، لأنه لا يملك نسخة أخرى، وليس بمقدوره إعادة كتابته. وعندما عاد منصور وبشَّره بالعثور على الكتاب، فرح حتى اغروْرقت عيناه بالدموع، وقال له ضاحكا: لا أعرف يا مولانا كيف أشكرك، لقد كان في نيّتي أن أقبّلك، ولكن أرى أنك لا تستحقّ هذه العقوبة.

وللدلالة على جبروته القرائي؛ عدّ بعض النقاد الذين اهتمّوا بسيرته

ومسيرته، عددَ الكتب التي قرأها بحوالي ٦٠ ألف كتاب في مختلف فروع المعارف!! وأحصوا عدد المقالات التي سطّرها بحوالي ٥٩٠٠مقال! وهي ما توسَّدت صفحات مؤلَّفاته التي جاوزت المائة. كما ذكروا أنّه في مرضه الأخير وقبيْل وفاته، أُجرِي له تخطيط كهربائي للقلب، وتبيّن أنه مصاب بأزمة قلبية، ونُصح بالذَّهاب إلى المستشفى، ولكنّه رفض قائلًا: إذا كنت سأموت، فلن أموت إلّا هنا في منزلي وعلى فراشي وبين كتبي! بل إنّه في الليلة التي تُوفِّي فيها، كان يقرأ كتابا عن جيولوجية إفريقيا! وبهذا الإسهام الوافر في ميدان البيان؛ كان جديرا بما رثاه به الشاعر ناصر الرشيد قائلًا:

فُجع البـيـانُ بميتة العقّاد   والتـفّـت الفصحى بـثـوب حـداد

ومع كلّ هذا المجد الأدبي الذي اعتلى قمّته، نراه يُعطي أبلغ درس في الهمّة وأعظم مثل في الطموح، فيقول في أخريات حياته: «لقد تعبتُ كثيرًا في تحصيل الأدب والثقافة، ولكنني أعترف بعد هذا التعب كله بقصوري عن الغاية التي رسمتُها أمامي في مقتبل صباي، فلم أبلغ بعد غاية الطريق ولا قريبا من غايته، وإذا قدَّرت ما صبوتُ إليه بمائة في المائة، فالذي بلغتُه لا يتجاوز العشرين أو

الثلاثين».. ومن نافلة القول؛ أنَّ لقب (العقّاد) الذي التصق به واشتُهِر؛ لا يعود إلى أنّه يعقِّد على الناس الحياة، فلا يدَع شيئا على حاله في الشِّعر ومقاييس النقد وسائر الأمور، حسبما تندّر أميرُ الفكاهة وشاعر النيل حافظ إبراهيم. ولكنّه يعود إلى جدّه الأكبر مصطفى، نظرا لاشتغاله بصناعة الحرير في مدينة دمياط ثمّ مدينة المحلّة التي اشتُهرت -ولا زالت- بصناعة الغزل والنسيج، أمّا اسمه فهو (عباس محمود إبراهيم مصطفى).

١٣-إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩-١٩٤٩م)

أديبٌ من طراز العقّاد والرافعي وطه حسين، وساخرٌ على منوال فولتير ومارك توين وبرنارد شو. لم يكتف بالتحليق في سماء الشِّعر؛ فدبَّج المقالة، وسرد القصة والرواية، وكتب المسرحية. عمل بالتدريس والصحافة، واختير وكيلا لمجلس نقابة الصحفيين، وانتُخب عضوا بالمجمع اللغوي بالقاهرة والمجمع العلمي العربي، وأسّس مدرسة الديوان الأدبيّة مع زميليْه العقّاد وشكري. صال وجال في ميدان الأدب زهاء ثلاثين عاما؛ فوصفه صاحب الرسالة (الزيّات) بأنّه أحد العشرة البرَرة الذين حملوا أمانة البيان ورسالة الأدب، وعُدَّ ثاني اثنيْن بين روّاد القصة العربية الطويلة. وبرغم أنّه أَثرى المكتبة العربيّة بنحو ٤٠ كتابا،

توزَّعت بين القصص والروايات والشِّعر والمسرحيات، إضافة إلى المقالات والدراسات والمترجَمات والسيرة الذاتية، إلّا أنّه كُتِب مِن المغبونين الذين نالوا أقلّ ممّا يستحقّون.

ذاق اليُتمَ بعد أن رحل أبوه وهو دون الحلُم (١٨٩٩م)، وكابد الفقرَ بعد أن بدّد أخوه الأكبر ثروتَهم، ثمّ تاق لدراسة الطبّ؛ ولكنّ حسّه الرهيف خذله حين لم يقْوَ على مرأى الجثث الممَدَّدة في قاعات التشريح، ومال إلى دراسة الحقوق التي كانت طريق المجد آنذاك؛ ولكن فقره أبى عليه ذلك، فكان أن حطَّ رحاله في مدرسة المعلِّمين العليا التي تخرَّج فيها عام ١٩٠٩م. ألَمَّ باللغة الفرنسيّة، وأتقن الإنجليزية كأبنائها؛ فمكَّنتْه من التوغّل في مطالعة الأدب الغربي، وفتحَت له الباب ليترجم من الأدب الإنجليزي إلى العربي، وجاءت ترجمته أمينة ومتقَنة، حتى وصفها العقّاد بقوله: «لم أعرف فيما عرفت من مترجَمات، أديبا واحدًا يفوق المازني في الترجمة من لغة إلى لغة، شعرا ونثرا».

ومن الجميل أنه كفانا نَصَب البحث والتنقيب في حياته، إذْ لم يدَع لأحد بعده أن يترجم له، فنثر خبايا نفسه حرفا حرفا ضمن كتبه (قصة حياة) و (قبض الريح) و (إبراهيم الثاني) و (أحاديث المازني) وغيرها، حتى أضحى

كتابا مفتوحًا وبيتا من زجاج؛ وفيها ذكَر أنّه عرف طريق القراءة وهو في المرحلة الثانوية؛ فطالع الأدب الجاهلي والأموي والعباسي، وغاص في كُتب ابن الرومي والمتنبي والمعرّي والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني، وحفظ كتاب الكامل للمبرِّد عن ظهْر قلب![1] وروَى أنّ مدرسة المعلِّمين كانت تنقده بضع جنيهات شهريا، فيقتسمها نصفا يدفعه لأمِّه ونصفا يبتاع به كتبا تكفيه الشهر، وعندما تُعاتبُه معشوقتُه الأولى (أمّه)، يقول: «يا أمّي..لكِ مؤونتك من السمن والعسل والأرز والبصل والفلفل والثوم، ولي مؤونتي من المتنبي والشريف الرضي والأغاني وهازليت وتاكري وديكنز وماكولي، ولا غِنى بك عن سمْنك وبصلك ولا غنى لي عن هؤلاء».

وعن طقوسه القرائيّة؛ ذكر أنّه لا يطلب طقوسا خاصة للدخول إلى عالم القراءة، فيقرأ في كل مكان ولو كان حمّاما بغير ماء، ويجد كل الأوقات صالحة للقراءة، ولا يدوّن في كتبه ملاحظات أو يضع علامات، وكعادته في الظرف والتفكّه يقول: «ما أظنّ إلّا أن الله جلت قدرته قد خلقني على طراز عربات

(١) الحقيقة أنّي تعجّبت كثيرًا لحفظ المازني كتاب الكامل بأجزائه الأربعة، ولكن زال عجبي حين قرأتُ أن الشيخ عبد العزيز بن باز كان يحفظ صحيحي البخاري ومسلم!

الرشّ، فما إن أحسّ الفراغ في رأسي، حتى أسرع إلى الكتب، فألتهم ما فيها وأحشو بها دماغي، حتى إذا شعرت بالكظّة وضايقني الامتلاء، رفعتُ يدي عن ألوان هذا الغذاء، وقمتُ متثاقلا متثائبا مشفقا من التخمة، فلا ينجيني إلّا أن أفتح الثقوب وأسحّ (يقصد بالسحّ الكتابة)».

وقد عاش للكتاب واعتاض به عن مباهج الدنيا ومُتعها وأهلها؛ مستفيدا من ميله للعزلة، ومنفِّذا لنصيحة معلِّميه، وموفِّيا حقَّ معدته العقلية التي اجترّ بها الكتب اجترار الخراف على حدّ وصفه الساخر.. فذكر -ضمن ما ذكر- أنه كان يشتري ديوان الشعر ورقا بغير غلاف أو تجليد؛ ليتسنَّى له حمل المَلْزمة منه أو المَلزمتيْن حين يخرج من البيت، فيقرأ فيهما وهو جالس في مقهى أو حين يتمشَّى على شاطئ النيل. كما كانت الكُتب موضع حديثه وسبب اجتماعه وعماد رسائله إلى أصحابه، حتى ذكَر أنه لم يَفرغ من الدراسة إلّا وقد عرف أمّات الكتب في الأدبيْن العربي والإنجليزي وغيرهما من الآداب، وتكوَّن لديه مكتبته الخاصة التي انتقاها على عينه، وأهداها قبيْل وفاته إلى كلية الآداب جامعة القاهرة.

وبطرافته المعهودة؛ يَحكِي أنه وفي ثاني أيام زواجه، غلبه الشوق للكتاب؛ فتسلّل إلى مكتبته وأغلق عليه بابه، غير مبال بعروس ولا مهنِّئين، وعندما قِيل

له: أهذا وقت الكُتب؟! قال: «كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار وقت كُتب، وكلّ محاولة لصرفي عن الكُتب عبث»، وهو ما فقهتْه زوجته وعزفت على نغمه؛ فكانت إذا أرادت منه شيئا، انتظرت حتى يغرق في كتبه، ثمّ تسأله طلبها؛ لِعلمها أنّه سيوافق سريعا على سبيل التخلُّص لا على سبيل الاقتناع، وإن كانت بقيت إلى آخر أيام حياتها تُكرِّر على مسامعه: «ليس لي ضُرّة سوى هذه الكتب». وهي في ذلك صدى لِما رُوي أنّ الإمام الزهري كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله، وانشغل بها عمّا سواها من أمور الدنيا، ممّا أثار حفيظة زوجته، فقالت له يومًا: والله لهذه الكُتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر.

ومِن أعجب ما روَى؛ أنّه وفي ساعة متأخّرة من إحدى الليالي، أحسّ بجلبة وحركة عند باب البيت، ولمّا ذهب يستطلع الأمر، إذْ بأحد قاطني الحي يعبث بالباب، فرحَّب به واستضافه في قاعة المكتبة وقدّم له واجب الضيافة، فاستحى الرجل من لطفه وتواضعه ودماثة خلقه، واعترف أنّه نما إلى علمه- كذبا-أنّ بالبيت مبلغًا كبيرًا من المال فرام سرقته، وإذْ بالمازني[١] يضحك مِلء

(١) إذا كان نسب العقاد يعود إلى صنعة جدّه، فإنّ لقب المازني يعود إلى أصل مقرّ عائلته؛ وهو قرية كوم مازن التابعة لمركز تلا بمحافظة المنوفية، والتي تعود جذورها إلى أشهر القبائل الحجازية وهي قبيلة بني مازن.

جسده النحيل القصير، وينتقي باقة من كُتبه ويُهديها إلى الرجل! إذْ لا يَعلم السارق المسكين أنّ المازني ممَّن نقمت عليهم الدنيا وأدارت له ظهرَها، فعاش ومات في شقّته المتواضعة بحي العباسية، وكان مفلوكًا كبيرًا كهؤلاء الذين ألّف فيهم (الدّلجي) كتابه (الفلاكة والمفلوكون)، وبقي عضوًا مؤسِّسًا في منظومة الفكر والفقر التي خصَّت الشرق دون الغرب، فلم يخلِّف لذريّته بعد رحيله درهما ولا دينارا، حتى توسّط (طه حسين) إبّان توليه وزارة المعارف، وأقرّ لهم راتبا يعتاشون منه. وربّما في ذلك سرّ نقمته على الدنيا، التي تَمنّى أن يشمت فيها بقوله: كنت أشتهي أن أكون آخِر مَن في الدنيا لأشهد مصرعها بعيني؟! وهو ما لم ينله بالطبع؛ إذْ صرعتْه الأقدار في ذات الشهر الذي وُلد فيه (أغسطس)، بعدما توقفت كُليتُه عن العمل وانتشرت البولينا السامّة في دمه.

١٤- علي الطنطاوي (١٩٠٩-١٩٩٩م)

لم يكن كثيرًا علَى الطنطاوي أن يلقِّبه مريدُوه ومحبُّوه بفقيه الأدباء وأديب الفقهاء؛ إذْ عرفتْه أروقةُ المحاكم قاضيا، وأَلِفه القرّاءُ في شتى الأرض أديبا، وشهدتْه أعواد المنابر خطيبا وفقيها. كما سطَّرته المدارسُ والجامعاتُ على جبين طلّابها معلّما متميّزا؛ سلك بهم مسلك الشيخ مع المريد، فغذّي عقولَهم بالعلم وروحَهم باليقين وسلوكَهم بالقدوة. ومع أنه دارس للحقوق في جامعة دمشق؛ فقد اشتغل بالصحافة التي نشرَت له وهو بعد في السابعة عشرة مِن عمره، وكانت المهنة الأحبّ إلى قلبه والأثيرة إلى نفسه، ثمّ عمل بالتدريس في شتى مستوياته (ابتدائي-إعدادي-ثانوي-جامعي) حتى ملأ عليه حياته كلّها

على حدّ تعبيره، واقتعد كرسي الفتوى خاصة خلال الفترة التي استقرّ فيها بأمّ القرى (مكّة)، فكان حارسا أمينا على ثغْر الحلال والحرام. وقد أفاده الاشتغال بالقضاء في الوقوف على مشكلات المجتمع والاقتراب من النفس البشرية في معاناتها وتقلُّباتها، وأفاده العمل بالتدريس في وضع المفاهيم التربوية التي تبنّاها على أرض الواقع، بينما استفاد الأدب من كلّ ذلك؛ فكان بوتقة لصهر تلك التجارب التي مرّ بها، ووعاء لاعتصار الأسفار التي ارتحل فيها بين سورية والعراق ولبنان ومصر والحجاز.

ومع أنّ له صولات وجولات في ميدان الإعلام المسموع والمرئيّ، حتى لَيحسب نفسه مِن أقدم المُذيعين في العالم العربي؛ إلّا أنّ رحلته مع الكِتاب استحوذَت على نصيب الأسد مِن عمره المديد (٩٠ عاما)؛ وأثمرت ٣٣ مؤلَّفا؛ تَوزَّعت في مجالات الأدب مثل (هتاف المجد) و(مع الناس)، والتاريخ مثل (أخبار عمر) و (أعلام التاريخ)، والدِّين مثل (فصول إسلامية) و (فتاوى علي الطنطاوي)، والسيرة الذاتية مثل (من حديث النفس) و (ذكريات علي الطنطاوي)، وقد لاقَت رواجا واسعا في حينها، ولا زال صداها يتردّد بقوّة

في جنَبات المكتبات العربية والإسلامية إلى اليوم. وهي ما كانت حصيلة قراءة طويلة ودَؤوبة باللغتيْن العربية والفرنسية، وحكى عنها في مقدمة كتابه (رجال من التاريخ) فقال: «أنا مدمن للقراءة؛ يومي كلّه -إلّا ساعات العمل- أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب»، ثمّ أكّد على ذلك في مذكّراته التي خطَّها بنانُه في ثمانية أجزاء قائلًا: «لقد قرأتُ في سنوات عُمري الأولى كتبا لا أكون مبالِغا إن قلتُ إنّ في الأساتذة اليوم مَن لم يقرأها، ذلك أنّي كنتُ أمضي وقتي كلّه إلّا ساعات المدرسة في الدار، ولا أعرف اللهو، فلم يَكن أمامي إلّا المطالعة، وأنا اليوم في كِبري أنا الأمْس في صغري، أقرأ بمعدل ١٠٠ صفحة يوميا، وربّما قرأتُ ٣٠٠ صفحة»، وأضاف: «طلبتُ المجد الأدبي، وكنتُ أرجو أن أكون كاتبا يمشي بأثره البريد؛ فسعيتُ له سعيه، وأذهبتُ في المطالعة حدّة بصري، وملأتُ لها ساعات عمري». أمّا عن مكتبته؛ فقد ذكَر أنه ليس من المولَعين بجمع الكتب ورصّها في الخزائن ليزهو ويفتخر بكثرتها، بل لا يقتني مِن الكتب إلّا ما يحتاج إليه، وما يرجو من ورائه النفع والمتعة في قراءته.

كما كتبَت عن ذلك حفيدتُه (عابدة) التي رافقتْه ثلاثين عامًا (بدأَت مِن

ولادتها عند بلوغه سنّ الستين، إلى وفاته في سنّ التسعين) فقالت: «كان يفتح ويتصفّح كلّ كتاب تصل إليه يدُه، فإن أَعجبه أتمّ قراءته وإن لم يعجبْه تركه إلى سواه. والقراءة أكثر عمل يصرف فيه وقته، فربّما قرأ في اليوم الواحد ثماني ساعات أو تسعا أو أكثر من ذلك، ويقرأ في كل موضوع، من الأدب إلى الفقه إلى التراجم والتاريخ والطب والعلوم العامة وسواها، ويقرأ من الجرائد اليومية سبعا تصله إلى البيت كل يوم فلا يغيب عنه شيء مما يُنقل من أخبار الدنيا. وهو في القراءة سريع غاية السرعة، حتى ليحيط بمحتوى الورقة في لمحة ويدرك الموضع من نظرة». ثمّ عرجَت على شغفه بالكتاب وتَعلُّقه الشديد به، حتى لَيذهب قلبُه معه حين يُعِيره، فقالت: «فقد كان لا يسمح بخروج الكتاب خارج بيته إلّا بظروف استثنائية، وبإذن رسمي، مُشترِطا مدّة محددة غير طويلة لإعادة الكتاب إليه، ضنًّا به وخوفًا عليه، ثمّ هو يسأل المُستعيرَ عنه كلّما قابلَه أو هاتفَه حتى يقول: ليتني لم أستعِر كتابا من الشيخ، ولعله لا يعود إلى طلب كتاب بعدها».

ولأنَّ الإنسان ابن بيئته وثمر شجرتها، والمرْء إنْ شابَه أباه ما ظلَم؛ فقد قبس الطنطاوي العِلمَ من أبيه، الذي وصفه في ذكرياته بأنه كان مِن صدور

الفقهاء والطبقة الأولى في المعلِّمين والمُربِّين، وتحدّث عنه باعتباره أوَّل مَن فتح عيونه على طلب العِلم وحُبّ الكتاب قائلًا: «كنت منذ وعيْت أجد-إذا أصبحْت- مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثمّ صار أبي يأمرني أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءا من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفتُ بعض أسماء الكتب». كما تلقّى العلم على أيدي علماء عصره بناء على نصيحة والده، وذلك بالجامع الأموي الذي كان جامعة تغصّ بحلقات العِلم وأفواج المتعلِّمين، وفي ذلك ذكر أنّ القراءة تجبّ ما سواها من التعليم بنوعيْه القديم والحديث، فقال: «مشيتُ في دراستي من أوّل يوم في طريقتيْن معا؛ طريقة المشايخ، وهي على الأسلوب الأزهري القديم. وطريقة المدارس النظامية التي سلكتُها مِن أدنى الابتدائية إلى أعلى الجامعة. وأخذتُ من الاثنتيْن خير ما وجدتُه فيهما، ولكن الذي كان أجدى عليّ وأنفع منهما، أو هو في النفع مثلهما، المطالعة».

وقد أدرك الرجل أنَّ الأديب فقرة من فقار ظهر المجتمع، وآمن بأنّ الأدب لسان حال الواقع ومرآته؛ فلم يجلس في برج عاجي، ولم يسْبح بقارئه

في الأساطير أو يحلّق به في الخيالات والأوهام، بل عكف في أطروحاته على تعاملات الناس في الطرقات والأسواق، وعلى أحوال التعليم والسياسة، وعلى أمراض النفوس وشوائب الأخلاق، فنبّه على المعوج وأرشد إلى القويم، وازنا بميزان الشرع ومحكّما آلة المنطق والعقل، وذلك في أسلوب سهل لين؛ لا يخلو مِن الظرف والطرافة، ولا يفتقر إلى الجرأة والشجاعة. وجدير بالذكر، أنّ لقب (الطنطاوي) يعود إلى مدينة طنطا المصرية، التي رحل منها الجدّ في منتصف القرن التاسع عشر (١٨٣٨م)، واستقرّ في دمشق.

١٥- أبو الحسن النّدْوي (١٩١٤-١٩٩٩م)

قامة في سماء الدعوة والتربية، وقيمة في ميزان الإصلاح والجهاد؛ أنار بعلمه شبه القارة الهندية التي تبعثرت إلى دول ثلاث هي الهند وبنجلاديش وباكستان، وعمّ نورُه ديارَ المسلمين في الشرق والغرب على حدّ سواء. وُصف بأنه إمام ربّاني إسلامي قرآني محمّدي، وذُكر أنه الأعجميُّ الأَعْربُ مِن كثيرٍ مِن فصحاء العرب اليوم، وقِيل إنه هندي حجازي عربي عالمي. تقلَّد المناصب القيادية في الحقل الإسلامي؛ فانتُخب أمينًا عامًا لندوة العلماء في الهند، واختير عضوا في مجامع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن، وتولّى رئاسة رابطة الأدب الإسلامي العالميّة، عدا عن عضويته في كثير من الهيئات والمنظمات الإسلامية

الأخرى. وقد نال الأوسمة والشهادات الفخريّة؛ فتحصَّل على جائزة الملك فيصل العالمية في خدمة الإسلام عام ١٩٨٠م، ومُنح جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم على إثر اختياره الشخصية الإسلامية الأولى لعام ١٤١٩هـ. ولهذا كلّه -وأكثر- نُصِّب مُجدِّدا للدِّين على رأس القرن الخامس عشر الهجري، واعتلى بذلك ذات المنصة التي وطأها الخليفة عمر بن عبد العزيز باعتباره مجدِّد المائة الأولى، والإمام الشافعي بحسبانه مجدّد المائة الثانية.

وُلد في قرية (تكية) من القرى الهندية الشمالية، ونشأ يتيما في أسرة عربيّة الأرومة عريقة النسب كريمة الشمائل؛ إذْ ارتحل أجدادُه من الحجاز إلى الهند قبل ثمانية قرون (مطلع القرن السابع الهجري)، وعُرف عنهم الاشتغال بالعِلم والالتزام بالدِّين كابرا عن كابر، فكان شبلًا مِن أسد وخير خلَف لخير سلَف. وفي الوقت الذي انشغل أقرانُه باللهو واللعب؛ كان يجلس بين يدي أخيه الأكبر (عبد العلي الحسني) الذي تولّى تربيته وتثقيفه، وذلك عبر برنامج قِرائي، ارتكز على كتب السيرة النبوية، والتي كان لها الأثر الأكبر في تنشئته على الإيمان الراسخ والعقيدة السليمة والخُلُق الحَسَن. وقد كانت أمّه -على غير نساء عصرها-

حافظة قارئة شاعرة؛ فعوّضت غياب الأب، وأضافت لبنات من ذهب في بنيانه النفسي والروحي والفكري، وعنها حكَى -رحمه الله- أنه وهو في العاشرة من عمره، وقع بصرُه على كتاب في السيرة عنوانه (رحمة للعالمين)، فأَرسل في طلبه، ولمّا جاء ساعي البريد بالكتاب، وكان لا يملك ثمنه، توسَّل إلى والدته بالبكاء والدموع لِتدبِّر له ثمنَ الكتاب، رغم علمه بضيق ذات اليد. ثمّ يقول بعد أن شفعت له أمّه وابْتاعت له الكتاب: «بدأتُ أقرأ الكتاب، وبدأ الكتابُ يهزّ قلبي، وبدأ قلبي يهتزّ له ويطرب، كما بدأَت نفسي تتجاوب مع الكتاب وتستسيغه، كأنّما كانت منه على موعد، وشعرتُ بلذّة غريبة، لذّة أعرف طعمها ولا أستطيع وصفها، إنها لذّة الروح».

وفي سياق رحلته العلمية الطويلة؛ التحق بجامعة لكهنؤ وتعلّم فيها آداب اللغة العربية، ثمّ درس وتخرَّج في دار العلوم بندوة العلماء، ومنها حاز لقب النّدْوي الذي لا يمتّ لنسَب الرحِم والدم بصلة؛ فكلّ مَن تَخرّج في الندوة خُلع عليه هذا اللقب، مِن قَبيل الشرف، وللدلالة على حمْل شهادتها العلميّة.

كما تتلْمذ على أيدي الشيوخ والعلماء في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة

والأدب، وارْتحل في طلب العِلم إلى بلاد العالم العربي والعالم الإسلامي وأوروبا وأمريكا، وذلك على عادة الراسخين في العِلم مِن المتقدِّمين. وتَعلّم العديد من اللغات؛ فدانت له الهندية والأُردية والفارسية والإنجليزية، إضافة إلى اللغة العربية التي أتقنها قراءة وحديثًا وكتابة، وحكى عن مطالعاته الغزيرة بها قائلًا: «كنتُ متصلا بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي، وكنتُ نهما لكلّ ما تنشره المطابع وتصدره المكتبات في مصر، وكنتُ ملتزما بمطالعة (الرسالة) و (الثقافة) الأسبوعيّتيْن».

وعن علاقته بالكتب وغرامه بها؛ حكى الأستاذ أحمد الشرباصي قائلًا: «وأخي المفضال (أبو الحسن) له غرام أصيل باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها، وأعزّ ما كان يحرص عليه مِن عرَض الحياة هو الكتب، وأغلى ما يُهدى إليه كتاب يُرضيه ويُغذِّيه، ولا يَقتني أبو الحسن الكتبَ ليزيّن بها داره، بل ليهضمها قراءة وبحثًاونقدًا». أمّا الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فذكر عن نفسه أن له نهامة وشغف زائد بالكتب، وأنَّ هذه النهامة انتقلت إليه من أبويْه، حتى إنّه في صغره كان يقرأ كلّ ما يقع في يديه من مطبوع. ثمّ عدَّد الكتب التي عاش معها وتركَت

بصمات جليّة في تكوينه، ضمن كتاب له بعنوان (شخصيات وكتب)؛ فأشاد فيه بكتاب (قيام الليل) لابن نصر المروزي، و(الجواب الكافي) لابن القيّم، و(تعليم المتعلِّم) للزرنوجي، و(نزهة الخواطر) لأبيه، و(الإسلام على مفترق الطرق) لمحمد أسد؛ والذي أدرك من خلاله التناقض الجذري القائم بين الثقافتيْن الإسلامية والغربية. فضلًا عن كتب أربعة طبعت أسلوبَه بالأدب العالي الذي خلا من التكلُّف والتصنُّع، فجمع بين بلاغة اللفظ وسموّ المعنى وعمق الفكرة وأصالتها، وهي كتب كليلة ودمنة لابن المقفع، ونهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وديوان الحماسة لأبي تمّام.

وقد مرّ بظرف صحي قاس، ألمّ به بعد إجراء عملية جراحية فاشلة في عينه اليسرى، وظل طوال ثلاثة عشر عامًا يستعين بغيره في القراءة والإملاء، مع ما في ذلك من ألم نفسي لا يدركه إلّا كلّ شغوف بالقراءة والكتب، إلى أن هيأ الله له سفرة علاجية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأجرى بها جراحة ناجحة في عينه اليمنى، مكَّنته من العودة إلى مزاولة نشاطه في القراءة والكتابة دون مساعدة مِن أحد.

وبعد أنْ أتمّ أدواته العِلمية، صار شجرة مبارَكة تؤتي أكلَها كلّ حين، وتفرش ظلّها على كلّ صقع؛ فعكف على الدعوة والإصلاح، واشتغل بالتدريس والتعليم والخطابة، واجتهد في الكتابة والتأليف، وطاف بالأقطار والأمصار؛ فترك وراءه مدرسة إصلاحية تَغرف من مَعين الوسطيّة، وخلَّف في عِقبه أبناء عِلم لا صُلب؛ يلهجون بالثناء عليه، ولا يفترون عن الذكر الجميل لمآثره ومحامده. فضلًا عن كتاباته الصحفيّة، التي بدأها بمقال في مجلة المنار وعمره دون العشرين! ومصنَّفاته التي توجّه بها إلى شتى الأجيال بدءا بالأطفال والشباب، وحلّق خلالها في أكثر من فرع كأدب التراجم وأدب الرحلات والثقافة الإسلامية وغيرها، حتى بلغ مجموعُها، بترْجماتها، ما يقرب من سبعمائة عنوان، منها ١٧٧ عنوانا بالعربية. ولعلّ أشهر مؤلّفاته العربية وأحبّها إلى قلبه؛ كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؛ والذي استغرقه إعداده ثلاث سنوات، وشخَّص واقعَ الأمّة الإسلامية تشخيصا دقيقا، واستحقّ أن يقرّظه كبارُ عصره، ويسير به ركبُ طلّاب العِلم ولا زالوا إلى اليوم والساعة. ويؤشّر الكتاب -ضمن ما يؤشِّر- على مقدار الهمّ الإسلامي الذي يشتعل في

صدر الرجل، وعلى حجم المسؤولية الإصلاحية التي يحملها على عاتقه، ليس في محيطه الهندي والآسيوي فقط، بل في العالم الإسلامي أجمع، وفي ذلك نذكر قوله: «كان يوم احتلال اليهود للقدس، وزحف القوات الصهيونية إلى الضفة الشرقية للقناة، أحلك يوم في حياتي».

وربما خير ما يُوصَف به الشيخ؛ بيت الشِّعر الذي سِيق في رثائه بعدما استوفى أنفاسَه وارتقى إلى دار البقاء، فقِيل:

مُجاهدٌ مِن طرازٍ غيرِ متَّهمٍ ... ومِن الرجالِ إذا ما عاهدوا صدقوا

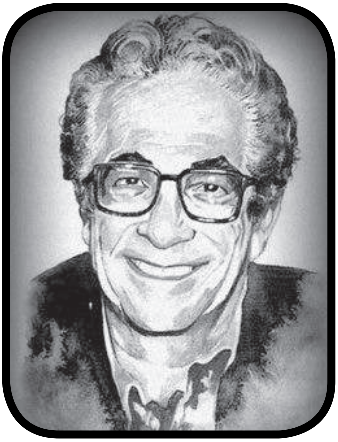

١٦- أنيس منصور (١٩٢٤-٢٠١١م)

أحد أبناء عروس النيل (المنصورة) التي أنجبت العديدَ من العمالقة[١] في العِلم والفكر والفن والدّين والأدب، وأستاذ الفلسفة الذي تزوّج الصحافة وضرب بسهم وافر في ميدان الثقافة، والساحر الذي تحوّل القلم في يده إلى أقلام واليراعة إلى فرشاة؛ فلم يترك صحيفة إلّا وقّع في كُبراها وأشهرها، بدءا بالأخبار ومرورا بالأهرام وانتهاء بأكتوبر. كما لم يدَع مجالا من مجالات الأدب إلّا كَتب في أغلبها، حتى كتب في الأساطير والنّكات، وناهزَت مؤلّفاته المائتي

(١) على سبيل المثال لا الحصر، أنجبت محافظة الدقهلية وعاصمتها المنصورة؛ الشيخ الشعراوي، والشيخ جاد الحق علي جاد الحق، والعالِم فاروق الباز، والأديب أحمد حسن الزيّات، والشاعر علي محمود طه، وعلي باشا مبارك، ومحمد حسين هيكل، وأحمد لطفي السيد، وغيرهم الكثير.

مؤلَّف، ولُقِّب بالكاتب الموسوعي وكاتب المليون قارئ. وقد عُدّ أحد مشاهير عصره؛ فنال جائزة الدولة التشجيعية في الأدب، وأهدتْه جامعة المنصورة شهادة الدكتوراه الفخرية، ومنحه التليفزيون المصري وسام الفارس الذهبي، وقرَّبتْه الدوائر السياسيّة العليا خاصة في عهد صديقه السادات. كما حظي بمكانة إقليميّة ودولية مرموقة بين عِداد المشتغِلين بالقراءة والكتابة، فحاز على جائزة الإبداع الفكري لدول العالم الثالث عام ١٩٨١م؛ وذلك لِما امتازت به كتاباتُه من تشويق يَجذبك، وشمول يُدهشك، وبساطة تأسِرك، وهذا هو عيْن الأسلوب السهل الممتنِع الذي اعترف بكلّ شفافية أنّه استقاه مِن كتابات زكي نجيب محمود وكتابات وول ديورانت؛ إذْ عُرف عنهما قدرتهما على صياغة المعاني الصعبة في أسلوب سهل جميل. وتأتي هذه السهولة مِن أنَّ القارئ حين يمرق في القراءة مروق السهم في الفضاء، نظرا لخلوّ الكتاب الذي بين يديه من غريب الألفاظ ووحْشي الكلمات، يظنّ أنه قادر على الإتيان بمثله، ولكن ما إن يُجرّب؛ حتي يمتنع القلم، فينبطح أرضا ويُسلِّم بالهزيمة.

والحقّ أنه لم يكن مبالغا حين لقَّب نفسه بدودة الكتب، وكذلك لم يكن طه

حسين عابثا حين وصفه بأنه أكبر قارئ في مصر؛ إذْ كانت الحياة في نظره ليست إلّا كتابا، وكانت القراءة اختياره الأوّل الذي قدّمه على غيره في حياته كلّها؛ فألَّف فيها كتابَه (وأنا اخترت القراءة)، وسطّر في مقدّمته: «اخترتُ القراءة الطويلة، وأَعطتْني القراءةُ ما أستحقّ، والذي أستحقّه هو أن أمضي في القراءة لَمن هم أقْدر وأحْسن، أملا في أن أقترب منهم لأكون مثلهم». كما كانت القراءة أيضًا معاناته التي صبر وثابر عليها؛ حيث جلس بين يديها طويلا، وصمت في رحابها عميقا، ونسي في جوارها الطعام والشراب والنوم والإعياء، وعن ذلك قال: «كان لا بد أن أختار: النوم، أو القراءة بالصداع والقراءة بالمغص والقراءة بالأرق.. لقد عشتُ ولم أتردّد في هذا الاختيار، فكان لي ما أردْت، وهو أن أتساقط من الإعياء بين كتاب وكتاب».

ولأنّ احتراف الأدب ليس صيدًا بلا شِباك ولا تجارة بدون رأس مال، والمقامات -كما يقول الصوفيّون- مكاسب؛ فقد أعدَّ الرجلُ للأمر عدَّته، واستعان عليه بإتقان العربية عبر حفظه للقرآن وهو في سنّ التاسعة، وبإجادته لخمس لغات أجنبية! هي الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والعبرية،

وبمكتبته العامرة التي تُعَدّ مِن أضخم المكتبات الخاصة؛ حيث ضمَّت أكثر مِن سبعين ألف كتاب في شتى الفنون والعلوم والمعارف. وكذلك بتلمذته على أيدي كبار عصره أمثال العقّاد والمازني وطه حسين، حتى وصفه إحسان عبد القدوس بأنه خليط من سارتر والعقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين. ثمّ بأسفاره التي حاكى فيها سلفه (ابن بطوطة)؛ حيث جاب البلاد شرقًا وغربًا، وكان الكتابُ رفيقه في الحلّ والترحال ولصيقه في أيام العمل والإجازات، وعنها قال: «كثيرًا ما أخذتُ معي حقائبَ امتلأت بالكتب، أقلِّب فيها مِن أوّلها لآخِرها ومِن آخِرها لأوّلها، وقد أظلّ أفعل ذلك طوال الإجازة. وقد أختار كتابًا مسجَّلًا أستمع إليه ليلًا ونهارًا حتى يطير النومُ من عيني».

وإذا كان على رأس كلّ مشوار انعطافة تؤشِّر لبداية أو تبشِّر بنهاية، وعلى جنبات كلّ طريق لوحات إرشادية بارزة تقود إلى محطة الوصول، فإنَّ انعطافته الكبرى في مشوار القراءة، كانت كتب الجيب الصغيرة التي قال عنها: «وأخطر حدث في حياتي كقارئ وحريص على أن تكون له مكتبة؛ كان ظهور كتب الجيب الصغيرة التي تطالعها قوات الاحتلال البريطاني، فقد طبعوا لهم روائع

الأدب العالمي في طبعات صغيرة، وكان يسكن إلى جواري بائع لهذه الكتب، فاشتريتُ مائة كتاب منها، أي كل الذي كان يعرضه للبيع على عربة يد، فكانت أول نواة لمكتبتي، ولا أزال أحتفظ ببعض هذه الكتب، حتى لا أنسى فرحتي بهذا الحدث الذي كان نقطة تحول في حياتي الأدبية». أمّا اللوحات الإرشادية التي قوَّت عزيمتَه وألهبت حماستَه في القراءة والمطالعة؛ فتمثَّلت في الوثيقة التي خطَّها أمين مكتبة المنصورة -محلّ مولده- ويشهد له فيها بأنه قرأ كلّ ما في المكتبة من كتب وقصص عندما كان تلميذا، وبلغ عددها ٥٩٢ كتابا. وكذلك مجموعة الكتب التي أهداها إياه وزير المعارف في العهد الملَكي، بمناسبة حصوله على المركز الأول في مسابقة الفلسفة على مستوى القطر المصري إبّان دراسته الثانوية، والتي وصفها بأنه ليس أروع منها أثرا في حياته، وربّما كانت دافعه للالتحاق بقسم الفلسفة في كلية الآداب بعد ذلك.

وحتى لا تجأر الصفحات إذا أَقدمْنا على سرْد مؤلَّفاته العديدة؛ فيكفينا الإقرار بأنّ أَقْيم ما جادت به قريحتُه في الترجمة كتاب (العظماء مائة وأعظمهم محمد) لمؤلِّفه مايكل هارت، وفي أدب الرحلات كتابه (حول العالم في ٢٠٠

يوم)، وفي التراجِم كتابه (في صالون العقاد كانت لنا أيام). وعن فلسفته في القراءة وغايته من الكتابة؛ فقد كفانا مؤونتَها حين لخّصها بقوله: «أنا مِن أكَلة الورق وشاربي الحبر، ومِن هذا الخليط الرديء نحاول أن نجعل لحياتنا معنى. ولحياة الناس أيضًا». أمّا دنياه فكانت –حسب وصفه– قبرا أنيقا اشتراه من مكتبات العالَم، وكانت ورقا في ورق؛ حدودها المكتبات، وحرّاسها باعة الصحف، وأعداؤها باعة الحمّص والسوداني الذين يلفّون بضاعتهم في الكتب.

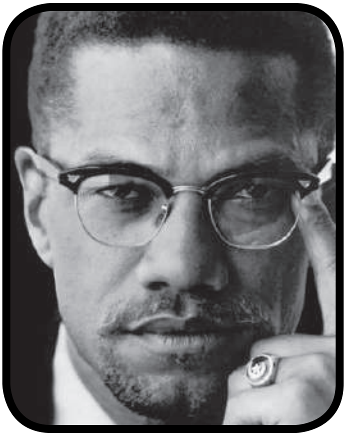

١٧- مالكوم إكس (١٩٢٥-١٩٦٥م)

زعيم المسلمين السود في أمريكا، وشاهدٌ حيّ على ما يمكن أن تفعله القراءة في انتشال صاحبها مِن الضلالة إلى الهداية ومِن الحضيض إلى القمّة، حتى لَيمكننا القول بأنّ مالكوم إكس رجل صنَعَتْه القراءة. نشأ يتيما في مدينة صناعة السيارات (ديترويت)، بعد أن وأدَت جماعة عنصرية بيضاء أباه، بينما كان يحبو في مدارج الطفولة، ولم يَظفر منها آنذاك إلّا بستة أعوام. وقد عضّ الفقر أسرتَه بأنياب ضارية؛ حتى جُنَّت أمُّه، وصارت حبيسة الأَسِرَّة البيضاء بقية حياتها. وبهذا خرج مالكوم إلى الحياة مكشوف الظهر عريان الصدر مكلوم الفؤاد منبوذ اللون والعِرق؛ فعاش محنة الزنوج في أمريكا بأدقّ تفاصيلها، وقرع سمعَه مرارا صيحاتُ البِيض له: «يا زنجي يا صدِئ»، وما كان منه إلّا أن هام

على وجهه في مقتبل حياته، وعاث طولا وعرضا، ومارس كلّ ما هو غير قانوني ولا أخلاقي؛ إذْ قامَر وأَدْمن وأَجْرم وأَلْحد، حتى إنّه -على حدّ وصفه- كان يَستهلك المخدّرات كما يَستهلك الطعام، ويَضع السلاح كما يَضع أحدُهم رابطة العنق، ويُلقَّب بالشيطان لجرأته على اقتراف المُوبقات. واستمرّ به الحالُ هكذا، إلى أن ربَتَت يدُ الهداية على قلبه؛ فأسلم وتَسمّى بمالك الشباز، وصار للدين الجديد داعية، وأسلم على يديه الكثير، حتى وصفه سفيرٌ عربي بأنه (عُمر أمريكا، في إشارة إلى الدوي الهائل لإسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وذلك لِما مثّله إسلام (مالكوم) من انتشار للدِّين بين الملايين العشرين من زنوج أمريكا، خاصة بعدما ذهب إلى مصر والتقى شيخ الأزهر والمفتي، وبعيْد رحيله إلى الديار المقدّسة لأداء فريضة الحج في عام ١٩٦٢م ولقائه بالملك فيصل وكبار العلماء والشيوخ هناك، إذْ أدرك عندها هشاشة إسلامه، ووعَى مقدار الانحراف الذي تعيشه منظمة (أمّة الإسلام) وزعيمها إليجا محمد، ووقف على مقدار بعدها عن الإسلام الصحيح الذي يحقِّق المساواة في أعلى صورها، وينتصر للإنسانية جمعاء دون تمييز بين الأعراق والألوان والأجناس.

ويمكننا القول أنّ القراءة كانت النقطة الفاصلة في مشواره؛ والمصباح

الذي استنار به عقلُه واستردَّ به وعيَه؛ وذلك عبر مكتبة السجن التي تبرّع بها أحدُ الأثرياء، وزادت كتبُها على عشرة آلاف مجلد، وزخرت بكتب التاريخ والفلسفة والأديان. وفي ذلك ربّ ضارة نافعة وربّ محنة منحة، إذْ دخل السجن سارقا، وحُكِم عليه بالسجن عشر سنوات في عام ١٩٤٦م، ولكنّه خرج منه في عام ١٩٥٢م بغير السِّحنة التي دخل بها؛ إذْ أصبح للزنوج في أمريكا رمزا وقائدا، وصار للمصلِحين في العالَم مُلهِما ومعلِّما، هذا رغم ملفه القصير في سجل الحياة، والذي بالكاد بلغ أربعة عقود، بعدما أمطره ثلاثة من الأشرار الحاقدين بست عشرة رصاصة في صدره، أثناء إلقائه محاضرة دعوية في مدينة نيويورك، وأمام أعين زوجته وأطفاله!

وقد سجَّل تلك الانعطافة الكبرى في حياته، خلال مذكّرات أَملاها على صديقِه الكاتب الأمريكي أليكس هيلي، ونُشرت بعيْد اغتياله، فراجت بشدّة في الأسواق، حتى بيع منها ملايين النسخ. وفيها ذكر أنَّ القراءة كانت مهمازه الحقيقي إلى نور الهداية فقال: «في داخل السجن كنت أعمل في المكتبة، وقد أتاح لي ذلك الفرصة للقراءة عن الإسلام، فدرستُ الحضارة الإسلامية، وقرأتُ كتبا تاريخية عن النبي محمد، ولقد تأثرت أعظم التأثر حين قرأت أن المسلمين كانوا

يكسبون المعركة تلو الأخرىٲ فقد كان هذا هو االسبب الحقيقي الذي دفعني إلى اعتناق الإسلام، لأنني أخذت أفكّر في سرّ قوة المسلمين المذهلة، وكنت أتوق لاكتشاف شيء زاخر بالقوّة والكرامة والثقة حتى وجدته في الإسلام». ثمَّ تحدث عن هداية الإسلام له بقوله: «إنني كنت أسفل سافلين في قاع المجتمع الأمريكي، حتى اهتديتُ إلى الله وإلى الإسلام، فتَغيَّر مجرى حياتي»، وقال أيضًا: «ما أعمق ما امتدّت إليّ يدُ الإسلام لترفعني! ولولاها لكنت ميتا، أو سجينا ممتلئا قسوة ومرارة، أو مجنونا في أحد المستشفيات العقلية، أو في أفضل الأحوال أسرق ما يكفي لأهلي ومخدراتي».

ثمَّ عرّج على تجربته الفريدة في القراءة؛ والتي ارتقَت به من مجرد طالب انقطَعت به سبلُ الدراسة عند المرحلة الثانوية، إلى مُحاضر جامعي ومُناظِر حقوقي ونجم إعلامي، حتي لَيحسبه سامعوه متخرِّجا في هارفارد وكامبريدج، فقال عنها: «أقبلتُ على القراءة بنهم شديد، وأصبحتُ لا أُرى إلّا وفي يدي كتاب، ولم تعُد هناك قوّة على وجه الأرض تستطيع أن تنزعني منه، وفتحَت لي القراءةُ الأبوابَ على دُنى عجيبة»، وأضاف: «انفتح لي ذلك العالم الجديد، وبدأتُ بدوري ألتهم الكتب، وأستعير فوق ما يسمح به قانون المكتبة، وأقرأ أكثره في

الزنزانة، ولكن انطفاء الضوء في العاشرة مساء كان يثير سخطي، وكان في الممرّ لحسن حظي، مصباح قريب من باب زنزانتي، فبدأتُ أجلس على البلاط وأقرأ على ضوئه بعدما تتعود عيناي على العشا الليلي، حتى إذا ما سمعتُ خطى الحارس وهو يمرّ بالزنازين، قفزتُ بسرعة إلى سريري، وتظاهرتُ بالنوم إلى أن يمرّ، فأعود مكاني وأواصل قراءتي حتى الثالثة أو الرابعة من صباح كل يوم، بحيث لم أكن أنام إلّا ثلاث أو أربع ساعات في الليلة»، وأردَف: «لقد غيَّرَت القراءةُ مجرى حياتي تغييرا جذريا، ولم أكن أهدف من ورائها كسب أي شهادات لتحسين مركزي، وإنما كنت أريد أن أحيا فكريا».

ولعلّ كلماته القليلة التي جاءت في سياق آخر مقابلة تليفزيونية له، تعبِّر عن مضمون رسالته ولبّ دعوته وسلميّة منهجه، وذلك بقوله: «أنا مسلم يؤمن بالإسلام والذي بدوره يعلِّم مبادئ الأخوة، الأخوّة بين جميع البشر، ولكن رغم إيماني بهذه الأخوة؛ فإنني لا أغصبها على أولئك الذين ليسوا على استعداد لقبولها».

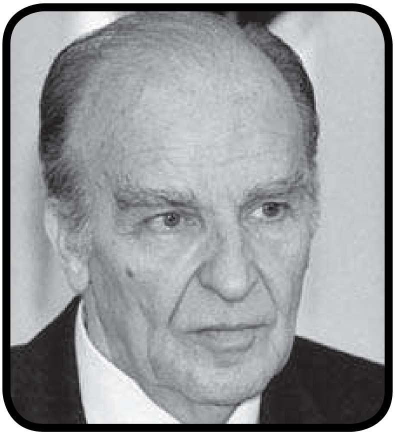

١٨-علي عزت بيجوفيتش (١٩٢٥-٢٠٠٣م)

رجل دولة جنَّد نفسه لإنقاذ أمّته من الفناء، ومفكّر وضع يدَه على جرح الروح النازف في الحضارة الماديّة، وفيلسوف عاشق للحريّة ومبشِّر بالكرامة الإنسانيّة. وصفه ابنه (بكر) بأنه بالأصل مفكّر وكاتب ولكن ساقتْه ظروف بلاده رغما عنه إلى دهاليز السياسة وسدّة الرئاسة وأتون الحرب، ولقَّبه عبد الوهاب المسيري بالمجاهد المجتهد والفارس الراهب، ورآه بعضهم نموذجا حيّا للحاكم الفيلسوف الذي حلم به أفلاطون في مشروعه للجمهورية وفي حلمه لتدبير المدينة الفاضلة. وهو ما أهّله للفوز بجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام في العام ١٩٩٣م، وجائزة شخصية العام للعالَم الإسلامي في العام

٢٠٠١م، وجائزة جلال الدين الرومي لخدمة الإسلامي من تركيا، وغيرها من الجوائز الدولية. على أنّ جائزته الكبرى تكمن في حبّه الذي سكن قلوبَ أبناء جلدته البوشناق، وفي الثناء الذي تلهج به ألسن أبناء عقيدته من المسلمين، وفي الاحترام الذي يكنّه له المنصِفون من أهل الفكر والرأي في شتى بقاع الأرض.

ولد في بلدة (بوسانا كروبا) شمالي غرب البوسنة، ونشأ نشأة ميسورة في أسرة عريقة في إسلامها، وكان لأمّه ذات الأصول التركية الدور الأكبر في توجيهه الوجهة الدينية، ولكنه في سنّ الخامسة عشرة تسرَّب الشكّ إلى إيمانه، بفعل قراءاته في الكتابات الشيوعيّة والإلحاديّة، وبتأثير الدعايّة الزاعقة للأفكار الماركسيّة الحمراء، ولكنّها لم تكن إلّا سحابة صيف سرعان ما انقشعَت في غضون عاميْن، وأيقن بعدها أنّ كونا بلا خالق ودون وجود الله كون بلا معنى، ولم يعُد إيمانه هو ذلك الدِّين الذي ورثه عن أبويه، بل أصبح دينا جديدا اعتنقه عن قناعة وفهم، فرسخ في قلبه رسوخ الجبال الرواسي. وربما لهذا علاقة بردّه على أسئلة أحد الصحفيين بخصوص قراءاته، والذي قال فيه: «كان من حسن حظي أو من سوئه -لا أدري- أنني قرأت كثيرًا جدا.. وقد تبيَّن لي فيما بعد أن

كثيرًا ممّا قرأته من كتب الفلسفة كان عديم القيمة، أو كان يمكن الاستغناء عنه بتعلّم لغة أجنبية، فذلك أجدى –مثلا– من قراءة كتب الفلسفة الهندية».

وكسائر الكبار في مسيرتهم، كان للقراءة الدور الأبرز في تشكيل وعيه وبناء فكره وتنمية مداركه، وعنها قال في مذكراته:« عندما أصبحتُ في الصفوف الثانوية، اعتمدتُ اعتمادا كبيرا على القراءة بدلا من الدراسة، حتى قرأتُ كلّ الأعمال الفلسفية الأوربية الهامّة وأنا لم أتجاوز التاسعة عشرة، ولم يعجبني (هيجل) حينها، ولكنّي غيرتُ وجهة نظري فيما بعد. أمّا الأعمال التي تركَت أثرا فيّ وانطباعا لديّ؛ فكانت كتب بيرغسون (التطور البنّاء الإبداعي)، و(نقد العقل المجرد) لكانت، وكتاب شبنجلر (انحطاط الغرب) الذي يقع في مجلدين». وقد قرأ لعمالقة الأدب الغربي أمثال شكسبير وديكنز وإبسن وبلزاك وبيكيت وتولستوي ودستوفيسكي وروسو، وكذلك هيرمان هيسة الذي وصف روايته(لعبة الكريات الزجاجية)، بأنها من أفضل الكتب التي قرأها، وإحدى الكتب الأقرب إلى أفكاره ومشاكله.

ويبدو جليّا أنّ القراءة التأملية مقدَّمة عنده ومقدَّرة؛ إذْ كتب عنها قائلًا: «القراءة المبالَغ بها لا تجعل منّا أذكياء، بعض الناس يبتلعون الكتب بدون فاصل من التفكير الضروري لكي يهضم أحدنا ويبني ويتبنّى ويفهم. وعندما يتحدّث إليك الناس يُخرجون من أفواههم قطعا من هيجل وهايدجر أو ماركس في حالة أوّلية غير مصاغة جيدا، بينما في القراءة تظلّ المساهمة الشخصية ضرورية، مثلما هو ضروري للنحلة العمل الداخلي والزمن، لكي تُحوِّل رحيق الأزهار المتجمِّع إلى عسل». ولذا فضّل قراءة القصة والرواية على مشاهدتها كمادة فيلمية؛ لأنّ القراءة تتيح المشاركة عبر بناء صورة ذهنية للأشخاص والأحداث، بينما المادة الفيلمية تعطيك الصورة جاهزة وتحرمك من الفعل الإيجابي المشارِك.

وقد درس الاقتصاد الزراعي في جامعة سراييفو لمدة ثلاثة أعوام، ثم تحوّل إلى دراسة الحقوق ليحقق حلم طفولته في أن يصبح محاميًا، قبل أن يكمل مشواره التعليمي إلى منتهاه؛ فيتحصل على شهادة الدكتوراه، ويجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية بجانب لغته الأمّ (البوسنية)، مع إلمام جيد باللغة العربية. وفي عام ١٩٤٦م اعتقلتْه السلطات اليوغوسلافية بتهمة التآمر على الشيوعية،

عبر انخراطه في أنشطة منظمة الشباب المسلم المحظورة! ومكث وراء القضبان ألف يوم وليلة، تقبَّلها برضا واعتبرها هديّة السماء لإنقاذه من القتل، فقال: «لا يَعرف المرءُ ما ينفعه وما يضرّه في الحياة، فلولا السجن الذي اعتبرناه أنا وعائلتي أمرا كارثيا، لكنت حتما قُتلت خلال العام ١٩٤٦م كما قُتل المرحوم (خالد كاتياز) الذي تولّى منصبي في المنظمة بعد اعتقالي». وقد أعادت السلطات الشيوعية كَرّة اعتقاله في عام ١٩٨٣م، ووجَّهت إليه تهما بالتخطيط لإقامة جمهورية إسلامية أصولية في قلب أوروبا! ونال على أثرها حكما قاسيا جائرا بالسجن لمدة أربعة عشر عامًا مع الأشغال الشاقة، ولكنّه قضي منها قرابة الست سنوات (٢٠٧٥ يومًا وليلة)، ثمّ أُفرج عنه في عام ١٩٨٩م بعدما ضغطت المنظمات الحقوقية وأُعِيدت محاكمتُه. وفي تلك المحاكمة الهزلية، تَرافع عن نفسه قائلًا: «أقرّ بأنّني مسلم وسوف أبقى مسلما، وأعتبر نفسي منافحا عن قضايا الإسلام في العالم، وسأبقى أعتبر نفسي كذلك حتى مماتي، لأنّ الإسلام يعني كل ما هو خير ونبيل، وهو الوعد والأمل بمستقبل أفضل للشعوب المسلمة في العالم».

بينما تمحورت محاكمتُه الثانية حول كتاب صغير ألَّفه في عام ١٩٧٠م

بعنوان (الإعلان الإسلامي)، وكان حصيلة مجموعة من المقالات نشرها في مجلة تصدرها جمعية العلماء المسلمين في يوغوسلافيا، وتُرجم إلى لغات عدّة، وفيه نبّه إلى أنّه لا شيء سوى الإسلام يستطيع إحياء القدرات الخلاقة للشعوب المسلمة، بحيث يمكنهم مرّة أخرى من لعب دور إيجابي في صنع تاريخهم. أمّا كتابه الشهير (الإسلام بين الشرق والغرب)؛ والذي تُرجم إلى لغات أجنبية عديدة، وأوضح فيه أنّ الإسلامَ طريق ثالث يجمع الدنيا إلى الدين، ويتوسّط ما بين الروحانية الكسيحة والماديّة العمياء، تماما كما هو حال الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي.. فقد نُشر عام ١٩٨٤م، بينما كان يقبع خلف القضبان يتجرّع مرارة الظلم، وهي الفترة العصيبة التي استغلها خير استغلال، فسطّر كتابه (هروبي إلى الحرية)، وتمّ تهريب مسودته خارج السجن عبر صندوق لعبة الشطرنج، ليُنشر لاحقا في عام ١٩٩٩م، ويُترجم إلى العربية في عام ٢٠٠٢م، ويُعدّ وبحقّ لوحة ثقافية وموسوعة قِيمية، تنمّ عن سعة اطلاع وعميق تأمّل ورحابة فكر.

وعلى طريقة نيلسون مانديلا في دخول القصور من بوابة السجون، وفي التحوّل -على يد الأقدار- مِن سجين إلى رئيس؛ فقد أسّس بيجوفيتش حزب العمل الديمقراطي بعد خروجه من السجن بعام واحد، وخاض من خلاله

الانتخابات الرئاسية البوسنية التي فاز بها في عام ١٩٩٠م، وليبدأ معها رحلة سياسية معقّدة وشائكة استمرت عقدا من الزمان؛ إذ اتّخذ خلالها قرار استقلال البوسنة عن يوغوسلافيا في عام ١٩٩٢م، بعدما انهارت الشيوعية، وتَفكَّك الاتحادُ اليوغوسلافي، وأعلنت كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما من جانب واحد. ثمّ واجه البربرية الصربية، التي أبت الاستقلال البوسني، فشنَّت حرب إبادة على شعب مسلم أعزل دامت ثلاثة أعوام، وأذاقته فيها ويلات الحصار والجوع والتشريد والذبح. وأدار معركة سياسية على الصعيد الإقليمي والدولي؛ أثمرت -بعد جهد جهيد- تدخّل حلف الناتو عسكريا، وإبرام اتفاق دايتون الذي وضع النهاية لحرب ليس فيها منتصر ولا مهزوم، وظفر فيه بسلام وصفه بقوله: «سلامٌ جائر خيرٌ من حرب مهلِكة». واستمرّ بيجوفيتش على رأس السلطة البوسنيّة لفترتيْن رئاسيتيْن متتاليتيْن، إلى أن اعتزل العمل السياسي مختارا في عام ٢٠٠٠م، وتفرّغ لعمله الفكري الذي تلألأت في سمائه قيم الشجاعة والتسامح والإنسانية، قبل أن تطرق يدُ القدر بابَ روحه، وتُوافيه المنيّة في عام ٢٠٠٣م عن عمر حافل ناهز الثامنة والسبعين.

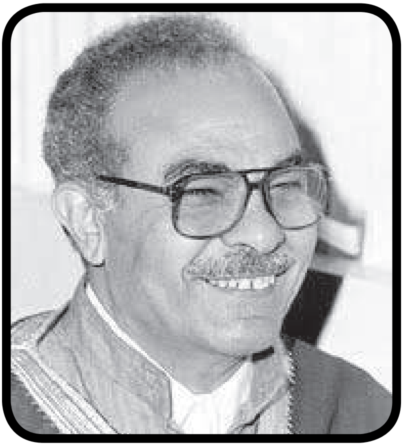

١٩-محمد عمارة (١٩٣١م-....)

كلمة طيّبة نبتَت في ريف مصر، وشجرة طيّبة ارتوت بنور الوحي؛ اقتدى والدُه بامرأة عمران[١]، فعزم قبل ولادته على تسميته محمّدا، وبيَّت النيّة على نذْره لدراسة العِلم الشريف الذي تفيض أنهاره في أروقة الأزهر جامعا وجامعة، ثمّ ذهب الوِزرُ وثبَت الأجْر بعد أن وفَّى الوالدُ بالنذْر، فاستوى النبْتُ على سوقه، وصار دوحة فكريّة مبارَكة، تُبرِز هداية السماء فتُجلِّيها أمام ناظرَي مَن جهل، وتَدحض الشبهات والأباطيل فتصفع بها وجه مَن تطاول وبغَى. ولهذا مدحه رئيس رابطة علماء المسلمين (القرضاوي) بقوله: «هو أحد مجدّدي

---

(١) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥].

القرن الخامس عشر الهجري، الذين هيأهم الله لنصرة الدين الإسلامي من خلال إجادته استخدام منهج التجديد والوسطية، ومن خلال صولاته وجولاته القوية في تعرية أعداء الإسلام». ووصفه المفكّر التونسي راشد الغنوشي بأنه كاسحة ألغام أمام الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية، ثمّ عَدَّ نفسه تلميذا من تلاميذه الكُثر، وثمرة مِن ثمار مدرسته الفكرية الإسلامية. وقد منحتْه الدولة جائزتها التشجيعية عام ١٩٧٦م عن كتابه (دراسة الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي)، بينما أهدتْه جمعية أصدقاء الكتاب في لبنان جائزتَها عن كتابه (دراسة الأعمال الكاملة لمحمد عبده) وذلك في عام ١٩٧٢م.

نشأ في أحضان أسرة زراعية متوسّطة؛ فحفظ القرآن قبل الحُلُم، ودرس في الأزهر حتى أتمّ تعليمه الثانوي، ثمّ شدّ مئزر العلم ورحل إلى قاهرة المعزّ؛ فالتحق بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، والتي تدرِّس العلوم الشرعية بأسلوب حداثي تجديدي راق له عن الأسلوب الأزهري العتيق، وفيها حصل على درجة الليسانس، ثمّ درجتي الماجستير والدكتوراه في تخصّص الفلسفة الإسلاميّة، ليطلّق عندها الوظيفة العموميّة التي اعتبرها نوعا من الرقّ وضربا

من العبوديّة، ومتخِّذا بذلك أخطر وأهمّ قراراته الحياتيّة، وهو التَفرّغ للعمل الفكري والمشروع الحضاري الذي اختطّه لنفسه بعدما لمس حاجة الأمّة الماسّة إليه، ووجد في نفسه ميلًا إلى الانشغال به؛ وهو المشروع الذي عبّر عنه من خلال مقالاته[١] في الجرائد والمجلات، وإسهاماته في التأليف والتحقيق، ومشاركاته في شتى وسائل الإعلام ومنابر الدعوة، وعضويّته في مجمع البحوث الإسلامية، ورئاسته لتحرير مجلة الأزهر على مدار أربع سنوات. وفي هذا كلّه، كان متبنِّيا لقضايا الحريّة والعدل الاجتماعي، وناهِجا نهج التجديد والنهضة والإحياء، وعلى تماسّ مباشر مع القضايا الوطنية والتحديّات العالمية، ومترصّدا للشبهات العلمانية والدعوات التنصيريّة واللادينيّة.

وبالطبع كانت القراءة زاده وراحلته في هذا المشوار الثري، بدءا بالتوجيه الذي تلقّاه على يد شيخه في المرحلة الابتدائية[٢]بضرورة اللجوء إلى القراءة

(١) نَشَر أولَ مقالة له وهو في سن السابعة عشرة، وكانت عن القضية الفلسطينية بعنوان(جهاد)!

(٢) كان الأزهر في زمانه، لا يقبل الطالب في المرحلة الابتدائية، إلّا بعد أن يتمّ اثني عشر عامًا؛ ليتيح أمامه المجال لحفظ القرآن كاملا قبل الدخول، ولكنه لم يكن يقبل مَن يتجاوز الثامنة عشرة. وقد التحق به الشيخ في سن الرابعة عشرة، ودرس الابتدائية أربعا، ثم الثانوية خمسا، على نظام الأزهر آنذاك.

الحرّة، ومِن ثمّ إقدامه على اقتناء باكورة كتبه، وهو كتاب النظرات للأديب الأريب مصطفى لطفي المنفلوطي. مرورا بتلك الغنيمة الباردة التي هبطت عليه في الزمان والمكان المناسبيْن؛ وذلك حين جادت عليه السماء بمكتبة عامرة قوامها أربعة آلاف كتاب، خلَّفها أحد شيوخ قريته بعد وفاته، وكيف أنه تقبَّلها قبولا حسنا، واشتراها مِن الورثة بأربعين جنيها نقَدَها لهم على دفعات بنظام التقسيط المريح، ثمّ اتّخذ منها قاعدة للبناء الفكري ومحطة للتكوين الثقافي، نظرا لما احتوتْه مِن أمّهات كتب التراث في الفقه والتصوّف، وذخائر الأدب العربي نظما ونثرا، والمترجَمات الغربية في الأدب والعلم، إضافة إلى كبريات المجلات العريقة مثل الرسالة والأزهر والعروة الوثقى. وفي هذا يَذكر أنه كان يجلس تحت شجرة الجميز القريبة من منزله، فيقرأ ويقرأ حتى تتداخل الكلمات وتتراقص السطور أمام ناظريْه، فيغمضهما، ويَعمَد إلى إراحتهما نزرًا يسيرًا، ثمّ يقبض من جديد على الشغف والنّهم، ويواصل إبحاره في محيط القراءة والاطّلاع!

وفي هذا أيضًا يَذكر أنه كان دائم الاطلاع في شبابه على جريدة المصري، وكان مَعنيّا بالباب الذي يُنوِّه بإصدارات الكتب الحديثة، ليتخيّر من بين تلك

الإصدارات ما يُريد، و يبادر بطلبها عبر البريد. ويضيف أنّه كان على موعد دائم مع معارض الكتب السنويّة، فيدّخر لها المال ويعدّ لأجْلها القوائم، ثمّ يبكِّر يوميا إلى مقرّ المعرض، ويعود بحمل بعير من الكتب. ويَروي أنه عندما باشر العمل السياسي في بداية الخمسينيات، تردّد في الاختيار بين الدخول في حزب مصر الفتاة أو الالتحاق بجماعة الإخوان المسلمين، ولكن الذي رجّح كفّة مصر الفتاة، أنّه لمس في طلاب الإخوان ضيق الأفق، لأنّ قراءتهم قاصرة على كتب بعينها، بينما هو عاشق للفكر والثقافة، ويقرأ في كلّ الألوان، ويرفض تضييق نطاق الفكر والتثقيف.. وكأني به يحذو حذو الرافعي والعقاد في السير على طريقة الجاحظ الذي لا يستثني، وينصح بقراءة كلّ ما تطاله اليد وتقع عليه العين.

وكما قرأ أمّهات الكتب وصاغ من رحيقها شهدا، فقد قرأ القامات من البشر باعتبارهم كتبا مفتوحة وأفكارا تسير على قدميْن، ثمّ اقتفى أثرهم ونهج نهجهم؛ فنراه قد نهل من كبرياء العقاد، وعصاميّة طه حسين، وإصلاحيّة محمد عبده، وروحانيّة الغزالي.

ولقد ناله ما نال غيرَه من طلّاب المجْد ودعاة الحريّة؛ فاعتقله النظام

الناصري لمدة خمس سنوات ونصف إبّان دراسته الجامعية (١٩٥٩-١٩٦٤م)، وتأخّر بذلك تخرّجه الجامعي سبع سنوات طوال. وبرغم ما تعرّض له في حبسه من سلب الحرية وامتهان الكرامة، إلّا أنها كانت فترة خصبة أحياها بالقراءة والتأمّل، ووقف من خلالها على أكذوبة اليسار الذي انتمى إليه وبُهر بشعاراته الجذّابة والبرّاقة ردحا من الزمن، ومِن ثَمّ بدأ توجهّه الإسلامي الذي عُرف به وبرز فيه وأخلص له بقيّة عمره، وفيه اختار أن يكون مستقلا؛ يمدّ يده لجميع الحركات والجماعات العاملة في الساحة الإسلامية، دون أن ينتمي تنظيميا لأيّ منها، فكان طيرا حرّا لا يُحجِّر الواسع ولا يقيِّد المطلَق.

ولأنّ الزارعَ لا بد يومًا حاصد؛ فقد أثمر هذا التفرّغ الذي اختاره وتلك العزلة التي فرضها على نفسه، كمًّا كبيرا من المؤلَّفات التي ناهزت المائتيْن وأربعين مؤلّفا، بين كتاب وكتيِّب، وتُرجم بعضُها إلى اللغات الإنجليزية والإسبانية والروسية والكردية؛ بدأها في عام ١٩٥٨م بكتابه عن القومية العربية وهو مازال طالبا في الجامعة، وسطّر منها أربعة داخل محبسه. وقد اهتمّ في جلّ تلك المؤلَّفات بقضايا الفكر الإسلامي قديمه وحديثه، وصاغ من خلالها

مشروعًا حضاريًا إسلاميًا وسطيًا جامعًا، وردّ بها على مشاريع التغريب التي علا صوتها وكثر دُعاتها، كما تَرجم فيها لثلّة من روّاد النهضة أمثال الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي والغزالي، ولعلّ أبرز كتبه؛ كتاب (الصحوة الإسلامية والتحدِّي الحضاري) و (الإسلام وحقوق الإنسان) و (المعتزلة وأصول الحكم) و (تيارات الفكر الإسلامي) و (الإسلام والمستقبل)

٢٠- ألبرتو مانغويل (١٩٤٨م-....)

أرجنتيني المولد، كندي الجنسية، فرنسي الإقامة، عالمي الشهرة؛ لا يَأتي ذكر القراءة والكُتب والمكتبات إلّا ذُكر اسمُه، حتى استحقّ لقب (الرجل المكتبة)، وصار جديرا بتسميته جاحظ الغرب. رأى في القراءة وظيفة حياتيّة أساسيّة مثل التنفّس، فبادر بعد أن تَعلَّم فكّ رموز الحرف وطلاسمه، بقراءة كلّ ما وقع في يده مِن كُتب، وعناوين، وإعلانات، وجرائد مهترئة ملقاة تحت المصاطب في الحدائق العامة، حتى إنّه كان يتلصّص على الركّاب في حافلات النقل؛ فيسترق النظر، ويُحاول معرفة ما يقرؤونه!

بدأ مشواره القرائي وهو دون العاميْن! حيث دأبت المربيّة على أن تقرأ له، بينما هو يستمع حتى يغلبه النوم. ثمّ استعاض بالكتب عن لهو الطفولة ومغامراتها البريئة، واتّخذ مِنها أنيسا لعزلته، وهو ما سطَّره في كتابه (تاريخ القراءة) والذي

استغرق سبع سنوات في تأليفه وجاء في قرابة أربعمائة صفحة قائلًا: «أعطتْني القراءة عذرا مقبولا لعزلتي، وكان مكان القراءة المفضّل لدي هو أرضيّة غرفتي الصغيرة، حيث كنت أستلقي على بطني وقد ركزت قدميّ الصغيرتين في أحد الكراسي، ثمّ سرعان ما أصبح السرير أأمن الأماكن لمغامراتي الليلية خلال الفترة الضبابية التي كنت أتأرجح خلالها بين اليقظة والخضوع لسلطان النوم. ولا أستطيع أن أتذكر أبدا أنني كنت وحيدا في لحظة من اللحظات، على العكس تماما، فإنّ ألعاب وأحاديث الأطفال الذين ما كنت ألقاهم إلّا نادرا، وجدتها أقلّ إثارة بكثير من المغامرات والأحاديث التي كنت أعيشها في كتبي».

وفي الوقت الذي كان يحلم أقرانُه في سنِّ الفتوّة، بأن يكونوا خبراء في مجالات الهندسة والقانون ومغاوير في عالم المال والسياسة، كان أقصى أمله وحلم حياته؛ أن يصبح أمين مكتبة؛ لكي يمارس متعته الغامرة في العيْش وسط أكداس الكتب، والتي يحلو له أن يَفتتن بها ويحلّق معها ويَفقد فيها نفسَه، واثقا بأنها ستقوده إلى غاياته وأهدافه الموعودة، هذا على العكس من المدارس والمعاهد التي يَأسف لكوْنها صارت معسكرات تدريب لعمّال حرفيين، دون أن تكون

منتديات للتساؤل والنقاش؛ فتحضّ على التفكير البنّاء للذهن والتمرين الحرّ للخيال، وتصبح حواضن للشغوفين الفضوليين الذين سمّاهم فرنسيس بيكون تجّار النور.. وربما كان هذا الأسف وراء عزوفه عن إكمال دراسته الجامعية.

ولأنَّ الحياة كريمة مع كلِّ جادّ وأمينة تجاه كلّ مخلص؛ فقد حقّق مانغويل حلمَه، عندما عمل في إحدى المكتبات الكبرى بالعاصمة الأرجنتينية (بيونس أيريس) وهو بعد في سن السادسة عشرة، وتولى رئاسة المكتبة الوطنية الأرجنتينية لاحقا. ثمّ حققّه مرّة أخرى ولكن على نحو مغاير؛ إذْ قضى نصف قرن يجمع الكتب، وكوّن مكتبة تمدّدَت كالأخطبوط يومًا بعد يومًا، ووصل عددها إلى نحو أربعين ألف كتاب، وصارت من أكبر المكتبات الشخصية في أوروبا والعالَم، حتى تماهت حدودها الضبابية مع البيت نفسه، إلى حدّ أنّ أطفاله كانوا يتندّرون بقولهم أنهم بحاجة لبطاقة دخول مكتبة إذا أرادوا دخول بيتهم. وهي ما التصق بها تماما وتبتّل في محرابها حين بلغ السادسة والخمسين من عمره، ثمّ طفق يحرث كتبَها حرثا ويذْرعها ذرْعا، مفضّلا ساعات الصمت الكثيف في الليل، حتى قدَّمَت له وبكرم لا منتهَى له، كلّ أنواع الإشراقات، دون أن تسأل شيئا بالمقابل؛ فالمعارف التي تتضمّنها الكُتب والمكتبات -على حدّ قوله-

تفوق معارفَ صاحبها أضعافا مضاعفة، وإنّه لَكرم حاتميٌّ مِن الكتب أن تقبل بمجالسة مَن هم أقلّ منها معرفة ودونها علما مِن القرّاء.

ليس هذا فقط مشواره القِرائي؛ فقد وقع في الأسْر السعيد بملازمته للشاعر الأرجنتيني الكفيف (خورخي لويس بورخيس) لمدة أربع سنوات (١٩٦٤-١٩٦٨م)، كان فيها لسانه القارئ وقلمه الكاتب، قابضا بذلك على فرصة ذهبية اتخذ فيها مِن بورخيس معلِّما وموجِّها، ومستفيدا مِن فحوى الكتب التي أَقرأها إيّاه، خاصة أنّ بورخيس كان آنذاك كاتبا وشاعرا مشهورا، فضلًا عن كوْنه قارئا استثنائيا قضى عمره جاثما بالقرب من رفوف الكتب ومنقِّبا بين صفحاتها، حتى لَيصف الفردوس بأنّه ليس إلّا غرفة كبيرة مليئة بالكتب، ويرى أنّ القارئ أسعد حالا من الكاتب، ويصرِّح بأنّ الآخَرين يفخرون بما كتبوا ولكنّه يفخر بما قرأ. وهو ما اختزنه مانغويل في ذاكرته، ثمّ سجّله لاحقا في كتاب عنوانه «مع بورخيس».

وقد امتنّ مانغويل للمكتبة امتنانا عظيما؛ فوصفها بأنها مرآة الكون ورفاهية الروح وطريق الخلود، وتندّر بعضهم فلقّبه (دون جوان المكتبات).

واحتفى بالقراءة أيّما احتفاء، حتى كانت مرضه الذي ارتضاه! ولوْثته التي سعى إليها! فعرَّف الإنسانَ بأنّه حيوان قارئ، وفضَّل أن يُلقَّب بالقارئ لا الكاتب، ولم ير بأسا في تشبيه ولعه بالقراءة بولع كازانوفا بالنّساء! كما سطّر أربعةَ كتب تحدثَّت بإسهاب عن فنّ القراءة، وهي: (تاريخ القراءة) و(يوميات القراءة) و(فن القراءة) و(المكتبة في الليل)، فتُرجِمت إلى لغات عدّة من بينها العربية، وذلك في بادرة لم يُسبق إليها، ولِيُتوَّج بذلك مِلكا على عرش القراءة ومتحدِّثا عالميّا باسمها في كلّ محفل دولي وإقليمي.

ومِن طرائفه التي يحكيها مع الكتب؛ أنّه وفي يوم عمّ فيه الإضراب باريس، حتى شُلّت الحركة وتوقَّفت المواصلات؛ دخل إحدى المكتبات، ودفع كلّ ما معه من نقود ثمنا للأعمال الكاملة للروائي البريطاني روديارد كبلنغ، ثمّ تذكّر الإضراب وتوقُّف المواصلات، وأنّ عليه العودة ماشيا حاملا على كتفه تلك المجموعة البالغ عددها ٢٥ كتابا، فسأل البائعَ أن يعطيه ٥٠ فرنكا أجرة الطريق لكنّه رفض، ولم يكن هنالك من بديل سوى الشروع في المشي بصحبة أسفاره الثقيلة، وإذْ بامرأة تقود سيارتها الخاصة؛ ترأف بحاله، وتصرّ على توصيله إلى

منزله. ويتذكّر كيف أنّه أحس بعذاب فوق الطاقة حين اضطرته ظروفه الصحية إلى دخول المستشفى وإجراء جراحة عاجلة أبعدته عن كتبه مدة أسبوعين. ثمّ يذكر كيف أنّ الكتب تطارده حتى في أحلامه، فوجد نفسه ذات حلم، داخل غرفة مكتبته، وحوله أعداد غفيرة من الكُتّاب المعروفين لديه، رغم أنهم ميتون، ولّما لمح بينهم الشاعرة الأمريكية دنيس ليفرتوف، اقترب منها مبتهجا ومرحّبا، ولكنّها ابتسمت، وشرعت في سحب الكتب من رفوف المكتبة، قاذفة إياها في الهواء بمرح!

ويَطيب القول هنا بأنّ تاريخ القراءة بدأ مع اختراع الكتابة، ولكنّها ظلّت محدودة الانتشار والتأثير إلى أن اخترع الصينيّون الورق، فحدَثت انفراجة يسيرة أمكن فيها نسخ الكتب يدويا، مع أنّ هذه الكتب بقيت بعيدة المنال لغلوّ ثمنها وقلّة أعدادها. إلى أن جاء الفتح المبين مع اختراع المطبعة، التي اختطفها الألمان مِن بين أنياب الصينيين الذين كانوا أقرب إلى اختراعها، ومعها بات مِن اليسير طبْع ملايين الكتب وبالتالي توفّرها بين يدي الجميع. وبديع هذا الوصف البليغ الذي احتفى بالمطبعة فقال: «المطبعة أمّ المعرفة: لها ثمانية وعشرون جنديا هم

حروف من الرصاص، تنفذ إلى المعاني، فتفتح مغاليق الجهالة. وهذه الحروف تذوب في كتاب، ثمّ ترسل إشعاعها عن طريق العين إلى العقل والقلب، فإذا الإشعاع نور الدنيا ولألاء الحضارات».

القراءة
سعادة

(٢١) أبو إسحاق الحُوَيني (١٩٥٦-....)

راية خفّاقة في سماء الدعوة السلفية، وإمام الحديث في بلد الأزهر الشريف؛ سمّاه والده (حجازي) لدى عودته مِن رحلة الحجّ بالحجاز، ولكنّ الاسم بقي حبيس شهادة ميلاده المُسطَّرة بتاريخ العاشر من يونيو سنة ست وخمسين وتسعمائة وألف، فلا يكاد يعرفه إلّا القلّة القليلة من المقرَّبين. أمّا كنيته (أبو إسحاق) فقد سارت بدون ركْب بين المريدين وحلّقت بلا جناح في آفاق العالم الإسلامي، وهي كُنية تحلَّى بها تيمُّنا بالصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وتبرُّكا بعلّامة الأندلس الإمام الشاطبي رحمه الله، واللذان سبقاه إلى تلك الكنية جرْيا على عادة السلف في التكنّي. بينما يعود لقب (الحوَيني) إلى مسقط رأسه بقرية حوين في محافظة كفر الشيخ؛ الواقعة في الشمال المصري،

والمطلّة على البحر الأبيض المتوسط. ومعلوم أنّ الكنية مركَّب إضافي يُصدَّر بأب أو أمّ ويَرمي إلى تعظيم المَكْنيّ وإجلاله، بينما اللقب اسم يُعرف به الشخص ويُراعى فيه المعنى ويأتي في باب المدح أو القدح.

ومع أنّ الرجل لم تكتحل عينه بالدراسة الأزهرية، بل درس بالمدارس الحكومية الابتدائية ثمّ الإعدادية والثانوية، وتخرّج في كلية الألسن بجامعة عين شمس، وتبحَّر في اللسان الإسباني حتى فاق فيه أهله، ودار بخلده أن يلحق بمجمع اللغة الإسبانية في رحاب الأندلس السالف؛ إلّا أنّ الأقدار ساقتْه إلى اللسان العربي والعِلم الشرعي، فبرّز في عِلمٍ عزّ فيه الطالبون وندر فيه المبرّزون، ووصفه الشيخ بأنّه حبّه وحياته، وهو علم الأثر المُسمَّى بعلم الحديث والمَنوط بأحوال السند والمتْن من حيث القبول والردّ.. فجلس له بين يدي أربابه في مصر حين صحب شيخه محمد نجيب المطيعي على مدار أربعة أعوام، وحين رافق صاحب فقه السنّة الشيخ سيد سابق، هذا قبل أن يسير على هدْي الكبار من طلّاب العلم فيرتحل إلى الأردن في حضرة أستاذه الألباني، وإلى أرض الحرمين في جوار العلامتيْن ابن باز وابن عثيمين، وغيرهم. فضلًا عن القرآن الذي أتقنه على يد خاله المتميّز في القراءات.

وقد مثَّل كتاب (صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها) لِمصنِّفه الشيخ الألباني، شرارة أضاءت له درب هذا العلم الشريف، وذلك حين ألفاه ثاويا على الرصيف عند أحد باعة الكتب، وعزّ عليه تدبير ثمنه، واكتفى عندها بتصفّحه وابْتياع ملّخصه، ولكنّه بعدما قرأه وأنهاه أثناء ممشاه إلى مسكنه، حتى بدت عليه أعراض الببلومانيا وانتابتْه حمّى شراء أصل الكتاب، وهو ما أنجزه بعد بضعة أيام وداوى به شهوة العقل التي تفوق في قوّتها شهوة البطن. ثمّ كان (كتاب الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) للإمام الشوكاني، وكتاب (المنار المنيف) لابن القيّم والذي احتجّ به على فارس المنابر (الشيخ كشك) فضعَّف له حديثا ساقه في إحدى خطبه التي واظب على حضورها، وعندها نصحه الشيخ نصيحة تُنقش على جدران الأفهام وتُوزن بمثاقيل الذهب، فخاطبه قائلًا: يا بني تعلَّم قبل أن تعترض. أمّا زبدة الكتب ورمّانة القبّان، فكان كتاب المئة حديث الأولى ضمن سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة لمحدِّث الشام (الألباني) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي قال عنه: مكثتُ في رحابه سنتيْن كانت من أفيد السنين في التحصيل، وكان قاصمة الظهر التي لا قائمة بعدها، إذْ رغّبني في دراسة الحديث.

ونظرا لضيق ذات اليد التي أعجزتْه عن تدبير أثمان الكتب وحالت بينه وبين اقتنائها، فقد عرف طريق المكتبات وهام برفوفها، ثمّ راح يتصفّح كتبها بعينيه تارة وينسخها بقلمه تارة ويتحسّسها بأنامله تارة ويتشمّمها بأنفه تارة، بل وسلك مسلك الجاحظ فكان يبيت في إحداها تفضّلا من صاحبها لا اكتراء كما فعل ابن بحر، وذلك أثناء فترة تأدية الخدمة العسكرية والتي ذكر أنها المرحلة الذهبية في طلب العلم.. ولهذا وضع في رقبة المجتمع تفريغ طلبة العلم؛ فلا ينفقون أوقاتهم في اللهاث وراء الخبز والزيت والسكر، بل يدّخروها لإتقان أصول العلم والذود عن حياض الدين؛ إيمانا منه بأنّ إيجاد العلماء مهمة الأمّة جمعاء، وأنّ كثرة العلماء تكبح المبتدعة فلا يطلّوا برؤوسهم فضلًا عن ألسنتهم، وأنّ الاعتداء على البخاري أعظم مِن سلب الأرض .

هذا عدا عن مكتبة أخيه الأكبر، التي حبّبت إليه القراءة في ريعانه؛ ففتحَت عيونه على كتابات الرافعي ومحمود شاكر والعقاد ويحيى حقي وتوفيق الحكيم والمنفلوطي، ولفتت انتباهه إلى دواوين شوقي وحافظ وعلي الجارم ومحمود حسن اسماعيل، فضلًا عن شاعر السيف والقلم (محمود سامي البارودي) الذي ألهب ذائقته الشعريّة وولّد لديه ملَكة النظْم في سنّي عمره الأولى. ولعلّ هذا

كلّه كان دافعًا لاقتنائه مكتبة شرعية باذخة، نمت وترعرعت مع الأيام، حتى احتلّت من الجدران ثمانية عشرة ومِن الغرف ستّة، بعد أن طردَت ساكنيها فلم يعد لهم في جوارها مقام، وصارت قبلة للباحثين ومزارا لطلّاب العلم وإرثًا للأجيال القادمة.. وهذا لعَمري هو الإحسان كما ينبغي، والصدقة الجارية التي لا ينقطع مددها بانقطاع الأجل وفناء البدن.

ولأنّ البذرة الطيبة لا تثمر إلّا طيّبا؛ فقد آتت هذه القراءاتُ أُكُلها وأثمرت عِلما وفقها شهدت به الخطب والمحاضرات والدروس واللقاءات، ودلّت عليه مؤلّفاته العديدة التي ربت على المئة، وتنوّعت بين فنون التحقيق والتخريج والاستدراك والنقد، وغيره من ضروب التأليف الواسعة، ومنها كتابه (تنبيه الهاجد إلى ما وقع من النظر في كتب الأماجد) بأجزائه الستة. هذا فضلًا عن توقير العلماء له وشهادتهم في حقّه، وعلى رأسهم الشيخ الألباني الذي زكّاه فسلّمه راية الحديث، وقرّظه بقوله: قد صحّ لك مالم يصحّ لغيرك.

القراءة متعة لا تنتهي

الخاتِمة

اعتدْنا مع بلوغ الخواتيم؛ إغلاق الأقواس ولَمْلمة الأوراق، ثمّ استخلاص التوصيات وعرْض النتائج.. ولكنّ الارتحال مع القراءة ارتحال استثنائي يخرج بنا عن طور الاعتياد، وارتحال ممتدّ لا يعبأ بالشطآن؛ مخر عبابَه السابقون ومازال يتشوّقه اللاحقون، فما أكثر ما ترك السابقون للّاحقِين.

وما كان ذلك الاستثناء والامتداد؛ إلّا لأنّ حديثّ القراءة هو النجم الأَضْوء في سماء الثقافة والعنوان الأبْرز في كتاب الحياة؛ ذلك الكتاب الشهيّ العامر الذي لا تنفضّ مائدتُه ولا تفرغ جعبتُه، إلّا مع نفخة الصور وإغلاق سوق الدنيا. علاوة على أنّ فِعل القراءة هو ديْدن أصحاب الهمم الذين تزعجهم النهايات المغلَقة، ونهج أرباب الطموح الذين يحترمون العقل فيرخون له العِنان ويفتحون أمامه النهايات...فخيْر النهايات ما كانت ميلادًا لبدايات.

فضلًا عن أنّ القراءة ضرب من ضروب الجمال، والجمال طاقة لا منتهى لها وأُفق لا حدّ له؛ إذْ يَطوف القارئ طوفان النّحل بين الأزهار ويَجول في بساتين المتقدّمين والمتأخِّرين، فيمتص من رحيق القرآن والحديث والفقه،

ويحلّق في رياض اللغة والتاريخ والأدب، ويتعطّر برياحين الحِكم والأمثال والتراجم، ليعود محمَّلا بعسل مصفّى؛ يتصدّق به على عقله فيرقَى، ويعرج به على قلبه فيفقه، ويجود به على وجدانه فيشفّ ويرقّ، ثمّ يفيض به على غيره ليُثاب ويُخلَّد...فالتعليم -كما قال الإمام النووي- مِن آكد العبادات، وشمعة واحدة تكفي لإشعال مئات الشمعات، وعلى قدر العزم تُؤتى العزائم.

على أن لا يعزُب عن تفكيرنا أنّ القراءةَ وسيلةٌ لا غاية وتطبيقٌ لا تنظير، وأنَّ ثمرتَها تكمن في النزول بها إلى أرض الواقع ثمَّ العمل على ضوء هدْيها؛ فالعِلم -كما قال سفيان الثوري- يهتف بالعمل فإنْ أجابه وإلّا ارتحل، وكمال الإنسان -كما يعتقد ابن سينا- كامِن في العلم والعمل معا، والكاتب -كما قال جاحظ أهل السُنّة (ابن قتيبة)- يُمتحَن بالعمل في الأرْضِين لا في الدفاتر.

اللهمّ اكتبْنا عندك في عِلّيين، وتَقبَّلنا في جوارك العليّ الرفيع، واجعل هذا الكتاب خالصًا لوجهك الكريم.

المؤلِّف

د/منير لطفي

المؤلف في سطور

- د. منير لطفي محمّد علي.
- مواليد ريف الدقهلية١٩٦٥م.
- تَخرّج في كلية طب المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدًا مع مرتبة الشرف).
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدًا).
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز).
- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية
- نشر العديد من المقالات والمشاركات في الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية.

صدر له:

- السكّري...الداء والدواء، دار البدر، ٢٠١٤م
- أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، ٢٠١٦م
- الغروب الدافئ، دار الأندلس الجديدة، ٢٠١٧م
- طريقك إلى التميّز، دار عالم الثقافة، ٢٠١٧م
- رحلتي مع مرض السكري، دار عالم الثقافة، ٢٠١٨م
- عدا عن كتب أخرى قيد التهذيب والطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

أُثِر عن الإمام الشافعي قوله: «أَبى الله أن يكون كتابًا صحيحًا غير كتابه»، فرحِم الله قارئا فَطِنا؛ عايَن زلَلًا، أو لامَس عيبًا، أو وقع على خطأٍ...فأهداه إليّ.

للتواصُل..

د/ منير لطفي

Dr36444@yahoo.com

المصادر والمراجع

١ – عبد الكريم بكّار/ القراءة المثمرة

٢ – راغب السرجاني/ القراءة منهج حياة

٣–محمد آيت حنّا/ مكتباتُهم

٤–منير لطفي/ طريقك إلى التميّز

٥–عارف الشيخ/ القراءة من أجل التعلّم

٦–زكي مبارك/ الحديث ذو شجون

٧–عبد الكريم بكار/ تكوين المفكّر

٨–حسن آل حمادة/ من وصايا جدتي

٩–محمد الأحمري/ مذكّرات قارئ

١٠–حنفي المحلاوي/ الأيام الأخيرة في حياة هؤلاء

١١–العقاد/ أنا

١٢–هالة الأبلم/ تجربتي في العلاج بالقراءة

١٣-ماري ليونهاردت/ حبّ القراءة

١٤-محمد صالح المنجد/ كيف تقرأ كتابا

١٥-أورهان باموق/ ألوان أخرى

١٦-راندا الشيخ/ أسطورة الكتابة

١٧-سلام خياط/ اقرأ

١٨-أنس الرفاعي/ تسريع القراءة

١٩-عبد الكريم بكار/ صفحات في التعليم

٢٠-فهد الحمود/ قراءة القراءة

٢١-دانيال بناك/ متعة القراءة

٢٢-ألبرتو مانغويل/ تاريخ القراءة

٢٣-خالد محمد خالد/ الوصايا العشر

٢٤-جودت سعيد/ اقرأ وربك الأكرم

٢٥-محمد سعيد العريان/ حياة الرافعي

٢٦-عبد المجيد تمراز/ رمضاني والقراءة

٢٧-حسن البلوشي/ خطى نحو مجتمع قارئ

٢٨-سلمان بن عمر السنيدي/ تدبُّر القرآن

٢٩-ساجد العبدلي/ اقرأ

٣٠-ألبرتو مانغويل/ يوميات القراءة

٣١- مصطفى ناصف/ اللغة والتفسير والتواصل

٣٢- أمير تاج السرّ/ ضغط الكتابة وسكّرها

٣٣- محمد موسى الشريف/ الثقافة الآمنة

٣٣-خليل الحاج/ التعلّم السريع

٣٤-بيتر شيفرد/ القراءة السريعة

٣٥- محمد خير رمضان/ آداب إعارة الكتاب

٣٦- هنري ميللر/ الكُتب في حياتي

٣٧- علوي السقّاف/ الفوائد المكّية

٣٨- العقاد/ ساعات بين الكتب

٣٩- ابن الأثير/ المثَل السائر

٤٠- عابدة المؤيّد العظْم/ هكذا ربّانا جدّي

٤١- محمد عدنان سالم/ هموم ناشر عربي

٤٢- أشرف غريب/ القراءة السريعة بأسلوب النجمة

٤٣- حسن آل حمادة/ تجارب الكتاب من القراءة إلى الكتابة

٤٤-حازم زكريا/ الشيخ طاهر الجزائري

٤٥- تمراز، علي أبو الحسن/ كيمياء القراءة

٤٦-المازني/ سبيل الحياة

٤٧-أنور الجندي/ أعلام الفكر والادب

٤٨-طارق سويدان/ كيف أقرأ

٤٩-طارق سويدان/ ماذا أقرأ

٥٠- علي الطنطاوي/ فصول في الثقافة والأدب

٥١-محمود الخفيف/ أبراهام لنكولن

٥٢-عبد العال الرشيدي/ الشذرات في اخبار الكتب والكُتّاب والمكتبات

٥٣-محمد موسى الشريف/ الطرق الجامعة للقراءة النافعة

٥٤- طائفة من المفكِّرين/ لماذا نقرأ

٥٥-ليزلى ليفيت/ رجال عظام ونساء عظيمات

٥٦- العبدلي وتمراز / ٢٧ خرافة شعبية عن القراءة

٥٧-علي العمران/ المشوّق إلى القراءة وطلب العلم

٥٨-علي عزت بيجوفيتش/ هروبي إلى الحريّة

٥٩-محمود أبو ريه/ من رسائل الرافعي

٦٠-رابطة الادب الإسلامي/ الشيخ أبو الحسن الندوي

٦١- أحمد العلاونه/ في الكتاب وأحواله

٦٢-كامل عويضة/ محمد إقبال، شاعر وفيلسوف الإسلام

٦٣-أخرى(صحف-مجلات-دراسات وأبحاث-الشبكة العنكبوتية)

مَفَاتِيحُ القِرَاءَةِ

فهرس المحتويات

الموضـــــــــــوع	صفحة
الإهداء	٥
بين يدَي الكتاب	٦
المفتاح الأول: لماذا نقرأ	٢١
لماذا لا نقرأ	٢٣
القراءة قنطرة الحضارة	٣٠
القراءة بسبْع أمثالها	٣٣
مِداد الكاتِب	٣٧
كلّ السّلوات في جوف الكتاب	٤٢
حياة ثانية	٤٦
سفر لا عذاب فيه	٤٩
دواء وعلاج	٥٣

نِعم الأنيس وأوْفى الصِّحاب ٥٧
ترياق الحزن وإكسير الفرح ٦٠
طفولة مميَّزة ٦٤
سبيل الحريّة وطريق الاستقامة ٧٦
إحياء الوقت الميت ٧١
نقطة الانطلاق ٧٥
بناء الذات ٧٩
علامة الإنسانيّة ٨٣
شاطئ الذكريات ٨٧
زاد الدُّعاة ٩١
اقْرا تُؤجَر ٩٥
صنعة العظماء ٩٨
هزيمة الجهل ١٠١
أمْر إلهي ١٠٥

المفتاح الثاني : كيف نقرأ ؟ ١٠٩

من المهْد نبدأ ١١١

الآلة والآليّة ١١٥

الصمْت أمْ الجهْر؟ ١١٩

الشاشة أم الورق؟ ١٢٣

متى، وأين؟ ١٢٨

هكذا نقرأ ١٣٣

القراءة الاستكشافيّة ١٣٨

القراءة التحليليّة ١٤٢

القراءة السريعة ١٤٦

القراءة الجماعيّة ١٥٠

اعبر الحواجز ١٥٣

في الإعادة إفادة ١٥٨

ضع بصمتك ١٦١

لخِّص كتابًا ١٦٥
قراءة الكاتب؟ ١٧٠
الرّفَفي ١٧٤
الإعارة والاستعارة ١٧٨
توقير الكتب ١٨٤
كيف تنظِّم مكتبَتك؟ ١٨٨
القارئ المغرور ١٩٢
قراءة الأحرار لا العبيد ١٩٦
المفتاح الثالث: ماذا نقرأ ٢٠١
سؤال القراءة الأوّل ٢٠٣
الكتاب أوّلا ٢٠٧
تَخيَّر كتابَك ٢١٣
لا خاب مَن استشار ٢١٨
المؤلَّف لا المؤلِّف ٢٢٣

نستفتح بالذي هو خير ٢٢٨

تفاسير القرآن ٢٣٣

كتب الرقائق ٢٣٧

ذخائر الأدب ٢٤١

دواوين الشعر ٢٤٥

الروايات ٢٥٠

كتب التاريخ ٢٥٦

التراجِم والسِّير ٢٦٢

كتب التطوير الذاتي ٢٦٨

كتب الأطفال ٢٧٢

الكتب المترجَمة ٢٧٧

الأكثر مبيعًا ٢٨٣

الكتب الهابطة ٢٨٨

الصفحات المَنْسيَّة ٢٩٤

المفتاح الرابع: نجوم في سماء القراءة ٣٠١

الجاحظ ٣٠٣

ابن الجوزي ٣٠٩

يحيى بن شرف النووي ٣١٤

شافع العسقلاني ٣٢٠

ابن تيمية ٣٢٤

ابن القيِّم ٣٢٩

أبراهام لنكولن ٣٣٥

طاهر الجزائري ٣٤١

برناردشو ٣٤٨

محمد فريد وجدي ٣٥٤

مصطفى صادق الرافعي ٣٦٠

عباس محمود العقاد ٣٦٨

إبراهيم عبد القادر المازني ٣٧٧

علي الطنطاوي ٣٨٣
أبو الحسن الندوي ٣٨٩
أنيس منصور ٣٩٦
مالكوم إكس ٤٠٢
علي عزت بيجوفيتش ٤٠٧
محمد عمارة ٤١٤
ألبرتو مانغويل ٤٢١
أبو إسحاق الحويني ٤٢٨
الخاتمة ٤٣٤
المؤلِّف في سطور ٤٣٦
للتواصل ٤٣٨
فهرس المراجع ٤٣٩
فهرس الموضوعات ٤٤٥

تمت بحمد الله